رواية .. خطوات في الليل



من المنفى الكاتب السوري

محمد الحسناوي*

محضر

تنفيذاً للمهمة الموكلة إلى فرعنا ذي الرقم (1) قمت على رأس عناصرنا –حسب التعليمات المفصلة – بمداهمة البيوت الثلاثة ليلة يوم الخميس الموافق 80/6/5 واعتقال الذكور البالغين فيها، ومصادرة الوثائق والمستمسكات الموجودة، وعلى الرغم من تنفيذ المهمة في اقتحام البيوت على التوالي... لم تستغرق أكثر من ساعة واحدة أي من الساعة 1/2، 13 حتى الساعة 1/2، 14، ولم تكن هناك ضجة تذكر، بحيث لم يكد الجيران يشعرون إلا كما يشعر الجار برحيل جيرانه مع بعض أمتعتهم. وقد كانت الحصيلة على الشكل التالي:

في البيت الأول:

أ – اعتقال الأشخاص التالية أسماؤهم حسب ادعائهم:

– حامد أبو الفضل: في العقد الرابع من عمره.

– مجاهد الربيعي: (ابن أخت حامد أبو الفضل) فتى فوق الخامسة عشرة.

– عبد الوهاب شعار: ضيف يعمل تاجراً في العقد الثالث من عمره.

ب – الوثائق والمستمسكات:

– آلة كاتبة

– خزانة (كاصة) حديدية: أرشيف يملأ ثلاثة أدراج منها.

– مكتبة صغيرة تجدون ربطاً قائمة بمحتوياتها.

– مجموعة من المجلات والصحف السورية والعربية والأجنبية.

– مجموعات كاملة من النشرة السرية (النداء).

– محتويات سلة المهملات.

– جوازات سفر وهويات للأشخاص المعتقلين ولبقية سكان البيت الأول، وهم:

سعاد أبو الفضل (في العقد الرابع)، ميساء الربيعي 11 سنة، حذيفة 5 سنوات.

– متفرقات.

ج – ملاحظات لم تحصل مقاومة، ولحسن تصرف حامد أبو الفضل وتنفيذاً لتعليماتكم تم فك القيد عن يديه، ولم يعرف بأنه قيادي.

في البيت الثاني:

أ – اعتقال المدعو جميل بستاني: في العقد الرابع من عمره.

ب – الوثائق والمستمسكات:

– دفاتر محاضر جلسات التنظيم السري.

– مجموعة من الكتب والصحف.

– أعداد متفرقة من النشرة (النداء)

– جوازات سفر وهويات للمدعو جميل بستاني وأخته خديجة (في العقد الثالث) وأولادها 3 ذكور و 7 بنات ولامرأة ضيفة سورية أيضاً اسمها رتيبة (في العقد الثالث) مع أربعة أولاد: صبيين وبنتين.

– متفرقات

ج – ملاحظة: لم نعثر على مفتاح السيارة التي يستخدمها جميل البستاني.

في البيت الثالث:

أ – اعتقال كل من المدعوين: – عبد الحكيم السيد: في العقد الثالث.

– إبراهيم ماضي: في العقد الثالث.

ب – الوثائق والمستمسكات:

– كمية وافرة من المجلات والصحف السورية والعربية الأجنبية.

– مذكرات وكتابات جاهزة للنشر.

– أعداد متفرقة من نشرة (النداء)

– جوازات سفر وهويات للمدعوين: عبد الحكيم السيد وإبراهيم ماضي، ولزوجة إبراهيم المدعوة سمية الشاش (في العقد الثالث) وابنته الطفلة نجاح.

– مكتبة صغيرة، تجدون ربطاً قائمة بمحتوياتها.

– متفرقات.

ج – ملاحظات: تغيب أحد سكان البيت المدعو فارس سلمان عن المبيت ليلة المداهمة ولم نحصل له على عنوان. وهو الآن طليق. مواصفاته: في العقد الثالث – شعره أسود – عينان سودوان – أبيض البشرة – غير ملتح – طوله فوق /170/سم يميل إلى النحافة – سريع التنقل اسمه الحركي (أبو عبد الله).

حرر في 1980/6/5.

الليلة الأولى:

مساء يوم الأربعاء 4 حزيران 1980

أغلق باب الزنزانة رقم 13 على المعتقل الجديد

حسان الربيعي (واسمه الحركي حامد أبو الفضل).

جال حسان بنظره في ظلام الزنزانة الذي لا تؤثر فيه أشعة متلصصة من تحت الباب الحديدي المحكم، ولا ارتجاف النجوم في سماء الأفق البعيد عبر الكوة المرتفعة في صدر الزنزانة. خلال ثوان أحس الضيف الجديد بأن هناك شريكاً له في الزنزانة، وهو الآن يغط في نوم عميق.

– أهو سجين مثلي أم فخ؟ فلأكن حذراً على كل حال.

مما يرهق حسان أن عملية المداهمة فالاعتقال وقعت بعد يوم عمل شاق، وقبل أن ينال جرعة من نوم يؤهله لتلقي الصدمات، والتعامل مع المفاجآت بطمأنينة كافية.

فتح باب الزنزانة فجأة. أطل الحارس الأسود الضخم. قذف للضيف الجديد بفراش اسفنجي عسكري ضيق وبطانيتين. ثم أغلق الباب، وأعاد المزلاج، وأحكم القفل بسرعة.

– يبدو أن الفجر لم يطلع بعد. فلأدرك صلاة الصبح قبل فوات الأوان. بسط حسان البطانية. بدأ يخمن جهة القبلة. تنحنح الشريك النائم وسأل: ماذا تصنع؟

– عفواً. أريد أن أصلي. أين القبلة؟

– نحو الزاوية البعيدة (أجاب بصوت أجش).

طوال صلاته كان حسان يستبعد في ذهنه أحداث هذه الليلة. كان كل جهده مركزاً على استحضار خشوع القلب، والتماس العون من الله تعالى. حرص على أن يتلو أوراده كاملة بعد الصلاة. حين وصل إلى مقطع هام أخذ يتلوه بهدوء وإمعان وتدبر:

"اللهم إنك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على

محبتك، والتقت على طاعتك، وتوحدت على دعوتك، وتعاهدت على نصرة شريعتك فوثق اللهم رابطتها، وأدم ودها، وأهدها سبلها، واملأها بنورك الذي لا يخبو، واشرح صدورها بفيض الإيمان بك، وجميل التوكل عليك، وأحيها بمعرفتك، وأمتها على الشهادة في سبيلك..

حين تلا هذه العبارة (وأمتها على الشهادة في سبيلك) تسارعت دقات قلبه. شعر بخوف حقيقي. تردد: هل يرفض ذلك؟ تذكر أنه حين أدى فريضة الحج تعمد أن يدعو الله تعالى في ظل الكعبة المشرفة بأن يرزقه الشهادة في سبيل الله، فما باله الآن يتردد؟!

أخيراً حمل نفسه وتابع:

"إنك نعم المولى ونعم النصير"

في هذه الأثناء كان شريك الزنزانة قد استيقظ وتنحنح وسعل بشدة أكثر من مرة، وأشعل أكثر من لفافة تبغ، عطر بدخانها جو الزنزانة العفن إلى أن أتيحت لحسان الفرصة كي يخرج من الزنزانة للوضوء. ثم العودة واستدراك الصلاة.

بين النائم والمستيقظ كان حسان يتردد في تصديق ما وقع له في هذه الليلة:

إنه الآن يحس بعينيه ظلام الزنزانة ويسمع بأذنيه اصطكاك الأبواب الحديدية والأقفال. ونحنحات السجناء وسعالهم استعداداً للاستيقاظ مع ذلك لا يصدق بأنه فوجئ بعد ساعة من نومه بقرع شديد على باب بيته وجرس بابه وأصوات جمع تنادي: (افتح. افتح)

– هل أطبقت السماوات على الأرض. ما هذه الضجة الرهيبة. أين أنا؟

أضاء حسان مصباح الكهرباء بلا تفكير. اندفع إلى الباب يفتحه مرغماً، ليزيل وطأة الكابوس العنيف الذي سطا عليه. اندفع من الباب حشد من الرجال المسلحين. صوبوا إليه وإلى أفراد أسرته المذعورين فوهات البنادق الرشاشة. قالوا بأصوات منكرة: ارفعوا أيديكم جميعاً. لا تتحركوا.

– ماذا تريدون؟ من أنتم؟

تطلع حسان يتفرس في وجوههم، يتفحص لهجتهم، أهم من المخابرات السورية، أم من رجال الأمن المحليين؟

خلال دقائق انتشر المسلحون في أرجاء البيت يضعون القيود في أيدي الرجال، ويفتشون عن كل شيء وفي كل شيء.

توقفت ذاكرة حسان المتعبة عند مشهدين، الأول حين رأى ابنته المذعورة حاسرة الشعر والذراعين في ثياب النوم الصيفية، فنبهها قائلاً:

– يا بنتي لا تخافي، البسي حجابك يا ميساء.

والمشهد الثاني حين دخل قائد المجموعة المسلحة، وكلهم بلباس مدني وانتحى به ناحية، وطلب فك القيد عن يديه، وسأله بلطف:

– هل أنت قيادي؟

– لا!

– أين اللاسلكي؟

– لا يوجد

– على كل حال أحب أن اطمئنك نحن جئنا لحمايتكم لا أكثر.

– هل هذه الخبطات على الأبواب، وهذه الرشاشات المصوبة علي وعلى العيال والأطفال تعتبرها حماية.

وبعد منتصف الليل؟!

– المعذرة تفضل معنا.

***   *   ***

قال شريك الزنزانة.

أهلاً وسهلاً. أنا همام الجبيلات. اسمك؟–

– حامد أبو الفضل.

– يبدو أنك جديد. أنا جندي أول محكوم بالحبس عشرة أيام لأنني تغيبت يوماً واحداً في آخر الإجازة.

– ....

– قضيت خمسة أيام. أنا من حراس هذه الدائرة. ماذا تعمل؟

– تاجر كتب.

بدأت أشعة الشمس تغزو الفضاء الخارجي، وأخذت تتسلل ببطء إلى الزنزانة. وكما تخيل حسان شكل شريكه في الظلام وجده أمامه متكوماً على فراشه. كما يتكوم فيل عجوز: أنف أفطس على بطيخة سوداء، على جوالق تبن أو لفت يرتج كرشه المنفوخ ارتجاجات متناسقة مع كل نحنحة أو سعلة. أما يداه ورجلاه، فلا تكاد تميزها لولا كثرة استعانته بها للتعبير عما يريد وتمثيلاً للأشياء التي يتحدث عنها، مما يذكرك بحركات أطراف الدمى على مسرح الأطفال.

قال حسان لنفسه:

– لا شك أنه فخ منصوب لي! من أين لمخلوق أن يظهر بكل هذه البلادة والسطحية لو لم يكن مدرباً ومجرباً!؟

***   *   ***

تذكر حسان مشهداً ثالثاً، وهو يغادر الباب الخارجي لبيته حين اقترب الضيف منه ومن ولده، وقال لهما هما:

– تذكروا. أنا عبد الوهاب شعار. أبو سمير لا أبو طلال (يقصد الاسم الحركي) فجذبه العنصر المسلح بقوة إلى سيارة التاكسي من قيوده.

قدم شريك الزنزانة علبة سجائره للمرة الثالثة، فاعتذر حسان بأدب، وتظاهر بسماع حديث صاحبه همام، ولكنه كان شارد اللب، مشتت الخواطر، يرغم نفسه على اليقظة أو النسيان فلا يستطيع.

فتح باب الزنزانة. واستضاءت جدرانها الصفر، وألقى إليهما الحارس الأسود طعام الإفطار.

قال حسان: لست جائعاً.

نظر إليه الحارس نظرة تحذير:

همس همام الحجيلات.

– لا تعترض. أنا آكل عنك كل ما يزيد.

أتيح لحسان هذه المرة أن يميز ملامح الحارس الأسود. أنه شبيه بالغوريلا، ولا يختلف عن همام الحجيلات إلا في طول الأطراف وامتداد القامة، أما الضخامة والأنف الأفطس والرقبة القصيرة (مثل رقبة القطرميز) فصفات مشتركة بينهما.

لكن من الواضح أن همام أكبر سناً من الحارس، (لعله أبوه؟!)

طعام الفطور: قطعتان كبيرتان من خبز الصمون. قطعة جبن، بيضة، دجاج مسلوق، بضع حبات من الزيتون في صحن (بلاستيك) صغير.

قال همام:

– حين تحضر الشاي اطلب لنفسك كوب (بلاستيك) واحتفظ به. أنت من الشام؟!

تذكر حسان مشهداً آخر. حين وصل رتل السيارات

التي حملتهم إلى مفترق طريق يؤدي إلى العاصمة أو إلى سورية، قال في سره:

– الآن نعلم مصيرنا. هل يذهبون بنا إلى مشانق دمشق، أم إلى سجون هذا القطر المحلية؟!

إن السلطات المحلية لم تسلمنا أخيراً للسلطات السورية، ولم تعبر الحدود بل اتجهت بنا إلى العاصمة، ولكن هل يكفي هذا للاطمئنان؟!

أخيراً أضرب حسان عن التفكير والذكريات والأحلام، وحصر جهده كله في أن ينال قسطاً من النوم، فتمدد على فراشه الأصفر، وأرغم نفسه على تخيل قطيع من الأغنام تأوي إلى الحظيرة واحدة واحدة حتى ينام!

كانت تنتاب حسان حالة غريبة من تداخل الأحاسيس والذكريات، فلا هو بالنائم ولا هو باليقظان، فقد تذكر أو استعاد في الحلم شريط هجرته من سورية ووصوله إلى هذا القطر العربي المجاور منذ سنة كاملة، ففي يوم الاثنين من منتصف شهر نيسان عام 1979 استطاع أن يزور المدرسة الثانوية التي كان يعمل فيها. وأن يوقع على دفاتر الدوام. وأن ينصرف تحت أعين الرقباء والمتربصين بحركاته وسكناته. وفي مساء ذلك اليوم وبالضبط وقت أذان المغرب تناول العشاء مع أسرته الصغيرة. وقد كان صائماً –وتبادل مع زوجته وأولاده.. خبر الاعتقالات التي تناولت عدداً من إخوانه، وقال:

– إنها ليست المرة الأولى، لكننا نرجو من الله تعالى أن تكون الأخيرة.

حدق حسان في وجوه زوجته وولديه مجاهد وميساء وشد حذيفة إلى صدره وقبله من رأسه وأردف:

– عهدت فيكم الشجاعة والصبر والتوكل على الله.

ربما لا أعود إليكم بعد اليوم. تذكروا العلامة التي بيننا إذا دوهم البيت في غيابي.

وخرج حسان لينام على فراش ضيق لدى صديقه عبد الحكيم، وليكتشف في الصباح أن بيته قد دوهم فعلاً وأن مجموعة أخرى من أحب إخوانه قد اعتقلوا في تلك الليلة: أبو محمد وأبو غياث وأبو بكر وعبد الرؤوف. وأنه لو نام في بيته لاعتقل هو أيضاً. نقل هذه الوقائع لصديقه عابد الشامي المتواري معه فلم يكد يصدق حتى تأكد الخبر من أخ آخر. وبعد مضي عشرين يوماً من التنقل والتخفي وتسيير أعمال (التنظيم) سراً خرج حسان مع عابد في سيارة خاصة، يقودها صديق عسكري من أحد أبواب مدينة حلب الرئيسة، حيث كان حاجز أمني يدقق في هويات العابرين، ويتفرس في وجوههم وأمتعتهم بحثاً عن الملاحقين.

ها هو الآن يحلم بآخر ليلة قضاها في إحدى القرى السورية المجاورة للحدود التركية بانتظار الرحيل مع الشمس.

كان صباحاً مشرقاً ذلك اليوم وهو السادس من شهر مايس، وكانت سنابل القمح تتماوج مع هبات النسيم تماوج بساط سندسي يملأ فضاء الأفق خارج القرية الهادئة الغافية. ولما وصل حسان وعابد وصديقهما إلى خارج القرية تلقاهما الدليل بتحية عاجلة وأشار لهما باللحاق به فوراً.

خلال نصف ساعة كان الرجال الثلاثة قد عبروا السهل وألقوا تحية الصباح على الفلاحين والفلاحات الخارجين إلى العمل، وشرعوا في تسلق التلال الصخرية بعد أن لف حسان وعابد أطراف السراويلات، وأدخلوها في الجوارب

لتسهيل انتقال الأرجل وعدم اشتباكها بأشواك الجبل الربيعية.

كان هدف الثلاثة أن يعبروا الحدود بسلام ونجاح. أما الدليل فهو يعرف منطقة العبور معرفة دقيقة لا تقل عن معرفته لدروب قريته، ولم يكن يشغل باله وهو يمضي صامتاً إلا أن يفي بوعده الذي قطعه لصديقه الذي نزل عنده هذان الرجلان ضيفين، وطلبا منه أن يساعدهما على مغادرة البلاد بأقرب فرصة ومن غير الطريق الرسمي.

– أنا لم أتعود في حياتي على القيام بمثل هذه المخاطرة، تهريب الأشخاص، ومع ذلك أشعر بحماسة لتنفيذ هذه المخاطرة. ما الذي حملني على هذا العمل الغريب؟ لقد عرض علي صديقي الوسيط المبلغ الذي أطلبه فما قبضت قرشاً واحداً، ولن أقبض في المستقبل، وإن كنت قطعت إلحاحه علي بالعودة إلى الموضوع مرة ثانية بعد إتمام العملية. إن صديقي الذي استقبلهما من أحب أبناء القرية إلى نفسي، وإن لم تجمعني معه مصلحة أو حرفة، لكن سيرته المستقيمة، وجرأته في قول الحق، ومحاربته للظلم، ولعملاء الحكومة كلها أمور جعلتني أحبه يوماً بعد يوم، وجعلتني أقترب منه أكثر، ولا بد أن هذين الرجلين من هذا النوع، وإلا ما الذي حملهما على ترك البلاد؟!

أحس الدليل أنه سبق صاحبيه بخطوات قليلة انسياقاً مع تفكيره الخاص، فانتهزها فرصة ليتأمل ملامحها ريثما يلحقان به.

كان عابد اللاحق الأول به، فتفرس في ملامحه:

رجل تجاوز سن الأربعين منذ سنوات، يميل إلى

الطول، عيناه زرقاوان، والشعر الكثيف على حاجبيه وشاربيه قد وخطه الشيب. تبدو على حركاته قوة أبناء الريف الذين تمرسوا بالمشي والأعمال الشاقة. لكن تصرفاته لا توحي بأنه صاحب سوابق، بل لا بد أنه من أهل الخير، فما الذي حمله على مثل هذه المغامرة وترك البلاد.

الرجل الثاني أصغر سناً بقليل وأضأل حجماً. هو في الأربعين عيناه سوداوان وأنفه دقيق، لم يحسن لف منديله الأبيض على رأسه مثل زميله الأول الذي لفه بإحكام واضح. يتأمل كل شيء يمر به: من طير وصخر ونباتات. كثير الإطراق، ينظر ما بين قدميه، لكنه بين الحين والآخر ينظر إلى السماء والأفق البعيد نظرات عميقة.

هو الآخر لا يبدو عليه أنه من أهل السوابق بالتأكيد، فما الذي جاء به إلى هنا؟!

(أصبحت أعيش في زمن غريب يسرح فيه اللصوص والمهربون وتجار المخدرات، ويبنون القصور، ويمتلكون السيارات الفخمة، ويلاحق مثل هؤلاء الذين يرفضون الانغماس في الغش والنفاق والسلب والنهب).

وقف الثلاثة في أعلى المنحدر الصخري المعشوشب. الدليل يتأمل صاحبيه بنظرات مختلسة. والآخران ينتهزان فرصة الاستراحة القصيرة لاسترداد الأنفاس، والاستمتاع بمناظر الصباح الجميل.

لقد أمضى عابد وحسان ثلاثة أسابيع في غرفة جانبية من دار عربية صغيرة في حي من أحياء حلب القديمة بعيداً عن الشمس والأنظار والجواسيس، وكانا قد أمضيا قبل ذلك شهراً كاملاً ينامان فيه خارج

بيتيهما. خلال شهور سابقة كانا في عمل متواصل ليل نهار حرما فيه من الراحة والتأمل والتعامل مع الناس والأشياء بشكل طبيعي. ها هما اليوم في أحضان الطبيعة الريفية بلا جدران ولا سقف ولا رقباء: الهواء نقي ندي. السماء صافية زرقاء واسعة مديدة وعميقة. الشمس مشرقة دافئة. الأرض بكر تتململ نباتاتها البرية تحت نسمات الصباح.

فكر حسان: لقد ولدت في بلدة ريفية، ولم أغادر تلك المنطقة إلا للدراسة العليا، وكنت أقضي معظم الإجازات والعطل الصيفية في بلدتي، وها أنذا أشعر كأنني لم أحس بجمال الريف وروعة الطبيعة كما أحس الآن. ما الجديد علي؟!

فكر عابد: هل هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها أرض بلادي وسماءها؟ هل يمكنني أن أختزن أكبر قدر ممكن من هذا النسيم العليل البليل ومن أصوات العصافير والبلابل؟!

فكر الدليل: الأول أبيض البشرة. الثاني: حنطي البشرة، شعره خرنوبي. هل رأيتهما من قبل؟!

فكر حسان: لماذا يختلف الناس ويقتتلون، ولديهم كل هذا الجمال وهذه الخيرات والأرض والأفق الرحب؟

أجفل حسان حين خطرت له خاطرة الاقتتال حول الأرض والخيرات، ولاحت له مأساة فلسطين، واحتلال الصهاينة لها، وطرد أهليها منها، فلم يصدق أو يقبل أن يكون مطروداً ولا مهاجراً.

– إنها الشام أرضي وأرض آبائي وأجدادي، إنها جولة للباطل ينتفش فيها ويصول ويجول حتى يلقى حتفه. أين الروم والصليبيون والتتار والفرنسيون؟ ذهبوا

جميعاً، وبقيت هذه الجبال وهذا التراب الأحمر القاني، وهذه الشمس الذهبية، وهذا الشعب الوادع الطيب: يفلح ويزرع، ويوحد الحي القيوم، كما توحده السماوات والأرضون ليل نهار: هل يعلم هذا الدليل لماذا نحن نلاحق، ولماذا نهاجر؟

استدعى انتباه حسان عدد من البقع الحمر ظهرت على شكل مبعثر حول رسغي قدميه فوق الجراب الرمادي اللون. ولما فحص مواضع البقع اكتشف أن أشواك الطريق قد تعلقت بجرابه وبأطراف حذائه، وتركت آثاراً مخضبة بخضرة الحشائش وحمرة دمائه، فراقَ له هذا المنظر الذي ضم لفيفاً متناسقاً من الألوان الطبيعية والصناعية، وصار يحك رأسه مفكراً، كما يحك مواضع التخريش التي عضت عليها الأشواك البرية، وتساءل:

– هل هي مصادفة أن يتماثل لون التراب الأحمر ولون دمائي النافرة، وهل هي مصادفة أيضاً أن تعضني أشواك بلادي، وأنا أحاول هجرانها والابتعاد عنها؟ إن الصخور نفسها تكاد تصدمني وأنا أترنح بين جدرانها وأخاديدها، أهي تحس وتعقل، فتغضب وتعاتب؟!

يا أشواك بلادي. يا صخور بلادي، لن أخرج من جلدي، لن أغير دمي. من صلابتك التي قهرت العواصف والغزاة ينبعث أملي بقوة شعبي، من ثباتك تتجدد أمنياتي بثبات تاريخي وخلود قيمي.

إن حبيبات دمي النافرة في هذا الصباح الجميل لتؤكد الأخوة بيننا، وتشعرني بعمق الصلة الكونية فضلاً عن صلة المواطنة والسكن والجوار، فهل يعق الجار جاره، وهل يفارق الألف أهله وأحبائه؟! لكن ما العمل إذا

كان المراد أن تسلم هذه الأرض المباركة للأعداء، وأن تمحى معالم العقيدة والتاريخ، وأن تستأصل شأفة من يقف في وجه هذه المخططات الجهنمية الملفعة بأقنعة خادعة لا يعرف ما وراءها إلا القليلون، وإن كان الشعب يحس بمقدماتها وبانعكاساتها بين حين وآخر؟

يا أشواك بلادي، يا أزهار بلادي: لأجلك ولأجل أطفال بلادي أجر نفسي جراً بعيداً عنك على أمل العودة العاجلة إليك. كان الأولى لي أن أقضي عمري في التغني بجمالك، وإنشاد الأشعار لأطفالك، لكن ما العمل إذا صودرت أشعاري، وأحصيت أنفاسي، وكتب علي أن أكسر القلم، وأن أفطم المشاعر، وأن أبحث عن سبيل آخر لإسعادك وحمايتك، وأن أتعلم حرفاً أخرى لا أحسنها، ولا أطيقها مثل اعتزال الأهل والغربة عن الأوطان؟

لكم أود أن أقيم هنا أقتات بالأعشاب وليكن ما يكون، لكن هل ترضين أنت يا ثغور "الرشيد" و "المعتصم"؟!

حينما وصلوا إلى القمم قال الدليل:

– أمامنا قرية حدودية. هل ندخلها ونختصر المسافة، أم نتجاوزها من باب الحيطة؟!

لم يكن حسان وعابد بحاجة إلى الحيطة هنا لأنهما لا يخشيان أفراد الشعب، وهما بعد وقت قليل سيعبران الحدود. كانت الحيطة لحماية الدليل فيما لو سئل في المستقبل عن هذين الرجلين الغريبين، فتم اتفاق الثلاثة على أن هذين الرجلين من تجار الصوف والسمن.

دخلوا القرية، ومروا بمجموعات من الفلاحين منتشرة في الحقول القريبة، أشبه بأزهار مبعثرة في تلك الحقول الفياضة بالخضرة وبألوان الطبيعة الربيعية.

كان ذلك المنظر يلوح من بعيد، أما حينما توسط الثلاثة دروب القرية الداخلية فقد استوقفهم منظر بضعة أطفال يخرجون من أحد المنعطفات وينظرون إليهم نظرات ملؤها البراءة والاستغراب، ووراءهم رجل مسن يرتدي زي العلماء. وقف حسان لدى مروره بجوارهم، فوقف عابد والدليل. ألقى حسان السلام عليهم.

– السلام عليكم.

رد الشيخ والأطفال السلام:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فيما كان عابد والدليل يمازحان الأطفال ويتجنبان الاسترسال بالحديث مع الشيخ كان حسان يتأمل الموقف بصمت.

– ما أجمل هؤلاء الأطفال، كلهم زرق العيون، وشعورهم شقراء، الذكور يعتمرون القبعات، والبنات يلبسن الحجاب الريفي البسيط، لكن لماذا تعلو الأوساخ بشرتهم البيضاء الضاربة إلى الحمرة ولماذا كانوا حفاة بثياب مرقعة أو ممزقة.

مد عابد يده إلى جيبه، وأخرج حفنة من حبات (الملبس) وقطع الحلواء التي يحملها نوعاً من أنواع الدواء لمعدته التي يعاني منها الأمرين، وأخذ يوزع كل ما يحمله على هؤلاء الأطفال بالتساوي. وطلب لنفسه شيئاً من الماء يعوضه عن تناول دوائه من حبات الحلوى.

جيء بالماء في وعاء (بلاستيكي) قذر، ومر الدور على حسان ليشرب. تناول حسان الوعاء، تفحص الماء فوجد فيه كائنات حية تسبح هبوطاً وصعوداً، وأخرى تتنقل يميناً ويساراً وبالعكس. كانت رائحة الماء على غير ما يرام. أغمض عينيه وشرب لأنه يريد أن يداوي أمعاءه

من نوبات الجفاف والقبض. تساءل!

– إذا لم يوجد في مثل هذا الريف الجميل ماء عذب نقي فأين يوجد؟ لقد فسدت مياه المدن لإهمال السلطات والفساد الإداري، فما بال الريف يعاني من هذه المأساة؟ لو جمع الفلاحون حبيبات الماء من على أوراق الأشجار والنباتات لكان خيراً لهم من هذا الماء. لقد تعودت في طفولتي وفي شبابي أن لا أجد أعذب من مياه الريف في (اشتبرق) و(بداما) و(العدوسية) و(القسطل)، فماذا جرى؟!

تطلع عابد وحسان إلى أبنية القرية، فلفت نظرهم علو الجدران، وضخامة الأحجار، مما يدل على أنها قديمة العهد، ترجع إلى العهد الروماني، كما لفت نظرهم آثار واضحة للأقنية الرومانية التي كانت تحمل المياه العذبة أو مياه الطواحين إلى هذه القرية الحدودية، ومع ذلك تعيش القرية في عطش وحرمان لا ماء ولا كهرباء ولا طرقات معبدة، بل لا مدرسة ولا مستوصف ولا حد أدني من العيش النظيف. سأل عابد عن أسماء الأطفال، فأجابوه بأصوات ملائكية بريئة:

– أحمد

– خديجة.

– خالد.

– عمر.

– عبد اللطيف.

– فاطمة.

– موسى.

سألهم هل تعرفون القراءة والكتابة:

– أنا أحفظ جزء (عم)

– أنا أحفظ حتى جزء (تبارك)

مد بعضهم يده إلى جانبه، وأخرج أوراقاً صفراء من محفظة قماش معلقة بحبل على عاتقه، وأراه كتابته التي لا مثيل لها في مخطوطات أوراق البردي، وهي تحاكي كتابة القرآن الكريم، جاء في إحداها: بسم الله الرحمن الرحيم (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين).

فكر حسان: هذه الأرض التي عربها القرآن لا خوف على شعبها من الجوع والعطش، فسوف تكتشف يوماً ما حقوقها، وتزيل المظالم النازلة بها، لأن التاريخ لا يرجع إلى وراء، ولأن عبر التاريخ لا تتخلف، وسنن الله في خلقه ماضية. ففي سورة القصص التي نقل عنها هذا الفتى كتابته، ورد قوله تعالى: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون).

حسان – أين موسى؟

– أنا!

– هل تحب فرعون؟

– كلا!

حسان...

موسى – ظالم. يقتل الأطفال. يحارب المؤمنين. جبار في الأرض.

حسان: وأبو جهل؟

طفل 1– أبو جهل وأبو لهب وأبرهة.

طفل 2– وأبو رغال

طفلة – وهامان.

موسى – كلهم ظلّام. نكرههم. لعنهم الله.

تنحنح الدليل بصوت مسموع وأشار لحسان وعابد إشارة خاصة فهما منها ضرورة الانطلاق. خلال دقائق كان الثلاثة يسيرون متقاربين في منحدر شديد الوعورة. الدليل في الأمام يليه عابد فحسان. لأول مرة ينشرح صدر الدليل للكلام، فيقول، كمن يحدث نفسه بصوت يسمعه الغريبان:

هذه القرية محظوظة بهذا الشيخ. القرى الأخرى المجاورة محرومة حتى من مثل هذا الشيخ الذي يعلم الأطفال القراءة والكتابة، ويعلم أهل القرية أمور دينهم وأموراً أخرى في الفلاحة والزراعة والتداوي بالأعشاب.

قال عابد: هذا شيخ فلتة.

قال حسان: يا سلام.

تابع الدليل كأنه لم يسمع التعليقات:

– لو سمعتم كلام الشيخ لعلمتم من لهجته أنه من أصل تركي. ترك أهله وأمواله وأراضيه في تركية، وهاجر إلى هذا المكان المنقطع عن الدنيا. قد تستغربون هذه القصة، لكنكم تعلمون أن كثيراً من أهل تركيا هاجروا إلى سورية في أيام حكم كمال أتاتورك الذي حارب اللغة العربية ومزق القرآن الكريم وسجن رجال العلم وأجبر الأتراك على استبدال (البرنيطة) بالطربوش، فهاجر الذين استطاعوا الهجرة مثل هذا الشيخ.

لم تكن هذه المعلومات جديدة على كل من حسان وعابد، فقد سمعاها من سكان المناطق الشمالية التي

ينتميان إليها، كما عرفاها عيانا بالتعرف إلى عدد من العلماء والمواطنين الأتراك الذين هاجروا إلى سورية، وأصبحوا من مواطنيها، ففي بعض المدن والقرى أحياء خاصة من هؤلاء المهاجرين.

إن حسان يكنُّ احتراماً خاصاً لسكان حي التركمان في مسقط رأسه جسر الشغور، لأن هؤلاء السكان يعيشون متضامنين، ويأنفون من العيش على حساب الآخرين، ويحافظون على شعائر الدين، ويسارعون في عمل البر والخير. وما يدري حسان بالضبط تعليل هذه التقاليد الراسخة:

– هل ذلك يرجع لأملهم القوي في العودة إلى وطنهم؟ أم هي تلك العقيدة التي يستمسكون بها وقد هاجروا من أجلها؟

قال عابد مخاطباً حسان وهما يتفحصان مواضع الأقدام خشية الانزلاق والتعثر:

– هل تذكر الشيخ عبد الله؟!

– الله يذكرك بالخير يا أبا أحمد.

الشيخ عبد الله هو واحد من ذلك الجيل التركي الذي هاجر بدينه إلى الأراضي السورية: إنه من أسرة علم وأدب وجاه عريض، هاجر هو وإخوته العلماء صغاراً وكباراً ونساءً ورجالاً. ميزة الشيخ عبد الله هي تعدد المواهب. فهو عالم بالنحو والفقه والحديث الشريف، وهو في الوقت نفسه صياد ماهر، لا ينافس في تسديد الرماية وفي صناعة السلاح وفكه وتركيبه، وفي صناعة الساعات والآلات الدقيقة. وهو على شدة تواضعه التي تضرب بها الأمثال روى لأصدقائه المقربين الحكاية التالية من باب المسامرة:

في أواخر عهد الوحدة بين سورية ومصر طرق بابي مواطنان سوريان، وهما يحملان جهازاً آلياً من الآلات الدقيقة (الكومبيوتر) ومعهما ضابط مصري برتبة عالية. قال أحد المواطنين: يا شيخنا هذا الجهاز معطل. يئسنا من تصليحه بعد عرضه على مختلف المختصين في بلدنا، وقد خصصت له طائرة لنقله إلى البلدة الأوروبية التي صنع فيها، وسنحمله إلى الطائرة بعد ثلاث ساعات إن لم تستطع إصلاحه. فما رأيك؟

سألت عن مكان العطل، وأخرجت أدوات العمل، أدوات لتصليح الساعات في الأصل، وشرعت بالعمل، والضابط المصري يتمشى في ردهة الممر ذهاباً وإياباً، يدخن لفائف التبغ الواحدة تلو الأخرى، ويتابع الوقت من خلال ساعة يده بين الفينة والفينة، وهو لا يخفي يأسه من إصلاح الجهاز.

قبل أن تنتهي المدة وضعت قطعة الآلة بعد إصلاحها في مكانها، طلبت إدارة الجهاز الذي لا أعلم اسمه ولا طريقة إدارته. لفرط عجبنا جميعاً استجاب الجهاز، ودارت أجزاؤه بالشكل المنتظم المطلوب، فانتفض الضابط عجباً ودهشة وهو يصيح بصوت عال:

– حيجنني. حيجنني! (باللهجة المصرية)

سمع عابد هاتين الكلمتين يكررهما حسان بعد فترة وجيزة، فتذكر القصة فأخذ يضحك معه. انتبه حسان فقال عابد:

– هل تدري أن الشيخ مريض ليس لديه المال الكافي للمعالجة، وأن سلم الرواتب في وزارة الأوقاف قد جعل أجره تافهاً لا يليق بموظف مبتدئ.

– المشكلة ليست بمأساة هذا الشيخ وأمثاله وحسب!

ولكن المشكلة في الخبرات النادرة التي خسرتها الأمة في تضييع مثل هذا العبقري!

عندما هبطوا المنحدرات لم تبق إلا مسافة قصيرة حتى تنتهي مهمة "الدليل". فيتقدم حسان وعابد من مخفر الحدود التركي بجوازي سفرهما.

جلس "الدليل" على صخرة رمادية للاستراحة. جلس قبالته كل من حسان وعابد يبتسمان شاكرين. وهما يلحان عليه بقبول أجرة نقلهما من منطقة الخطر إلى شاطئ السلامة.

قال الدليل وهو يتناول سيجارة:

– لا مؤاخذة. لا أعرفكم ولا تعرفونني. لا أعطيكم اسمي ولا تعطوني أسماءكم. (غمز بعينه اليمنى موضحاً مراده)

– شكراً.

– لا تذكروا الرجل الذي كان وسيطاً بيننا، أنا أحبه وأحترمه، وإن كان عدد من رجال الحزب لا يحبونه.

– هذا من لطفك.

– تريدون الصحيح. أنا مواطن مثلكم أكره الظلم، وأكره الحكومة. لكن ماذا يمكنني أن أصنع. وأنتم ماذا يمكنكم أن تصنعوا؟

– الله كريم.

– لا شك الله كريم. الله يوفقكم ويحفظكم. لكل شيء نهاية.

رغب حسان يومذاك بأن يسافر إلى "أنقرة" بالقطار لأن صديقه عابداً لم يُتَح له أن يزور تركية من قبل. وبدلاً من أن يقضيا عشر ساعات سفر في السيارة اضطرا إلى قضاء يومين كاملين في الطريق. انتقلا فيها بين

أكثر من قطار. زارا بعض المدن التركية الصغيرة. أرسلا بطاقات بريدية لأهلهما، علّما بعض الحروف والكلمات العربية للصبيان الأتراك في محطات القطار. كاد صبرهما ينفد من بطء القطارات وتأرجحها في المرتفعات والطرق الجبلية، لدرجة أحسا معهما بأن القطار يمشي إلى الوراء لا إلى الأمام.

لعل أمتع ما شاهداه في تلك الرحلة الشاقة منظر المساجد على الطراز العثماني: مآذن عالية رشيقة القوام. قباب صقيلة أقواسها مدورة بإحكام ودقة متناهية. اللون الأزرق السماوي يضفي على المآذن والقباب والجدران سحراً خاصاً من الصفاء والجلال والامتداد غير النهائي.

كما استرعى انتباههما بشكل خاص لباس الفلاحات التركيات الذي جمع بين البساطة الملائمة للحركة والعمل، وبين المواصفات الشرعية للحجاب الساتر للجسم ما عدا الوجه واليدين بالإضافة إلى النظافة والألوان المتناسقة.

مالت الشمس إلى الغروب حينما نزل حسان وعابد من القطار في إحدى محطات الضواحي في أنقرة، فشرعا بأداء صلاة العصر قبل فوات الأوان، ثم حملا أمتعتهما القليلة، وقصدا منزلاً كان يسكنه في العام الماضي بعض الطلبة العرب، كما يذكر حسان، ولكن لم يجدا أحداً في هذا المنزل. حين حانت صلاة المغرب توجها إلى المسجد القريب، وتفحصا وجوه المصلين عسى أن يتعرفا إلى وجه عربي يفهم عليهما ويوصلهما إلى أحد معارفهما، وبعد الصلاة تكلم حسان مع أحد الشباب المصلين بالعربية، فرد عليه السلام، وعرفه بأنه طالب تركي يجيد

العربي، وبوسعه أن يوصله إلى مكان فيه طلبة عرب.

شهر كامل قضاه حسان وعابد في تركية، وهما يتابعان أخبار سورية ومدينتهم حلب، كما أرسلا أحد الطلبة العرب يستطلع الأخبار ويحمل الرسائل إلى بعض أعضاء (التنظيم) وحينما عاد هذا الرسول كانت العمليات الجهادية قد بدأت في حلب، والسلطة تتكتم عليها، وتنسبها إلى جهات مشبوهة.

في أوائل شهر حزيران عام 1979 توجه حسان وعابد وأمتعتهما القليلة جواً إلى قطر عربي مجاور لسورية ليستأنفا عملهما في (التنظيم) من وراء الحدود. وها هما اليوم بعد مضي سنة من العمل المتواصل ينتقلان من بيوت الهجرة إلى أعماق السجن.

* * *

علت ضجة الحركة خارج الزنزانة. فتح أبواب. إغلاق أبواب. نداءات. إحضار طعام وتوزيعه.

وبين النوم واليقظة تذكر حسان أن فراشه الاسفنجي –على ضيقه– أكثر طراوة من فراش السجن العسكري الذي نام عليه عام 1967م. لكن الذي أدهشه أن يكون اعتقاله الجديد في صباح اليوم الخامس من حزيران، وأن الإفراج عنه في سورية كان بعد هزيمة حزيران المشهورة بأيام قليلة. ثم قال في نفسه:

– إذا كان الإفراج عن مئات المعتقلين في سورية آنذاك نتيجة الهزيمة العسكرية المنكرة للنظام، فما سر توقيت اعتقالنا ها هنا خارج سورية! هل هناك تواطؤ مع نظام سوريا؟!

أم هل هناك حرب جديدة تستدعي اعتقال المعارضة خلافاً للعدو اليهودي الذي يلغي الخلافات الداخلية

لمواجهة الحروب الخارجية؟!

لم يفهم حسان السر في اعتقاله واعتقال إخوانه في صباح الخامس من حزيران. خطرت له نكتة ضحك لها ضحكاً عالياً. سمعه همام شريك الزنزانة الذي أخذ يضحك معه، وهو لا يدري ما السبب. تقول النكتة: إن رجال السياسة في الدول العظمى (أمريكا وروسيا) تعودوا أن يستطلعوا أحوال المستقبل السياسي بالاعتماد على الكومبيوتر والعقول الإلكترونية، كما يستطلعون أحوال الطقس والجو، وفي إحدى المرات سئل العقل الإلكتروني:

– كيف حال الأجواء العربية؟!

فسكت العقل الإلكتروني طويلاً خلافاً لعادته، ثم أخذ الدخان يتصاعد من جنباته نتيجة عجزه عن فهم ما يجري في الأجواء العربية.

قال همام وهو ما يزال غارقاً في الضحك:

– يا أستاذ، يا أستاذ حامد. ما الذي يضحكك؟ هل رأيت زوجتك في المنام؟!

لم يرد عليه حسان، بل تابع نومه، وتذكر أنه يرغم نفسه على تخيل قطيع من الأغنام تأوي إلى الحظيرة واحدة واحدة حتى يستغرق في النوم.

مع ذلك لم يستغرق في النوم، بل انقدحت في مخيلته المتعبة ذكرى الساعات الأخيرة التي قضاها مع زوجته قبل العبور عن طريق الحدود التركية بيوم واحد، فقد استطاع عن طريق بعض الأقارب حينذاك أن يجتمع بزوجته تحت وطأة الاحتياطات الأمنية ليودعها، وليسمع منها أخبار الأولاد وتفاصيل مداهمة (المخابرات) للمنزل في غيابه. قالت له زوجته أم مجاهد

وهي في أوج الغبطة والحيوية:

حوالي الساعة الواحدة والنصف من بعد منتصف الليل قرع جرس الباب، ولدى استفساري أجابوا:

– شرطة.

– انتظروا ريثما أرتدي حجابي.

ثم اندفع خمسة رجال مسلحين بقيادة أحدهم، ووقف اثنان آخران خارج الباب. قال قائدهم:

– أين زوجك أبو مجاهد؟

– غير موجود.

– أين هو بالضبط؟

– ما أدري.

– كيف لا تدرين وأنت زوجته؟!

– ما أدري وهذا كل ما عندي.

– فتشوا البيت.

– أحذركم أنا مريضة، وهذا ولدي الصغير أيضاً مريض ولم ينم إلا منذ قليل فلا تقلقوه.

انطلق العناصر يجولون في أرجاء البيت، وقد جعلوا أمامهم ولدك مجاهد يفتح لهم أبواب الغرف خشية المفاجآت. قال أحدهم، وهو طويل القامة، ضخم الجثة، خشن الملامح والصوت والحركات:

– أنا أعرف زوجك أنا كنت أحد العناصر الذين اعتقلوه عام 1967.

– زوجي رجل شريف، وكلكم تعرفون استقامته وجهوده ومؤلفاته.

– لكن زوجك معارض للحكومة.

– زوجي يقول الحق، ولا يعمل إلا للمصلحة العامة، وأنتم تقلقون الناس، وتداهمون البيوت في ظلمات

الليل، وترعبون الأطفال.

حين خابت عمليات التفتيش احتجزوا الفتى مجاهد، حملوه معهم للطواف على بيوت الأقارب بحثاً عن أبيه، على حين كمن في البيت ثلاثة عناصر مسلحة تنتظر قدوم الأب ليلقوا القبض عليه. من جهة ثانية جمعت العناصر المسلحة وهي تعد " 50" عنصراً من الشوارع المحيطة بالمنزل ومن أسطحة الأبنية المجاورة، وكلفت عناصر محدودة للتجول في المنطقة بشكل خفي.

وهكذا استمر احتلال البيت ثلاثة أيام بلياليها، يمنعون خروج سكانه حتى الأطفال، منعوهم من الذهاب إلى المدرسة. حين حضر بعض الرجال مثل الحاج محمد أخي الزوجة سعاد تم استجوابه في المنزل وفي مركز المخابرات وسئل عن سبب حضوره، وعن المكان الذي يتوارى فيه أبو مجاهد.

قال حسان لزوجته:

– كيف كان شعورك حين احتجزوا مجاهد، وطلبوا منه أن يرشدهم إلى بيوت الأقارب للبحث عني؟!

– على الرغم من المرض كنت مطمئنة كل الاطمئنان إلى قضاء الله وقدره، وقد قلت له: سلمتك لله. سلمتك لله يا ولدي. سلمتك لله يا أبا مجاهد. الله الذي خلقكم يحفظكم ويحميكم. حسبي الله ونعم الوكيل. حسبي الله ونعم الوكيل.

– ماذا حصل مع مجاهد في عملية الاحتجاز؟!

– صحيح أتعبوه في مداهمة بيت أختي وأخي وبيت أخويك في حلب، لكن الذي آلمه أكثر هو رؤيته آباء الملاحقين، وهم يعذبون، ويهانون في مركز المخابرات بسبب غياب أبنائهم أو إخوانهم. تصور والد الأستاذ

عادل، وهو رجل مسن في الثمانين يده ورجله مشلولتان كيف يساق إلى التحقيق، ويتعرض للصفع والشتم.
تصور مداهمة بيت أبي عمار وزوجته في حالة الطلق والولادة، ثم لا يمهلونه ولا يسمحون له بإحضار القابلة.
تصور دخولهم على الشيخ عثمان وهو ما يزال في فراش النوم مع زوجته، وأعطوه الثياب ليلبسها أمام أعينهم في الفراش.

– هل أحس الجيران بالمداهمة؟

– لقد انتشر الخبر في أرجاء المدينة لا في حي الأنصاري وحده، كما وصل الخبر إلى والدك في جسر الثغور وإلى أقربائك في جبل الزاوية في صباح اليوم نفسه.

– كيف؟!

وهنا ضحكت أم مجاهد ضحكة ملؤها الشعور بالانتقام والتحدي.

– لقد أوحيت إليهم بأن يذهبوا إلى هناك للبحث عنك وأنا أعلم أنك لست موجوداً هناك، وبذلك انتشر الخبر، وزدت في متاعبهم.

وفي الصباح الباكر اتصل والدك بالهاتف ليطمئن عنك، فألقيت عبر الهاتف محاضرة على رجال المخابرات في النقد واللوم، وما كدت انتهي من الكلام، حتى قرع الباب وألقى أخوك القادم على عجل من الجسر بأكوام الهدايا: جبن ولحم وفواكه وخضروات، وانصرف قبل أن يلقي الحراس عليه القبض.

– كم أنا فخورٌ بك يا أم مجاهد؟

قال همام الحجيلات باسماً:

– ألم أقل لك إنك تحلم بزوجتك منذ أول يوم من

اعتقالك يا أستاذ؟

– وأنت ماذا رأيت من أحلام هذه الليلة؟

قال حسان ذلك، وقد اضطر للجلوس تجاه شريك الزنزانة الذي اتضحت ملامح وجهه وجسمه بعد أن انتشر ضوء النهار في أرجاء الزنزانة عبر النافذة الخلفية.

– رأيت نفسي حينما كنت صغيراً أرعى الإبل عند عمي بعد وفاة والدي. وتذوقت طعم كأس الشاي الذي لم أكن أعرفه من قبل. كان ذلك بمناسبة زيارة ضيف. سألت عمي: ما هذا الشراب؟ قال: اشرب وستعرف ما هو. شعرت بطعم لذيذ زاكي. جعلني أفضله على حليب الإبل الذي لم أعرف غيره في ذلك الوقت.

بينما كان همام يقص على حسان ذكريات طفولته وحياة البادية أحس حسان بشيء من هدوء الأعصاب، فاستغل ذلك باستيعاب الوقائع والحقائق الملموسة التي تحيط به من كل جانب، وهو لا يكاد يصدق: أهو في يقظة أم حلم؟

تأمل حسان جدران الزنزانة وأرضها وسقفها، ولولا الخشية من أن يظن همام بعقله الظنون لمد يده، وتلمس أجزاءها، وعد بلاطات الأرض، وقاس طول الجدران وعرضها بالقدم أو بالشبر، ليتأكد من واقعية المشاهدات، وليتأمل المعاني الخفية ونوايا الجهات التي ألقته في هذا المكان.

بعد التأمل وتقليب البصر والبصيرة تبين حسان أن الزنزانة ذات شكل طولاني، لها باب حديدي محكم الإغلاق بأكثر من قفل، وفي أعلى الباب ووسطه كوة حديدية أيضاً يفتحها الحارس ويغلقها حين يريد، وإذا أغلقها لم يعد بوسع السجين أن يفتحها لأن مربطها

من الجهة الخارجية المطلة على رواق طويل ضيق، تصطف عليه ثلاث عشرة زنزانة، كما علم حسان من رقم زنزانته التي تقع في نهاية الرواق الضيق الطويل، أما جدار الزنزانة الخلفي فهو أعرض من جدار الباب. وفي أعلاه كوة مدورة عالية لا تصل إليها يد السجين مهما كان طويلاً إلا بالقفز، وهي محكمة الإغلاق بقضبان حديدية، وبدائرة زجاجية مثبتة من وسطها لتتحرك إلى أعلى وأسفل، حسب الحاجة للهواء والحرارة. ويمكن تقدير حجم الزنزانة كما يلي: طولها " 4 متر" وعرضها "2 متر" وارتفاع جدرانها " 3 متر" لكن هناك زيادة أكثر من نصف متر في عرض الجدار الخلفي، وذلك لوقوع الزنزانة في نهاية البناء الخاص بالزنزانات.

على الرغم من نظافة الجدران المطلية بدهان أصفر زيتي، ونظافة أرض الزنزانة كانت رائحة العفن سيدة الجو، لعل المصدر الذي يشع تلك الرائحة هو الفراش الاسفنجي، وتلك البطانيات السود القذرة.

في وسط السقف مصباح كهربائي ضعيف لا ينطفئ ليلاً ولا نهاراً. أما الرواق الضيق الطويل ففيه إنارة شديدة، لأنه مغلق من جوانبه كلها، ما عدا باباً واحداً يقع في الوسط، وعبره يتم الدخول والخروج والحراسة الشديدة الدائمة ليل نهار أيضاً.

قال همام وقد آنس من شريكه حسان إقبالاً ويقظة:

– لم تذكر لي سبب اعتقالك

– لا أعلم.

– غريب هل يمكن أن تعتقل وأنت لا تعلم السبب؟

– فعلاً أنا لا أعلم؟

– قلت لي إنك تبيع الكتب. فهل وجدوا بين الكتب

التي تبيعها نسخاً من القرآن الكريم التي يطبعها الأعداء، ويتعمدون فيها التحريف والتغيير؟

– ما أدري!

أجاب حسان بهذه العبارة تخلصاً من موقف لم يكن يخطر على باله، وغرق في لجة من التأملات فيما توحيه كلمات همام.

– إن هذا السجين ليس فخاً بل هو سجين عادي ساذج حقاً، وإن كل ما يخطر له من أنواع التهم في تجارة الكتب هو تحريف القرآن الكريم لا غير. ثم تساءل حسان:

– لماذا لا يخطر على بال همام إلا مثل هذا الخاطر؟!

إن الإسلام عميق الجذور في نفوس المسلمين، كما أن القرآن الكريم رمز للقداسة والحفظ قال الله تعالى: "لا يمسه إلا المطهرون" وقال أيضاً: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" وإن أعظم جريمة تنسب لمسلم أن يمس هذا الكتاب بإهانة أو تغيير، وهذا التعظيم للقرآن هو لدى المسلم العادي والمسلم العالم. لكن ألا يخطر على بال المسلم العادي مثل همام أن هناك أنواعاً من التحريف والإهانة لهذا الكتاب غير التحريف اللفظي. وهي تحريفات لا تقل أهمية وخطورة عن التحريف اللفظي؟! هناك مثلاً تعطيل العمل بهذا الكتاب كله. وهناك تعطيل العمل بجزء أو بأجزاء مهمة منه، وهناك استبدال كتب بشرية به. فما موقف همام وأمثاله من عامة المسلمين؟

لم تكن هذه المعاني طارئة على تفكير حسان، بل تذكر أنه تناولها في دروسه ومحاوراته مع الآخرين منذ زمن طويل، تذكر دروس النصوص في مادة اللغة

العربية للصف الأول الثانوي التي ألقاها في ثانوية (عفرين) شمال مدينة حلب عام 1963، وفي تلك الدروس عدد من نصوص القرآن الكريم، وتذكر أن تناوله لتلك المعاني بهذه الصراحة والوضوح لفت إليه أنظار المتربصين المغرضين، فاستدعي إلى فرع المخابرات، وقال له المحقق آنذاك:

– أنت مدرس لغة عربية، أم مدرس تربية إسلامية؟

– متى انفصلت العروبة عن الإسلام؟

– أنا أسألك وأنت تجيب!

– وأنا أسألك أيضاً؟

– اسمع. أنا لا أسمح لك بأي نشاط سياسي في المدرسة أو في هذه المنطقة منطقة الأكراد، وأنا على استعداد لأن أشحطك أمام طلابك وأمام الناس هل فهمت؟

كانت هذه كلمات رئيس شعبة المخابرات في عفرين آنذاك وهو الملازم ممدوح، وهو نفسه الضابط الذي قال لزوجة حسان بعد ذلك حينما كان معتقلاً في فتنة إبراهيم خلاص عام 1967. قال لها حين طلبت إذناً بمقابلة زوجها حسان:

– اذهبي وبلغي زميلاتك بأن أزواجكم دخلوا السجن ولن يخرجوا منه حتى الموت، فابحثوا عن أزواج آخرين.

ولم تمضِ الأيام حتى وقعت حرب حزيران وكانت هزيمة السلطة المنكرة، فاستدعي المعتقلون بعد منتصف الليل من يوم "11" حزيران، وهم بالعشرات من المدرسين والأطباء والقضاة والعلماء والمحامين، لمقابلة المحافظ قبل الإفراج عنهم والاعتذار الكاذب لهم، في ذلك اللقاء بين الظالم والمظلوم؟ كان الملازم أول

ممدوح وراء المحافظ فحياه السجين حسان بهزة رأسه، فأجابه ممدوح بمثل ما حياه به، وكانت تحية ذات معنى غير عادي.

خطر على بال حسان أن يضحك عالياً، فأمسك نفسه لئلا يستغرب همام، فيسأله عن السبب. ومع ذلك لاحظ همام ابتسامة عريضة على وجه حسان. فابتسم لابتسامه.

لاحظ حسان أن هناك شبهاً كبيراً في شكل شريكه همام والمحقق الملازم أول ممدوح من حيث السمن، وضخامة الكرش، وقصر الأطراف والرقبة، لكن همام ذو بشرة سوداء وذاك أبيض البشرة، (شتان بين قلب هذا وقلب ذاك؟!)

في ذلك التحقيق قال الملازم ممدوح:

لا تظن أنك وحدك مسلم، فأنا والدي شيخ. وأصلي. –

– اتفقنا إذن!

ولأمر ما أحب حسان أن يحرج المحقق، ويوحي إليه بأنه كاذب في دعواه، فقال له:

– هل أنت من آل خليل؟

– لا.

– ملامحك تشبه ملامحهم إلى حد كبير. وعلى الأقل... اللهجة متشابهة.

النهار الأول

الخميس 5 حزيران 1980

– جاء دوري لأحكي لك عملية اعتقالي أنا.

كان الشاب مجاهد الربيعي مشغولاً بعملية اعتقاله هو، لكنه لم يجد بداً من مجاملة شريك غرفته ذات الرقم (6) الذي عرف نفسه بأنه (شيوعي) قد مضى على

اعتقاله شهر كامل. وهو يتوقع أن يحكم عليه بالحبس لمدة خمس عشرة سنة، لأنه لم يعترف على أسماء رفاقه. تأمل مجاهد محدثه:

شاب أسمر البشرة، نحيل الجسم، قصير القامة، لم يجاوز الخامسة والعشرين، أضلاعه بارزة من تحت ثيابه، حديثه متدفق. لعله من أثر انقطاعه عن الكلام طوال هذه الفترة لم يعد يكف عن الثرثرة.

– داهموا البيت الذي نسكنه خفية في وقت العصر. ناداني العقيد من وراء الباب باسمي الصريح: (سليم. يا سليم. افتح الباب). كان العقيد يبتسم. هرعت إلى الصور المعلقة على النافذة الخارجية. مزقتها تنبيهاً للرفيق أحمد وزوجته خديجة الغائبين لكيلا يقعا في الفخ. حين باشرنا بإحراق الوثائق والمنشورات كانت عناصر المخابرات قد أحاطت بنا، وشرعت في وضع أيدينا أنا ورفيقي عمر بالقيود بعد أن كسروا الباب، وأوسعونا ضرباً.

– هل أنت تحريري؟ لا يدخل السجن إلا شيوعي أو تحريري.

– أنا مسلم.

– انتقمنا من اعتقالنا علناً وقت العصر بأن هتفت ضد الحكومة، وهتف معي رفيقي، وما انقطعنا عن الهتاف حتى أدخلونا الزنزانة. أنت سوري؟

– نعم. من مدينة حلب.

– أرجوك صف لي حلب. أنا لا أعرفها، ولا أعرف سورية.

– لكنك تعرف كوبا!

– طبعاً، لأنني زرتها بمهمة حزبية.

– واحتفظت بـ(السيكار) الكوبي لتزهو به أمام

صاحب البيت والتجار والغرباء!

– لا تسخر مني. أنا الذي اعترفت لك بهذه الأمور.

– كيف تتذوق (السيكار) وجسمك شديد الهزال؟

– الفقير لا يدخن؟! هل الدخان حلال على الأغنياء والرأسماليين فقط؟

– أقصد الدخان ضار بالصحة.

– هل تريد أن تقنعني بتحريمكم للتدخين؟ لم تحدثني عن حلب. حدثني عن قلعتها عن الحدائق. نفسي مشتاقة للهواء الطلق. لرؤية الأشجار والأزهار.

ابتسم مجاهد، ووجدها فرصة مناسبة:

– الله يرحم مدينة حلب. الله يرحم حدائقها وأشجارها وأزهارها.

فوجئ سليم، فتوتر جسمه، وانتصب نصفه الأعلى وهو جالس:

– ماذا تقول؟ (حدق في عيني مجاهد السوداوين يستنطقهما).

– أنت يا رجل لم تسمع بأحداث حلب وحمص وحماة وبقية المدن السورية؟

استعاد سليم انتباهه، وشرع يدافع عن معلوماته:

– بل سمعت بحادث (مدرسة المدفعية) وإعلان الحكومة السورية التصدي للجماعة التي تعارض حكومة وطنية تناصب أمريكا وإسرائيل العداء.

– أنت مناضل شيوعي وتفوت عليك مثل هذه الدعاوى؟

– على كل حال ليس الآن وقت الصدام مع الحكومة.

– حتى تمدد للقوات الدولية على الجبهة، أو حتى تعطي الصهاينة جولاناً آخر أم حتى ينضب النفط

السوري الذي تعاقدت مع أمريكا للتنقيب عنه وتسويقه؟!

– نحن هنا في سجن يوحدنا الألم، فلماذا لا نتصافى، حدثني عن طفولتك عن ذكرياتك (خاطب نفسه: ليتني بطوله ورشاقته. آه ما أجمل كتفيه العريضتين!)

لم ينتبه نزيلا الغرفة إلى أن حوارهما قد اشتد خلافاً لتحذيرات الحارس الذي منعهما من الكلام أكثر من مرة. فتح الحارس كوة الباب الحديدية. أطل برأسه الذي ينتفض من الغضب. قال:

– اطلبوا من مدير السجن أن يحضر لكم راديو وتلفزيون، يفتح لكم هنا مقهى، فيه قهوة وشاي، أنا لا أسمح أن تتكلموا بلا إذن. مفهوم!

حين انصرف الحارس، نظر كل من السجينين إلى صاحبه واندفعا في ضحك مكتوم، وسمعاه يردد وراء الباب:

– أنا أسمع دبيب النملة من تحت سابع أرض!

رق مجاهد لشريكه سليم، وأحس بتعاطف معه، حدث نفسه قائلاً:

– ألم يطلب لي الفراش والأغطية وأوعية الشاي من الحارس؟ ألم يستقبلني بحفاوة، كأنني ملاك نزلت عليه من السماء. ألم يشرح لي قواعد السجن ويحذرني من أفخاخ التحقيق:

(هل معك رفاق، قد يحاولون الإيقاع بينكم. احذر هذه فقط، وكذب كل ما ينقل عن صديقك، وإن كان صادقاً. وإذا واجهوكم... عليك بصفعه عقاباً له على كذبه.) أرجح أنه سجين حقيقي وليس جاسوساً.

كان النهار قد انتصف، واستنارت الغرفة (رقم 6) بعد أن كان مصباحها الشحيح يضفي عليها شحوباً. السجينان يجلسان متقابلين، كل منهما على فراشه الاسفنجي الضيق، مسنداً ظهره إلى الجدار. لم يبق من أرض الغرفة مكشوفاً سوى ممر ضيق بين الفراشين ومساحة تقدر بمتر مربع بجوار الباب. بدأت الاستعدادات لإحضار الغداء. الحراس ذاهبون عائدون. الأبواب الحديدية تفتح وتغلق.

قال مجاهد:

– لم أجع بعد. لا أجد شهية للطعام.

– لا بد أن تأكل لتتقوى على التحقيق. التحقيق لا يجري إلا في الليل. أنت لم تأكل من طعام الإفطار شيئاً يذكر. لن تذوق طعاماً حتى العشاء الساعة السابعة مساءً.

– والفطور في الساعة السابعة صباحاً!!

– نعم يجب أن تتعود. ألا تراني أستمتع بالطعام، وآكل حصتك بالإضافة إلى حصتي؟

– إلى هنا وبس!! (يبتسم).

ضحك الاثنان. عادت النقرات التحذيرية على الباب من جديد.

اضطجع مجاهد على شقه الأيمن، معتمداً على مرفق يده وذراعه، مقترباً من جهة شريكه سليم ليسمعه ما يريد بلا ضجة. أدرك سليم مراده، فاستجاب له بأن اقترب منه مضطجعاً قبالته.

– سوف أحدثك عن قلعة حلب.

– أشكرك.

– في وسط المدينة القديمة ترتفع هضبة صناعية

كبيرة، شيدت عليها القلعة التاريخية، ذات الأسوار العالية، يحيط بها خندق عميق. ليس للقلعة إلا مدخل واحد. إنه جسر حجري مرتفع على قناطر طولانية رشيقة. في مدخل هذا الجسر باب أو بابان متعاقبان حديديان ضخمان، وفي نهاية الأبواب الداخلية المتتالية للقلعة. كل باب يؤدي إلى الآخر بانعطاف على اليمين أو اليسار، بشكل يمنع تدفق الغزاة إذا استطاعوا الاقتحام أو فك الاعتصام للمتحصنين بالقلعة. على ظهر الباب الخارجي أو مدخل الجسر أبراج دفاعية، ومثل ذلك على زوايا الأسوار العالية للقلعة. أذكر أنني سهرت مع والدي وأصدقائه على ظهر البرج الخارجي في إحدى ليالي الصيف. ما أحلى ليالي الصيف في حلب! أحسست في تلك السهرة أنني أشد قرباً من النجوم المتلألئة، بل تصورتني لو مددت يدي للامستها. هدوء عام. نسيم لطيف. عذوبة في برودة معتدلة، كأنها عصارة التين والعنب، وعبير الفستق الحلبي في الليالي المقمرة.

– هل صحيح أن الفستق الحلبي لا يتفتح إلا في ضوء القمر، وأن الناس يسمعون ذلك التفتح طقطقة واضحة في آذانهم؟!

– هكذا يقال.

– هل عندكم أراضٍ زراعية؟

– لا. نحن (بروليتاريا). والدي لا يملك إلا راتبه الشهري ونصف البيت الذي نسكنه، وتملك أمي نصفه الثاني. بالمناسبة للدروس الخصوصية التي يعطيها والدي فضل في شراء نصف البيت.

– أنتم (برجوازية صغيرة) إذاً.

– سمنا ما شئت. نحن الآن سجناء مشردون، لا نملك من شيئاً هذه الدنيا إلا ثيابنا التي على أجسامنا.

– أنتم أصحاب قضية على كل حال.

– شكراً.

تساءل مجاهد:

– هل يتملقني هذا العفريت. أم أنه يعترف بأمر واقع؟ لا يهم!

– هل بقي أحد من أسرتكم في البيت؟

– لم يبق أحد. صودر البيت، وصودر كل ما فيه، لكن أهم ما فيه غرفة المكتبة. إنها غرفة كبيرة مملوءة بأنواع الكتب على رفوف، تشغل معظم الجدران من الأرض إلى السقف.

– واأسفاه!

– تأسف على ماذا؟ على المكتبة، أم على أننا ما زلنا رجعيين لم ننتفع بالثقافة؟!

– أعترف أنك تستفزني بسخريتك، لكنني أحببتك لن أرد على سخريتك

– وأنا لا أسخر بعد الآن.

– لا تستطيع لأن سخريتك جزء من شخصيتك

– أنا بدأت أحبك أيضاً.

ضحك السجينان.

فتح باب الزنزانة – انقطع السجينان عن الضحك مباشرة، لكن السبب كان إحضار الطعام. دخل حارسان شابان يحملان أوعية الطعام، على حين وقف الحارس الضخم الأسود ممسكاً بطرف الباب الحديدي، وهو يحدق بالسجينين: نظراته لا توحي بالارتياح. إنه ما زال غاضباً منهما.

هب سليم لاستقبال طعام الغداء. بسط على الأرض المكشوفة قطعة من (النايلون) وردية اللون. أخذ يرتب حصص الطعام بعناية: صحن رز، صحن فاصوليا (حب) فيه قطعة لحم كبيرة. قطعة خبز (صمون) في صف واحد، يقابله صف آخر من صحون الرز والفاصوليا والخبز والماء والبطيخ.

حين انتهى استلام الطعام لم ينصرف الحارس الضخم بسرعة كعادته ويغلق الباب، بل تابع تحديقه في عيون السجينين لفترة وجيزة، ثم انصرف.

قال سليم مبتسماً:

– أنا أسمع دبيب النمل...

– من تحت سابع أرض.

ثم وضع كل منهم أصبعة السبابة على فمه للتحذير من الضحكوشرعا بتناول الغداء.

– هل دخلت إلى القلعة.

– أكثر من مرة. المرة الأولى في آخر المرحلة الابتدائية بصحبة مدرس الجغرافية. داخل القلعة عدة تلال ترابية وجدران، بعضها متهدم، وبعضها ما زال سليماً. هناك غرف وقاعات ما تزال متماسكة. منها القاعة التي اعتنت بها وزارة السياحة والآثار وجددت زخارفها وطلاءها الداخلي وسميت (قاعة سيف الدولة).

– ألا تأكل؟

– وهناك مسجد في الناحية الثانية المواجهة لأبواب القلعة، وهي الناحية التي دخل منها الفاتحون المسلمون. الغريب أن هناك جداراً عالياً شديد الانحدار لا يمكن تسلقه، مما يوحي باحتمال انتهاز فرصة للاقتحام، مثل انشغال الرومان باحتفالات أحد الأعياد،

وبتأثير الخمرة على رجال الحرس وبقية المحاصرين.

– تابع. تابع. أنا معك (لم يكف عن تناول الطعام).

– معي في الطعام أم الكلام.

– في الاثنين.

يضحكان. يضع كل منهما إصبعه على فمه.

– بجوار المسجد أو في حرم المسجد بالذات – لم أعد أذكر بالضبط– يوجد تصميم خشبي يجسم شكل القلعة بدقة. يتأمله الزوار والسائحون باهتمام. تذكرت. نسيت أن أحدثك عن "حبس الدم".

– اللهم عافنا!

– أنت تؤمن بالله؟ (يبتسم)

– أفزعتني بالحبس والدم. (يهز يده اليمنى وفيها قطعة خبز).

– حبس الدم قاعة مظلمة تؤدي عبر حفرة في وسطها إلى قاعة أخرى تحتها عميقة، أشد ظلمة ووحشة، يلقى فيها المحكومون بالإعدام حتى يموتوا جوعاً.

– يا لطيف! أرجوك غيِّر الحديث. حدثني عن المدرس الذي صحبكم لزيارة القلعة. صفه لي.

– كان الوقت ربيعاً في أواخر العام الدراسي، مع احتفالات المدارس بعيد الجلاء في 17 **نيسان قمنا بزيارة القلعة. اسم المدرس عدنان الأبيض. كان أستاذي في المرحلة الابتدائية وصديقي في المرحلتين الإعدادية والثانوية.**

– إذن تعرف عنه أشياء كثيرة؟

– نعم. كانت تلال القلعة الترابية مكسوة بأثواب خضر، منقطة بنقاط وبقع صفراء وحمراء من أزهار

الربيع. شقائق النعمان تتمايل بخدودها الحمر الفاقعة، بسيقانها الرشيقة، على حين كانت أزهار الأقحوان والبابونج تفترش مساحات واسعة. الأستاذ عدنان علمنا أسماء الأزهار، وسمح لنا بأن نقطف بعضها لنحملها هدايا لأهلنا. ليتك ترانا أطفالاً ملتفين حول المعلم في أعلى ربوة من تلك الربى الضاحكة. يمزح معنا. يراقبنا جميعاً لئلا يضيع أحدنا، أو يؤذى من الحجارة الضخمة المبعثرة.

– هل له أولاد؟

– لم يكن متزوجاً في ذلك الوقت، وإن كنا نناديه (أبو خالد). كان طالباً في الجامعة يدرس ليلاً ويعلمنا نهاراً. شاب معتدل القامة، حلو الطلعة، شعره خرنوبي يميل إلى الشقرة، في خده الأيمن (حبة حلب) كالخال تزينه، دائم الابتسام. ما أذكر أنه ضرب طالباً من طلابه. إنه لا يحتاج للضرب. نحن ننفذ أوامره وتعليماته قبل أن ينتهي من إصدارها.

– أنت معجب به.

– قلت لك أصبح صديقي.

– أنا معجب به أيضاً. أحببته. (ينظر نظرات حالمة)

– كيف لو علمت أنه إنسان كادح يعيل والديه وإخوته الصغار؟

– مثلي أنا! (تختلج عيناه ببريق خاص)

– ربما كان مثلك، لكنه بالتأكيد أجمل. (يبتسم)

– ليس بالجمال بمئزر.

– فكيف إذا وجد مع جمال الخلق جمال الخلقة؟!

– هل تزوج؟ هل اشترى بيتاً؟ هل تخرج من الجامعة؟

– نعم تخرج من الجامعة، وتزوج ورزق بأولاد. لم

يشتر بيتاً. قضى حياته في بيوت مستأجرة.

– ألم يستعن بشهادته الجامعية؟

– هناك جيل من أصحاب الشهادات الجامعية الذين لا تسمح لهم الحكومة بتسوية أوضاعهم أو تعيينهم.

– فهمت. فهمت. ماذا يعمل الآن؟

– آخر أخباره أنه في سجن كفرسوسة وقد ينقل إلى سجن تدمر العسكري الصحراوي.

– يعني هو معتقل؟

– نعم؟

صمت السجينان. طالت فترة الصمت. أخذا ينتظران دورهما للخروج إلى المغاسل بعد تناولهما الطعام. أيديهما معلقات في الفراغ لئلا تصيبهما بالدسم أو الدهن.

حين عاد السجينان من المغاسل انصرف مجاهد لأداء صلاة الظهر، على حين استلقى سليم على فراشه، ينظر في سقف الغرفة الأصفر الأملس، وهو يستعيد شريط الحديث الذي سمعه من شريكه مجاهد:

– ما أجمل قلعة حلب في الربيع. إنها ترتفع على هضبة وسط المدينة. في وسطها ترتفع تلال مخضوضرة مزهوة، على إحدى تلك التلال يرتفع طلاب المدارس. يرتفع بينهم المعلم. المعلم ملاك جميل يحمل الأزهار وهو يبتسم. نسيم الربيع يداعب خصلات شعره الخرنوبي. عيناه تطوفان بحنان وتحومان حول الأطفال. الأطفال يلبسون ثياباً نظيفة ويقطفون الأزهار. أحد هؤلاء الأطفال صار شاباً في الحادي عشر الثانوي ودخل السجن. إنه عندي الآن. المعلم أيضاً دخل السجن. قد ينقل إلى سجن تدمر الصحراوي العسكري. هل ما زال

الأطفال والسياح يزورون قلعة حلب؟ هل سيتاح لي يوماً أن أزورها أنا؟ وهل سيكون بصحبتي مجاهد؟!

فرغ مجاهد من أداء الصلاة. التفت إلى شريكه وهو جالس.

– ما رأيك بأن نجعل حصة للنوم بعد الغداء؟

– أنت تستطيع أن تنام، بل يجب عليك أن تنام، لأن من المتوقع أن تدعى للتحقيق معك هذه الليلة.

– وأنت؟

– أنا مشغول بذكرياتك بصاحبك.

– أبي خالد؟

– نعم.

– كيف لو علمت أن هناك مئات مثل أبي خالد؟

– إذا لم يكن عندك مانع، فالرجاء أن توضح لي سبب حبك وحب هؤلاء الصغار له.

استلقى مجاهد على فراشه مثل شريكه وتابع حديثه:

في هذا الرجل مزايا كثيرة، لكن أهمها بالنسبة إلي طريقته في التفكير. إحساسه العميق بالقضايا العامة.

– مثلاً؟

– حين كنا تلاميذه في المرحلة الابتدائية قال: هل تعلمون فائدة القلاع في عصرنا على الرغم من أنها بنيت للحاجة إليها في المعارك الماضية؟ بعد تفكير اكتشفنا أن لها فوائد كثيرة، منها تذكيرنا بعظمة الآباء والأجداد، وحرصهم الشديد على مقاومة الغزاة وحماية الأوطان والمقدسات. في أواخر المرحلة الإعدادية شبه لي القلعة بأمتنا التي تحاصرها المدنية الغريبة

والنوايا العدوانية. كما شبه مدخل القلعة الوحيد والجسر العالي الطويل بعملية الرقابة والغربلة المطلوبة تجاه المدنية الغريبة خيرها وشرها. ومثل ذلك نوافذ الحراسة ورماة السهام المنتشرة في جدران الأبراج العالية وحول الأبواب الداخلية: فتحاتها الخارجية ضيقة جداً ثم تتسع شيئاً فشيئاً نحو الداخل.

– اسمح لي أن أقول لك إن الأفكار لا تصد بالأسوار.

(مغير لهجته)

– تقصد أسوار "الستار الحديدي"!؟

– لن تستفزني بسخريتك (عاد إلى لهجته الودية)

– عفواً لم تفهم مراد الأستاذ (الأبيض).

– كيف؟!

– أولاً: الرقابة والحراسة لا تعنيان الطرد أو المصادرة. ثانياً: هل حال أمتنا تجاه الترجمة والثقافات الأجنبية في عصرنا هذا، كما هي الحال في أوج العصر العباسي؟ ألا توافق على أن الأمة السيدة تختار الأفكار من مواقع الصحة والقوة والقدرة على التمييز، وليست حالنا اليوم كذلك؟

– هل هذه أفكار أستاذك؟

– وهل في ذلك عيب؟

لوح سليم بيديه في الهواء:

– لا. لا. طبعاً. لكنني أستفسر.

– أحكي لك حكاية؟

– تفضل.

– في صيف عام 1977 قررت الحكومة إحياء حفلات فنية في قلعة حلب. حفلة الافتتاح كانت للمطربة فيروز اللبنانية. قبل بدء الحفلة بدقائق تم تعطيل

الشبكة الكهربائية التي تغذي الإنارة وأجهزة الصوت. تعطلت الحفلة. تكرر التعطيل في عدة حفلات، فصرف النظر عن ذلك البرنامج الفني نهائياً.

– وخسرت البلاد موسماً سياحياً يدر موارد مالياً خصباً.

– هذا هو التفسير المادي للتاريخ بصورته الممسوخة.

– عدت إلى الاستفزاز؟

– لأنني حرمتك من حديث شهي عن الهنود والسيقان التي كانت سوف تظهر في تلك الحفلات الخلاعية الماجنة.

– ومن أشياء أخرى.

ضحك الاثنان. سمعا نقرات تحذيرية على الباب.

– يا سيد سليم، هل يليق ببلدنا الذي خسر جبهة الجولان وخسر في عدة حروب فلسطينية من جهة، ويعاني من انهيار اقتصادي لعدم ترشيد الإنفاق وغلبة الهدر على التوفير من جهة ثانية، ثم تراخي العزائم والنفوس عن روح الجد والقتال اللازمين لتحرير فلسطين أو التصدي للنوايا العدوانية، وما أكثرها. هل يليق بهذا البلد أن يرقص ويغني ويلهو ويبذر نقوده؟!

– بالتأكيد هذه من تعاليم صديقك وأستاذك.

جلس مجاهد بعد أن كان مستلقياً:

– نعم إنها من المسائل التي كان يناقشها صديقي وأستاذي، وإن لم تكن من اختراعه وحده. أذكر أنه أسمعني قصيدة لشاعر سوري معاصر يصور هذه القضية بشكل فني. فأعجبت بها حتى حفظتها.

– ما أروعك؟ هل تحفظ الشعر أيضاً؟! من أين جئتني؟

– نهض سليم. جلس قباله مجاهد. اقترب منه مجاهد.
القصيدة تحكي هموم شاعر قلق على مصير أمته،
يريد أن ينقذها أو أن يساعد في إنقاذها، لكن عقبات
تقف في طريقه، منها: مشاغل الطعام والشراب التي
تأكل أيام عمره، ومنها انخداع أبناء جلدته بالسموم
الوافدة المبهرجة، فلا هو قادر على إيقاظهم، ولا هم
راغبون بسماع صوته. يقول الشاعر:

"يا همومَ الح ياة.. فكّي أساري "اتركيني لواغلٍ غ دارِ "اتركيني لقاعدٍ مهذ ارِ	"واتركين ي لحومتي ونِفاري "أحرقَ الدارَ ، واصطلى بالنارِ "أطربتْه معازفُ التـ يارِ

وقف مجاهد على قدميه وسار فوق فراشه نحو الجدار
الخلفي للزنزانة وهو يخاطب شيئاً ما في الفراغ الممتد
بعيداً بعيداً عبر الجدران والأبنية. وقف سليم ولحق
بشريكه بهدوء يتابع كلامه باهتمام وتأثر.
"اتركيني لسالكينَ استعاروا أعينَ البومِ، أو
قلوب الفار

"اتركيني، فما لِخلم	"أتصبّى و لا لِكرمِ

العذارِii وأنا لو تس" بـرينَ غورَ قراري لفككتَ" ا لإسار بـعدَ الإسارii	لعُقار أو تـشيمي" ن بـارقاً من ثاريii وطلبتَ" ا لنجاةَ قبلَ البوارِii

جلس مجاهد في زاوية الزنزانة وهو يتابع الإنشاد، فجلس سليم في الزاوية المقابلة، يميل برأسه كما تميل يدا شريكه في الإنشاد.

"رب غيظٍ وأدتُه يتلظّى من فُضولٍ تعلقتْ بإزاii ري "أنا كالنسرِ أرقبُ الجُرذَ تلهو بِفراخي تعضُّ من أ ظفاري "تبتني حجرَها بِمفرِقِ رأسي ، وتذودُ الهواءَ عن مِ نقاري

كانت عينا مجاهد تنظران من الأعلى إلى الأرض نظرات استهجان، ويداه تلوحان في الهواء تلويحات تقزز وقرف.

"أطعمْتها سكينتي ووَقاري "فاستحمَّتْ بِدمعيَ
المدرارِ

لم يكد يصدق سليم ما رأت عيناه: عينا مجاهد تحتقن. الدمع يترقرق فيها.

"أتلفتْ ما ابتنيتُه من فَخارِ "ورمتني بأخبثِ
الأوزارِi i
"زيَّنتْ لي الحياةَ خفضَ جناحٍ للثعابين، للذئابِ i i
الضواري
"تستبيحُ العرينَ بيضاً وحمراً واللئيمُ، اللئيمُ.. حا
مي الذِمار

تهدج صوت مجاهد. بدأت درجة صوته بالارتفاع.

"وأغٍ سادرٍ يعدُّ الدراري "في عيون المَها وحَبِّ i i
النُضار
"خلبتْه بهارجُ الأنوارِ "عن سرابِ المنى وراءَ i iال
خمارِ
"أشرعِ السور للضيوف ألوفاً. كرماً سابغاً، وحسنَ
i iجوارِ!
"ورفوفَ العلومِ صارتْ دفوفاً، أين منها عرائسُ ا
لأفكارِ!
"رقصتْ أختَه ، وطافَ بنوه بشرابٍ مصفَّقٍ i iبال
عارِ
"لو بكى (خالدٌ) و(صلاحٌ) أخرسوه بضجةِ i iالمِزما
ر
"فغدا السورُ يلفظُ الجرذَ خزياً بعدَ حفزِ الأباةِ وا
لأبرار

حينما وصل مجاهد إلى نهاية هذه الأبيات سكتَ قليلاً
وزفر عدة زفرات. ثم قال موحياً بالختام من خلال
انخفاض درجة صوته ولهجته:

"يا همومَ الحياةِ شدّي إساري
"لستُ أرجو، ولا عليكَ انتصاري
"إن قلباً سما إلى الجبارِ
"لمطيحُ بغارةِ i iالأقدارِ"

سكت مجاهد. سكنت حركاته. لما طال سكوته لم يشأ شريكه أن يكلمه. خيل إليه أنه في حلم. ما لبث أخيراً أن عاد مجاهد إلى وضعه العادي ثم قال:

– لا مؤاخذة كنت مستغرقاً في ذكريات حميمة. لعلني أسرفت في الكلام والإنشاد. كنت في الحقيقة أجد عزاء في هذه الغيبوبة التي تنسيني ما أنا فيه.

– أبداً. أبداً. خذ حريتك.

– هل بقيت لنا حرية؟

يضحكان.

– أعني فيما يتعلق بي.

– شكراً.

– صدقني كنت معك على الخط وبودي لو أعرف معاني بعض الكلمات الغريبة.

– مصفق بالعار. المها. فضول؟

– مثلاً. مثلاً...

– ألست تحمل شهادة جامعية؟

– نعم. لكن اختصاص تجارة واقتصاد. وهذا لم يمنعني من استيعاب الجو العام، والتأثر بتجربة الشاعر، وبطريقتك في الإنشاد. وأخشى أن تقول لي إن صاحب الأبيات صار في سجن تدمر!

يضحكان.

– لا. لكنه معنا في هذا السجن على بعد خطوات في زنزانة أخرى.

أطرق سليم مذهولاً يفكر:

– هل هذه مصادفات، أم أنا في كابوس؟!

– ما بالك؟!

– في الحقيقة أراني أمام عجائب أحاول تفسيرها لنفسي، مثل الأعجوبة التي حصلت لي وتفسيرها سهل جداً. في إحدى المرات أحسست بحر شديد.

قررت أن أوجه فتحة النافذة الدائرية في الجدار الخلفي لكي أتغلب على ارتفاعها الذي يزيد على مترين.

– وأنت غير طويل.

– لا تفخر بطولك هي ممتدة إلى الخارج بعمق نصف متر بسبب تحصين الجدار.. أخذت قطعة (النايلون) التي أستخدمها للطعام، لففتها على شكل إصبع طويل أو عصا. نخست النافذة برأسها، فإذا الزجاج ينفصل عن إطاره الحديدي ويهوي مرتطماً بأرض الحديقة فوق ممر حجري خاص بالحرس، محدثاً ضجة وبلبلة. تدافع العساكر. هاجوا وماجوا. ضربوني عدة كفوف قبل أن يسألوني عن السبب. لما سألوني عن السبب لم أعترف. قلت: لا أدري. لهذا هم ما زالوا في حيرة من هذه القصة.

– أفراد عاديون، عساكر لا يؤمنون بالمصادفة.. بزجاج يسقط ينكسر بلا سبب!

– وأنا المثقف أعتقد بأن الطبيعة وجدت بالمصادفة (بلهجة معاندة)

– لا أرغمك على قناعة ما، لكنك تتحمل نتيجة اختيارك

وجد السجينان نفسيهما يميلان إلى الصمت والنوم.

انقطعا عن الحوار. اتخذ كل منهما وضع النوم بلا غطاء. الوقت صيف. انتقلت بقعة الشمس المستديرة مع انتقال الشعاع عبر النافذة من أعلى الباب الحديدي إلى أعلى الطرف الأقصى من الجدار الجانبي إيذاناً باقتراب وقت الغروب. سمعت نقرات على باب إحدى الزنزانات. سمع السجناء صوت الحارس يخاطب صاحب النقرات. أغلقت الكوى الحديدية في الأبواب كي يمر صاحب النقرات ذاهباً إلى دورة المياه. استيقظ السجينان في الغرفة (6). أشار سليم بإصبعه لمجاهد (أن اتبعني). قام سليم على أطراف قدميه. اقترب من كوة الزنزانة. أراه في أسفل الكوة ثقباً صغيراً جداً لا تكاد تمر منه شعرة، ناشئة عن التحام جوانب الكوة بالإطار. اقترب مجاهد من الثقب ونظر. شعاع بصره اتسع بعد خروجه من عينه والثقب. استطاع أن يرى وجه الحارس الضخم بوضوح. رأى المعتقل الذاهب إلى دورة المياه. همس مجاهد قائلاً:

– يا سليم رأيت المعتقل.

– ما هو شكله؟ (أجابه هامساً)

– طويل. شعره مجعد. في وجهه شارب كث على شكل (8). لا بد أنه طالب جامعي.

– هل وجنتاه بارزتان مثل حبة الكرز تحت العين؟

– نعم.

– آه. إنه الرفيق عمر. اسمح لي أنظر أنا.

حينما عاد السجين عبر الممر رآه سليم.

– فعلاً. إنه عمر!

استلقى سليم على فراشه قبل أن يعاد فتح النوافذ الصغيرة.



– إنه منهار. يبدو على عينيه الحزن. هل اعترف؟

- رواية < خطوات في الليل(2)

- خطوات في الليل(2)

- 

- محمد الحسناوي*
- shasansh@hotmail.com
  -

- الليلة الثانية
- مساء يوم الخميس 5 حزيران 1980
- بعد تناول طعام العشاء فتحت الكوة الحديدية في أعلى الباب لزنزانة رقم (13) أطل وجه عسكري جديد. نادى حسان:

–هل أنت حامد؟

–نعم.

–تعال بسرعة.

- هذه أول مرة يدعى فيها حسان إلى التحقيق.أتيح له رغم التعليمات الصارمة بعدم الالتفات أو التوقف أو الكلام .. أن يدرك بأنه مطلوب للتحقيق، وأن بناء الزنزانات الخاصة به وبأمثاله منفصل عن المبنى العام الذي جعلت غرف الدور الأول منه لشؤون التحقيق . الحارس المرفق برتبة رقيب أول.قليل الكلام . صارم الملامح.قصير القامة.
- أدخله الحارس المرافق إلى غرفة صغيرة، سقفها منخفض ليس فيها إلا المنضدة يجلس عليها رجل

طويل القامة عريض المنكبين أسود الشعر والحاجبين والعينين. إلى جواره يقف شاب أصغر منه سناً أمام المنضدة كرسيّ واحد، لا يبعد أكثر من مسافة مترين. وعن الجدار مسافة متر واحد. الجدران نظيفة جداً، بيضاء. الإضاءة قوية.

- وراء الرجل الجالس على الكرسي والمنضدة . توجد خزانة حديدية ذات دروج، تستخدم للمحفوظات، تشبه الخزانة التي احتجزت من بيت حسان.
- بعد أن طلب من حسان الجلوس خاطبه الرجل الطويل قائلاً:

–اسمك الحقيقي؟

–حامد أبو الفضل.

- كان لكلمة (حقيقي) على لسان المحقق وقع عنيف في نفس حسان، لأن الاسم الذي يدعيه غير حقيقي، ولأنه رتب في نفسه ومع ولده مجاهد قصة اعترافات مطولة غير حقيقية، فكيف يفاجأ من أول لحظة بالتشكيك ... مع ذلك تماسك وأصر قائلاً ما قال، كما أصر على متابعة ترتيباته الخاصة.

–عملك؟

–مدرس لغة عربية في مدينة حلب.

–علاقتك بالتنظيم الإسلامي وموقعك التنظيمي.

–لا علاقة لي بالتنظيم.

- ما كاد حسان يتلفظ بهذه العبارة حتى أهوى الرجل الطويل بيده على المنضدة الخشبية، وخبط بها المنضدة خبطة قوية ارتجت لها أركان الغرفة الصغيرة، وصاح وهو يزمجر، وشارباه

يرتجفان:

–أنت كذاب. كذاب!

- على الرغم من تعود حسان على أجواء التحقيق ومعاناة الضغوط المتعددة .. أحس برهبة حقيقية، فلاذ بما أوصى به نفسه من صبر ومصابرة ومن تأمل المواقف بعمق، وعدم اللجوء إلى ردود الفعل، والاكتفاء بأقل الأجوبة، وبالصمت ما أمكن. ومما أفاده تأمل المواقف أنه رأى شاربي المحقق يرتجفان بشدة. اكتشف لأول مرة أن من أسباب هيبته وتخويفه هما هذان الشاربان الطويلان الكثيفان الأسودان، لكن ماذا يفعل الشاربان وحدهما؟!
- لم يتفوه حسان بشيء. بعد فترة صمت استعاد فيها المحقق هدوءه، ولم يتغير شيء من ملامح حسان، قال المحقق:

–أعيد عليك السؤال. ما علاقتك بالتنظيم.

–لا علاقة لي بالتنظيم.

–في بيتك (كاصة) حديدية ملأى بالأرشيف والوثائق والكليشيهات وعدد ضخم من كتب التنظيم ومن المجلات والصحف، ثم تزعم بأنك لست من التنظيم؟

–لو سألتني عن سبب وجود هذه الأشياء لشرحت لك ذلك:

–وهل هناك سبب غير عضويتك في التنظيم؟

–لو علمت حقيقة عملي لما استغربت وجود هذه الأشياء في بيتي.

–عملك عضو قيادي في هذا التنظيم لا يجادل فيه إنسان.

–هذا مجرد استنتاج لا يستند إلى براهين.

- مال الشاب المجاور للمحقق وهمس بـ ....، قال

المحقق وهو يشير بيده الطويلة إلى الأمام والوراء:

–أقول لك بصراحة: نحن لا نقبل اللف والدوران، ولا تضييع الوقت. إما أن تقول الحقيقية كاملة، وإما أن نرسلكم إلى جهات أنتم لا ترغبون بالذهاب إليها.

- تساءل حسان في نفسه: هل استخدام ضمير الجمع يعني أن إخوانه المعتقلين الآخرين يصرون على الإنكار أيضاً، وهذا ما يتوقع؟ وتساءل: هل هو جاد في تهديده بتسليمهم إلى سلطات بلادهم التي نجوا من بطشها، ويعملون لإنهاء مظالمها؟

–هذه الأشياء وضعتها في بيتي أمانة. ولحاجات العمل لأنني أعمل موظفاً، مجرد موظف عادي.

–أفهم من كلامك أنك مصرّ على الإنكار، ولا تريد أن تساعد نفسك، ولا أن تنتهي قضيتك بسهولة.

- مد المحقق يده إلى ناحية في الجدار. ضغط على الجرس الكهربائي فانفتح الباب، ودخل الرقيب أول، وخبط الأرض برجليه وأدى التحية العسكرية قائلاً:

–أمرك سيدي.

–خذ هذا إلى غرفته.

- في طريق العودة إلى الزنزانة أخذ حسان يحلل كلام المحقق: (خذ هذا إلى غرفته)، هل تحتمل إمكانية جولة أخرى للتحقيق، أو هي تمهيد لحزم الأمتعة القليلة والتسليم لسلطات بلاده؟ على كل حال إنها لا تعني حتى الآن شيئاً من الإخضاع للتعذيب أو العنف، كما أنها لا تضيء المستقبل.
- ما إن أغلق باب الزنزانة (13) وراء حسان حتى

بادره همام بلهفة:

–هل حققوا معك!

–نعم.

–ماذا قالوا لك؟

–قالوا لي: لماذا جئت إلى هذه البلاد. وماذا تعمل هنا؟

–غريب! بلادنا واحدة. نحن نذهب إلى بلادكم وأنتم تحضرون إلى بلادنا من قديم الزمان!

–لا بد أن هناك خطأً ما.

–ربما.

–هل ضربوك أو أهانوك؟

–لا، أبداً.

- لم يسأله: هل هدَودك؟ ولو سأله لأجابه بالنفي، لأنه بدأ يستمرئ الكذب، فقد كذب على نفسه، وكذب على المحققين، كما كذب على همام، وهو لم يتعود على الكذب، وما يظن بأنه يستطيع التعود عليه. حبل الكذب قصير.
- مد همام يده بصعوبة إلى جيبه وأخرج علبة سجائره . وضع إحدى السجائر بين شفتيه الغليظتين، وبدأ البحث عن (قداحة الفتيل) ليشعل السيجارة. فتش جيوبه بصعوبة وبحرص فلم يجدها. أخيراً عثر عليها تحت البطانية التي يتكئ عليها مثل وسادة، وبدأ الدخان يتجول في الزنزانة منبعثاً حلقات من السيجارة، وصنابير من أنف همام ومن فمه . انسجم حسان مع هذا المنظر وتلك الروائح . وجد فيها راحة تنسيه جلسة التحقيق وذيولها، بل أخذ يستهلك ما تنتجه أجهزة همام من سحب وأمطار دخانية .

تذكر حسان أنه عاد إلى التدخين في فترة اعتقاله عام 1967 أما الآن فإنه يقاوم هذه الرغبة، كما يقاوم عدداً من الضغوط الحسية والنفسية. واكتفى بمنتجات همام.

- "إما أن تقول الحقيقة كاملة، وإما أن نرسلكم إلى جهات أنتم لا ترغبون بالذهاب إليها".
- لا شك أن ما قاله حسان ليس الحقيقة كاملة، ولا شك أن لدى المحقق من المستمسكات ما يجعله يطعن بأقوال حسان جملةً وتفصيلاً، لكن هل يقدم المحقق أو المسوؤلون على تنفيذ هذا التهديد "نرسلكم إلى جهات لا ترغبون بالذهاب إليها". إنه تهديد شديد، وإن التلويح به كاف لإضرام نار القلق والمخاوف التي لها أول وليس لها آخر.
- جوازات السفر أولاً مزورة . والملفات المحجوزة حافلة بالأدلة بالدامغة والوثائق الخطيرة التي تشير كل واحدة منها إلى أن من يمتلكها يحتل موقعاً بارزاً في تنظيم سياسي معارض لسلطات بلده، وهو يوجه مع زملائه أحداث الشارع السياسي كله وبشكل يومي.
- قبل يوم واحد فقط كان حسان قد أنجز مع مساعدة فارس ترتيب خزانة الأرشيف من جمع للمواد، وتنظيم وتوثيق وفهرسة، ووضعها ضمن ملفات وظروف خاصة، وعناوانات أبجدية تسهل التعامل معها، والرجوع إليها، وتثبيت تلك العناوانات على كل ظرف ثم في ورقة واحدة . وفيها دراسات عن الجبهة الوطنية والجبهة

الإسلامية وعن النقابات والطلاب والعمال والفلاحين والاقتصاد...

- أما وجود نشرة (النداء) فإشارة واضحة إلى اسم هذا التنظيم ودوره الحالي، فكيف إذا عثر على أعداد كثيرة وعلى مواد مجهزة للنشر فيها وعلى العنوانات المستخدمة في غلافها وفي رؤوس موضوعاتها الداخلية، بالإضافة إلى كراس يضم مئات العناوين البريدية بالعربية والأجنبية لرجال السياسة والعلم والفكر ومنظمات الدفاع عن حقوق الإنسان ورجال القضاء.
- وضع حسان يده اليمنى على صدغه كمن يريد أن يقف سيل المعلومات المتدفق. وزفر زفرة طويلة امتصت كمية ضخمة من منتجات همام الدخانية، ثم أطلقها مع تنهدة عميقة لم تفلح في كبح الهواجس الجامحة:
- انتبه حسان إلى أن هماماً يخاطبه:

–لا يهمك أستاذ. لا بد أن يأتي يوم يتضح فيه الخطأ ويفرجون عنك

–إن شاء الله.

- لو علم همام أن الخطأ الذي سوف ينكشف هو كذب ادعاءات حسان حول اسمه أو أعماله لما قال هذه الكلمات التي تزيد في إثارة القلق والبلبلة بلا قصد. ثم ما رأي همام برجل فهم الإسلام فهماً شاملاً وتبناه عقيدة وسلوكاً ومنهج حياة وتعرض بسبب ذلك للاضطهاد والمخاطر والهجرة، ثم يضطر إلى ركوب هذا المركب الصعب مركب

الكذب، والضرورات تبيح المحظورات، كما أن الحرب خدعة. لكن من يحارب حسان في هذه اللحظات؟!

- اكتشف حسان فجأة أنه لا يحارب في هذه اللحظات سلطات بلاده مباشرة بل يحارب الحواجز التي تقف في طريق قضيته وقضية شعبه الصابر المضطهد.
- لم لا يقول لهمام إن الخطر المحدق بالإسلام ليس التحريف اللفظي لآيات القرآن الكريم وحسب؟!
- لم لا يشرح لسلطات هذا البلد أن حكام بلاده لا يشكلون خطراً على شعبه وحسب بل على شعوب المنطقة وحكوماتها كلها؟!
- أطل الحارس من الكوة التي في أعلى الباب ونادى:

–استعدوا جاء دوركم بالحمام.

- قال حسان:

–أنا غير محتاج لأنني استحممت البارحة.

–قلت لك أكثر من مرة نفذ الأوامر ولا تعترض. حمام يعني حمام.

- الليلة الثالثة

- مساء يوم الجمعة 6 حزيران
- مع غروب الشمس فتح باب الزنزانة (رقم 13) أطل الحارس الأسود، وقال مشيراً إلى حسان:

–أنت، هات أغراضك وتعال.

- لم تكن مع حسان أغراض تذكر غير بدل ثياب داخلية ومنشفة، لكن لديه مجموعة غير قليلة من الهواجس والهموم، فحملها معه، ولحق بالحارس محدثاً نفسه:

–إما الإفراج أو التسليم لسلطات بلادنا.

- لم يكن هذا ولا ذاك، بل فتح له الحارس باب الزنزانة "10" وقال له:

–ادخل هنا. وسآتيك بالفراش والغطاء والوسادة.

- لم ينس حسان أن يحمل معه أيضاً ممتلكاته الجديدة التي انضمت إلى أغراضه: كوب الماء، وفنجان الشاي وهما من مادة (البلاستيك) المحلي، ومما لقنه همام الاحتفاظ به للحاجة اليومية.
- وجد حسان نفسه وحيداً في هذه الزنزانة، فشرع يتفحصه. لم يجد فيها فرقاً يذكر غير تساوي حجم جدارها الخلفي مع الجدار الأمامي، وقوة الإضاءة المنبعثة من المصباح الكهربائي الوحيد في سقف الغرفة، ومن كوة الباب الحديدية المطلة على الرواق حين يفتحها الحارس. وتبين أن الكوة التي بمساحة 25×25 سم تقريباً مشبكة بقضبان معدنية مسطحة ومتقاطعة.
- أعاد الحارس فتح الباب وقذف بالفراش والأغطية والوسادة ثم أغلق الباب.

–هذه زنزانة انفرادية إذن، وهذه أول تجربة لي في السجن الانفرادي. كيف حال العيش انفرادياً؟ في حدود علمي أن السجن الانفرادي عقوبة للسجين الذي يخالف أنظمة السجون أو للذي اقترف جرماً خطيراً خارج السجن أو داخله، فأصبح عنصراً خطراً يخشى على السجناء الآخرين من شره. هذا في السجون العادية، فما الشأن في مثل سجني وسجن إخواني الآخرين؟

- تذكر حسان أيام اعتقاله عام 1967، وقد مر بثلاثة أنواع من السجون، كان في كل منها يحبس مع مجموعة من إخوانه، ففي سجن الشرطة

العسكرية بحي ميسلون جعل في زنزانة تضم خمسة أخوة (أربعة مدرسين وأستاذ جامعي)، وفي قبو المخابرات العسكرية بشارع اسكندرون وضع في زنزانة عشرة أخوة، وهي لا تفتح إلا على (صالون) القبو حيث تنفذ عمليات التحقيق والتعذيب ليلاً، وباب الزنزانة من نوع (سحاب) ليست له نافذة، تفتح دفتاه بالجر إحداهما إلى اليمين والثانية إلى اليسار، لكن حين وقعت حرب حزيران، وملئت السجون بمئات المعتقلين الجدد غصت هذه الزنزانة بمعتقليها لدرجة أن بعضهم قضى الليلة واقفاً على قدميه حتى الصباح.

- أما الزنزانة التي قضى فيها حسان بقية أيام اعتقاله عام 1967 فكانت غرفة النظارة في سجن حلب المدني، كانت بالنسبة إلى حسان من أمتع أنواع السجون والزنزانات لعدة أسباب . منها أن بابها مفتوح طوال النهار على ممر جانبي طويل يشرف مباشرة على باحة السجن الكبرى من خلال حاجز شبك معدني غير ضيق، كما أنها قريبة من غرفة الحرس ومن الباب الخارجي، وهي في الوقت نفسه تضم دورة مياه خاصة بها.

–دورة المياه كانت تثير تقزز إخواني لكنني كنت فرحاً بها لسهولة الوصول إليها . (قال حسان في نفسه، وتابع): لكن كيف الوصول إلى دورة المياه في السجون الأخرى وفي مثل هذه الزنزانة الانفرادية الصماء!

- أخوف ما كنت أخافه في الماضي أن أعتقل في

زنزانة انفرادية، لكنني سمعت من أخي علي صدر الدين طرفاً من ذكرياته في سجن (الشيخ حسن) بحي الميدان بدمشق عام 975، حيث قضى معظم أيام سجنه في زنزانة انفرادية، لا يؤنسه فيها غير خرير مجرى المياه القذرة لدورات المياه، وحركة الجرذان النشيطة فيها.

- كم أنا مشتاق إليك يا أخي الحبيب أبا أنس؟! وهل أنت الآن بخير كما أرجو وأتمنى لكل الأحباب؟ في تقديري أنك نجوت هذه المرة من الاعتقال، وأنك الآن طليق تتابع قضية شعبنا العامة كما تتابع قضية الإفراج عنها.
- إني لأغبطك على تحملك أيام السجن الطويلة في سجن الشيخ حسن، وفرحتك بالانفراد مع نفسك والخلوة إلى الله تعالى تناجيه وتعبده بصفاء وهدوء، لا تزيدهما قسوة السجن والتعذيب إلا قوة وجلاء. ها أنذا أستعيد تجربتك وآمل أن آنس بالخلوة إلى الله جل جلاله. لطالما فرطت في جنب الله، وشغلت عن الذكر والدعاء بشواغل الحياة التي لا تنقضي: لا إله إلا الله. سبحان الله وبحمده. يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.
- عاد حسان إلى تأمل الغرفة وتفحص جدرانها النظيفة عساه يلقى فيها أثراً لمن شغلوها قبله، كما صادف في سجون سورية عام 967 ففي سجن الشرطة العسكرية، وهو أول اعتقال سياسي له شعر بصدمة كبيرة حين أدخل الزنزانة الخامسة، وأغلق عليه وعلى زملائه

الأربعة ذلك الباب الحديدي الصفيق في ساعات الضحى من أواخر شهر نيسان . ما إن جلسوا على أرض الزنزانة التي لا تتسع لسجين آخر، ونظروا إلى الباب الذي يواجههم حتى استرعى انتباههم بيت من الشعر مكتوب بشكل واضح على الجدار وفوق الباب:

- مشيناها خُطى كُتبتْ علينا
- ومن كتبتْ عليه خُطى مشاها

- إلى هذا اليوم لم أعرف صاحب هذه الأبيات . كم كان وقعه في نفسي جليلاً مؤثراً فهو على بساطته وبسبب بساطته يختصر تجربة السجن والرضى بالقضاء والقدر، كنا جميعين مدرسين، فأنا مدرس لغة عربية، وفاخر مدرس جامعي في كلية الآداب، ومحمد وخالد مدرس تربية إسلامية، وراضي مدرس فلسفة، كلنا أعجبنا بهذا البيت وتدارسناه وصار أحد المحفوظات القيمة في حياتنا داخل السجن وخارجه. من قال إن السجون لا تنفع؟! ولرجال التربية والتعليم؟!
- وتذكر حسان جدران سجن المخابرات العسكرية في حلب المسمى (سجن جاسم)، فهو على الرغم من كونه سجناً أو قبواً لا تدخله الشمس أبداً، كانت جدرانه تحمل ركاماً من المشاهد العجيبة الغريبة، لعل أهمها حلقات يربط فيها السجناء من أيديهم وأرجلهم، أو يعقلون بها في السقف، أو يبطحون بها إلى الأرض، وعلى الجدران المتصلة بالباب الداخلي حتى نهاية (الصالون) الذي تطل عليه الغرف الداخلية ما تزال آثار المشبوحين من

أيديهم وأرجلهم على شكل ظل قاتم، يعكس صور أولئك السجناء، كما يعكس ظل الإنسان شكله عند انحدار الشمس عن قبة السماء.

–تلك سجون سورية عام 967 فكيف هي الآن عام 980؟ أليس من منطق الحياة والتقدم أن تتقدم السجون أيضاً؟!

- سمع حسان دقاً خفيفاً على جدار زنزانته من الناحية اليسرى فأجاب على الفور بدقة خفيفة . جاءته دقتان خفيفتان، فأجاب بدقتين خفيفتين. في هذه الأثناء مر الحارس في الرواق أمام الزنزانة فتوقف الدق من الناحيتين . لما غاب السجان عاد ساكن الزنزانة رقم (9) يدق دقات موسيقية، فأجاب عليها حسان، وهو يستمتع بهذا الحوار الإشاري.

–ما أعظم نعمة العقل والذاكرة ونعمة البصر ونعمة المطالعة. أما نعمة العقل فقد أتاحت لي نعمة تعلم القراءة والكتابة، ونعمة البصر أتاحت لي نعمة المطالعة، ونعمة المطالعة أتاحت قراءة كتاب (ظلام في النهار) للكاتب (آرثر ميللر) الذي ذكر فيه كيفية تخاطب السجناء المتقنين لإشارات مورس البرقية عبر الدق على الجدران التي تفصل بينهم. ونعمة الذاكرة أتاحت تذكر هذا الكتاب وما فيه من وقائع عجيبة.

- حين وصلت الذاكرة بحسان إلى هذا السياق أخذه الضحك، وسره أن يضحك وهو في سجن انفرادي، فعمد إلى استرجاع النكتة التي حضرته من كتاب آرثر ميللر:
- سمع الرفيق مولوتوف قرعات منتظمة على جدران زنزانته، ولما كان يعرف إشارات (مورس) البرقية فهم من جاره أن يرحب به:

–أهلا وسهلا!

- فرد عليه:

–شكراً!!

–من أنت؟

–الرفيق موتولوف.

–أحد قادة الثورة؟

–نعم. من أنت؟ كيف حالك؟

–أنا فلان.

–أحد رجال القصر الإمبراطوري؟

–نعم . ويسرني أن يغدر بك رفاقك كما تأكل الهرة أبناءها.ها.ها.ها.

- فتحت الكوة وأطل رأس حارس آخر.

–أنت سجين جديد؟

–نعم.

–من الشام؟

–نعم.

–اسمك؟

–حامد أبو الفضل؟

–أين تسكن؟

–في (الدارة). هل رأيتني سابقاً؟

–أظن!

–ابنك يذهب مع ابني إلى روضة الأطفال.

- ابتسم ثم أغلق الكوة وانصرف إلى واجبه.

–هذه ليست كوة حديدية تطل على رواق الطويل الضيق الذي لا يرى نور الشمس، إنها نافذة تطل على (الدارة)، وهي تطل أيضاً على الدنيا كلها، بما فيها من سماء وأرض وأشجار وعصافير، ألا تطل على روضة الأطفال وعلى حديقة بالذات؟ ! آه..

يا ولدي الحبيب كم أنا مشتاق إليك؟! هل أنت الآن نائم أم ساهر يقظان مع أمك وأختك. لقد تركتك ساعة المداهمة للبيت نائماً لا تدري أن أباك يؤخذ منك إلى حيث لا تدري، ولا وفي أي وقت يعود. ثم هل يعود؟! ثم أنت الآن –يا حذيفة – صلة الوصل بين السجين والسجان، بين العدم والوجود، فما أحلاك وما أغلاك أيها الملك! ترى هل يتصل هذا الحارس بأهلي ويخبرهم بحالي؟ أم يكتفي بمؤانستي والتخفيف عني؟ على كل حال، المهم أنه تحدث معي، نقلني –ولو بالوهم والخيال – إلى خارج هذه الجدران الصماء والعزلة المطبقة، لا ساعة، لا جريدة، لا راديو، لا كتاب، لا إنسان. لك الحمد يا رب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك استغفرك اللهم وأتوب إليك اللهم اصرف عني جلسة التحقيق.

- حين جاء وقت العشاء وتوزيع الطعام فتح باب الزنزانة "10"، وأتيح لحسان أن يتفرس في ملامح الحارس الجديد ذي العينين الذكيتين المتألقتين بحيوية خاصة، تنطق بها حركات صاحبهما ونبرات صوته، وجده ممشوق القامة أسمر البشرة خفيف الحركة، يتنقل وكأنه يمشي على رؤوس أصابع قدميه، ولولا لباسه العسكري ورتبته رقيب لظن من يراه لأول وهلة أنه رجل رياضي، أو راقص في إحدى الفرق الاستعراضية. حتى قبعته العسكرية يضعها بشكل خاص لم يلحظ له حسان مثيلاً لدى الحراس الآخرين، إنه يباعد بين مقدمة الطاقية وبين جبينه فتميل إلى الخلف حتى تكاد تسقط، مع ذلك تظل متشبثة بشعر رأسه الخرنوبي نصف المجعد الذي لا هو بالمرجل ولا هو بالمهمل.

- بعد الفراغ من تناول طعام العشاء أصدر الحارس ذو العينين الذكيتين أوامره للسجناء بالاستعداد لتنظيف الغرف . ولما جاء دور الزنزانة "10" طلب الحارس من حسان أن يحمل الفراش والبطانيات إلى خارج الغرفة وأن ينقل الصابون والماء من الصنبور إلى الغرفة بالدلو، وأن يستعمل مجرفة المطاط لدفع الماء يميناً وشمالاً . ولإخراجه أخيراً إلى الرواق عبر باب الزنزانة. لم تكن لدى حسان الخبرة الكافية في استعمال المجرفة المطاطية وخصوصاً في دفع الماء عبر الإطار الحديدي لباب الزنزانة السفلي، لأنه يرتفع عن مستوى الأرض عدة سنتمترات، فتقدم الحارس الرشيق، وأمسك بالمجرفة ليعطي حسان درساً في تجديف الماء، بل استمر يعمل حتى أخرج الماء من الزنزانة، وأعاد مسح الأرض وزوايا الجدران بقطعة قماش خشن على شكل شبك ملتفة على المجرفة المطاطية، وكرر العملية حتى تألقت أرض الغرفة، وتجددت حيوية التنفس فيها، ثم عاون حسان في نقل الفراش والبطانيات إلى مواضعها، وأتاح له ذلك الاطمئنان إلى أن جلسة التحقيق لن تكن في هذه الليلة كما يرجح.

–إذا كانت الحياة في هذا السجن هكذا، فليس هذا سجناً. ثم هل هذه المعاملة خاصة بي؟ (تساءل حسان)؟

- بعد الفراغ من تنظيف الزنزانات وإغلاق الأبواب جميعاً نادى الحارس اثنين من نزلاء إحدى الغرف، وأمرهما بتنظيف الرواق ودورات المياه والممر

الذي يصل هذا الجناح ببابه الخارجي. تعمد أن يكون السجينان من نزلاء غرفة واحدة، لأنه لا يجوز أن يتعرف نزلاء الغرف الأخرى على بعضهم، إلا ضمن تعليمات إدارة السجن وضباط التحقيق.

- أخذ حسان يتسلى بحركة التنظيف للرواق. تارة يتنصت ليسمع كلام الحارس والسجينين، وتارة يدنو من كوة الباب –وهي مغلقة– ليتلصص من خلال الفرج الضئيلة بين إطار الكوة وإطار الغطاء الذي يغلقها. فيلحظ أحد السجينين حين يقترب من باب الزنزانة "10" وهو مكب على المجرفة، يجذف بقوة ورتابة، مشمراً عن ساقيه وساعديه، لا يكلم الحارس أو زميله الآخر إلا همساً أو بالإشارات.
- لاحظ حسان أن السجين الذي يعمل في تنظيف الرواق حليق الرأس، فلم يستغرب لأن ذلك من ترتيبات السجون، فقد سبق له أن حلق شعر رأسه هو عام 967 ثم قيل له ولإخوانه: إن ذلك خطأ بحقهم لأنهم معتقلون غير جنائيين.
- ابتسم حسان لذكرى حلاقة شعر الرأس في سجن الشرطة العسكرية بحلب عام 967، فقد استدعي هو وإخوانه واحداً واحداً، لحلاقة الشعر على الدرجة صفر، وحين يعود أحدهم إلى الزنزانة يعجب إخوانه من شكله ويستغربونه، ثم يتبادلون النكت والضحكات، لأنهم لم يتعودوا على مثل هذه الحلاقة، ولا على أن يرى بعضهم بعضاً على هذه الشاكلة التي لا تشبهها إلا ملامح المجرمين المحترفين.

- تذكر أيضاً أن الحلاق الذي حلق لهم قد همس بأذن بعضهم:

–أنا سجين مثلكم، مضى على اعتقالي ثلاث سنوات بلا محاكمة : أنا وسبعة من أبناء منطقتي جبل الأكراد. التهمة الموجهة إلينا أننا أعضاء في الحزب البارتي الكردي. من أنتم؟ وما قصتكم؟.

–لم يتذكر حسان جوابه للحلاق، لكنه تذكر أنه وإخوانه تواصوا آنذاك بالحذر من كل غريب خشية وجود المدسوسين والمخبرين المموهين.

- تذكر حسان أيضاً طرفة أضحكته، كان قد قرأها في كتاب آرثر ميللر (ظلام في النهار)، وهي أن الرفيق موتولوف دعي في سجنه إلى غرفة حلاق السجن. وفيما كان الحلاق يقص شعره من خلفه وضع له قصاصة ورق مطوية تدحرجت من أعلى القميص إلى وسط ظهره، فأحس موتولوف بنشوة مفاجئة، وانتظر أن تكون تلك الرسالة من رفاق متعاطفين معه خارج السجن، يعلمونه شيئاً عن وضعه ووضعهم، وربما يرسمون له خطة للهرب أو للنجاة أو لتغيير الوضع القائم، وأن هذا الحلاق صديق لهم استعانوا به ليوصل إليه رسالتهم ضمن ظروف أمنية بالغة الخطورة والتعقيد. كان ينتظر الفراغ من الحلاقة والعودة إلى زنزانته كي يخلو بنفسه ليفض الرسالة، ويقرأ ما فيها من أسرار مفاجئة وممتعة. حين عاد المسكين إلى الزنزانة وجد الرسالة تقول:
- "مت بلا ضجة."
- لم يشعر حسان بالمرارة الشديدة التي شعر بها

الرفيق مولوتوف، علل ذلك لنفسه أن موتولوف حزين لغدر رفاقه به، ولأنه لا يعتقد بحياة أخرى بعد الموت كما يعتقد هو، بل إنه الآن يضحك استجابة لذكرى عابرة، ويستمتع بتلك الذكرى استمتاعاً حقيقياً. لم لا؟ !إنه مؤمن بالله وبالقضاء والقدر: خيره وشره من الله تعالى، وهو في الوقت نفسه يبذل أقصى جهد للعمل بكتاب الله وسنة رسوله وتطبيق شريعته على نفسه وعلى من يعوله، ويدعو الناس بكل وسيلة يستطيعها إلى ما يعتقده، حتى وصل به الأمر إلى الغربة والنفي والسجون واعتقال الأهل والزملاء والاضهاد لجيرانه وأهل بلده وشعبه ظلماً وعدواناً.

–لم الخوف من الموت. يا مرحبا بلقاء الله!

- لقد سبق لحسان أن رحب بالموت ترحيباً أشد حين طال سجنه، واشتدت عليه الوطأة في سجن المخابرات العسكرية بحلب عام 1967، ولا سيما في الليالي التي تجري فيها عمليات التحقيق المصحوبة بالتعذيب الجسدي والنفسي في (الصالون) الذي يتصل بزنزانتهم مباشرة، أو في الغرفة المجاورة، التي كسيت جدرانها كلها من السقف إلى الأرض بأغطية لحف منجدة غليظة وكذلك الأرض والسقف، وذلك للحيلولة دون تسرب أصوات السجناء الذين يخضعون للجلد والضرب والتعذيب.. أما رائحة تلك الغرفة وألوان الأغطية القاتمة القذرة فحدث عنها ولا حرج.
- في أقصى زاوية من سجن المخابرات العسكرية،

أي في المكان المجاور لغرفة التعذيب من جهة ولدورة المياه من جهة، أخرى تقع غرفة مظلمة جداً، لا يذكر حسان أن بابها قد فتح يوماً ما . وكما يقال : هي غرفة تقع في الزاوية الميتة . كان فيها إنسان وصفه من رآه خلسة بأنه أشبه بإنسان الغابة لشدة طول شعر رأسه ووجهه وطول أظافره وشدة قذارته، قيل : إنه ضابط عسكري متهم بالاشتراك في تنظيم معارض للسلطة، وهو مصر على التكتم والإنكار برغم إخضاعه لكل أنواع التعذيب.

- يروي آخرون ممن استطاعوا الاقتراب من كوة في باب تلك الغرفة أنهم لمسوا في ذلك الإنسان المحذوف من دفتر الوجود لطفاً وتجاوباً إنسانياً حقيقياً في لحظات عابرة من الزمن سرقوها من الحراس والمخبرين.
- حين وصل حسان مع سياق الذكريات إلى هذا الحد انقبضت نفسه، فقد استيقظت لديه ذكرى قراءته لكتاب (الغرفة رقم 6) لمؤلفه أنطوان تشيخوف.
- (لقد تركت تلك القصة في نفسي أثراً مأسوياً عميقاً، أرى أثره يتجدد كلما تذكرتها وخصوصاً في أيام السجن، ليس المؤلم فيها الحكم على ذلك المفكر العظيم بالسجن المؤبد في غرفة خاصة من مستشفى الأمراض العقلية وحسب، بل المؤلم حقاً، وباستمرار أن يحكم على الطبيب الذي تعاطف معه، وواظب على زيارته وإطالة الحوار معه حكماً، يقضي بتجريده من وظيفته

طبيباً، وبإدخاله مستشفى الأمراض العقلية أيضاً.

- **(ترى هل كان تشيخوف يسجل واقعة في زمنه، أم يرصد ظاهرة متكررة في تاريخ الاجتماع البشري؟ أم كان يتنبأ بمصير الإنسان في المستقبل؟ أيا كان الهدف الحقيقي لرواية تشيخوف، فإن مما لا شك فيه أن يكون الأثر الأدبي ذا طاقة على الاشعاع الخالد، وعدم الانغلاق على حادثة عرضية بعينها.**
- **(لم أكن أدرك عمق تجربة السجن حتى ابتليت به أول مرة في سورية، ولم أدرك عمق قيمة الحرية حتى حرمت منها في بلادي. لقد كان من نتيجة تجربة السجن ووعيي لقيمة الحرية أن راجعت كثيراً من حساباتي وتصوراتي الفكرية والأدبية والسياسية، وكان من ثمار ذلك كله، أن كتبت ديواناً كاملاً من الشعر الحديث، الذي اتهمت قبل ذلك بمحاربته. أدركت بعمق عظم تلك الهبة التي أنعم الله بها على البشر، ثم لم يكن من البشر إلا أن بادر بعضهم إلي حرمان الآخرين منها. فكانوا متجبرين متألهين على إخوانهم البشر من دون الله.**
- **(إن الله سبحانه وتعالى خلق الناس وأعطاهم ما أعطاهم من عقل وحواس وقوى، وسخر لهم ما سخر من أرض وحيوانات وأشجار ونباتات ونواميس كونية، لا لشيء إلا ليقروا بألوهيته وبعبوديتهم له، ومع ذلك كم يلحد بالله من هؤلاء البشر؟ وكم يكفر بنعمه منهم؟ وكم**

يفسق –وهو القادر أن يقول للشيء كن فيكون– لم يعجل لهم العقوبة أو العذاب، بل أتاح لهم العيش والتلذذ وحتى التجبر في الأرض، لكن إلى متى، فهل يدركون؟!.

- (سبحانك اللهم وبحمدك . لا إله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك).
- في الزنزانة رقم "10" صار بمقدور حسان أن يحس بنزلاء عدد من الزنزانات الأخرى، سواء بعبور نزلاء الغرف "11 و12 و13" أمام زنزانته أو بقربها من الباب الداخلي الذي يقع في منتصف الرواق، بشكل مواجه لدورات المياه والمغاسل وعلى مسافة ثلاث غرف من زنزانة حسان. ها هو الآن يسمع تلاوة القرآن لأحد الذين يؤدون صلاة العشاء، كما يسمع سعال آخرين في زنزانات متفرقة.

–(صنبور الماء لا يكف عن الضجيج . إن صوته في بعض السجون يستخدم للتعذيب وذلك بفعل التكرار وصرف السجين عن النوم أو الراحة . أما هنا فطلب النظافة هو السبب في هذا النشاز المستمر . على كل حال، انعكاسات الصوت خير من انعكاسات الروائح.

- (إن هذا اليوم هو يوم الجمعة، يجب أن أبذل جهداً خاصاً لكيلا أضيع تسلسل أيام الأسبوع، لا حرصاً على حساب الزمن –وهو بيد الله – بل لأمور كثيرة ليس أقلها ملاحظة مواعيد التحقيق، والاستعداد لكل جولة بما يناسبها .. تذكر للماضي... تهيئة للأجوبة المتوقعة.. بيد أن ضباط التحقيق لا يعملون يوم الجمعة الذي هو يوم

إجازة.

- (نسيت اليوم تلاوة سورة الكهف بمناسبة يوم الجمعة، فلأستدرك)
- سرَّ حسان لاستظهاره سورة الكهف قبل اعتقاله هذه المرة، فأخذ يتلوها بإمعان وهدوء، مستمتعاً متفكراً، ومحاولاً السيطرة على هواجس التحقيق التي لا تهدأ.
- هو يعلم أن السورة تتألف من أربع قصص، تلتقي في هدف أو موضوع واحد يستطيع أن يسميه (بين الإيمان والمادية) أو (بين القوة المصرفة لهذا الكون –هو الله – وبين الطبيعة أو الأسباب).
- انسجاماً مع موسيقى الآيات الآسرة –لا سيما حركة الفتح في الفواصل – أخذ حسان يتلو آيات سورة الكهف بصوت مسموع، وهو يتمشى ذهاباً وإياباً في زنزانته . لما سمع قرعاً خفيفاً على بابها فهم أن المطلوب منه أن يخفض صوته ففعل، لم يتوقف عن التلاوة المترنمة، وعن تأمل المعاني المتدفقة التي يأخذ بعضها بحجز بعض. حين وصل إلى قصة موسى والعبد الصالح لم يملك نفسه من أن يرتفع صوته مرة ثانية:
- (وإذا قال موسى لفتاه : لا أبرحُ حتى أبلغَ مجمعَ البحرينِ أو أمضيَ حُقبا . فلما بلغَ مجمعَ بينِهما نسيا حوتَهما، فاتخذَ سبيلَه في البحر سَرَباً...).
- سمع حسان قرعاً خفيفاً يتكرر على باب زنزانته، فهم منه الطلب إليه بتخفيض صوته، تضايق من هذا الأمر، فاستمر كأن شيئاً لم يكن:

- (فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقَها. قال: أخرقتَها لِتُغرقَ أهلها، لقد جئتَ شيئاً إمرا).
- فتح الحارس الخفيف كوة الباب، وقال:

–يا شيخ، يا شيخ. لا ترفع صوتك ممنوع.

- تذكر حسان لأول مرة في السجن أنه ذو لحية، وأن هذا سبب من أسباب تسميته شيخاً فلم يستنكر. تابع التلاوة بصوت خفيض.
- منذ سنتين أي في صيف عام 978 كان حسان منكباً على دراسة كتاب (في ظلال القرآن) لاستنباط ما يتعلق بالبحث الذي سجله لرسالة الدكتوراه: (السورة في القرآن): مثل البحث عن وحدة السورة. شخصية السورة. بنيتها الفنية... فتصحيح العقيدة في هذه السورة (الكهف) يقرره بدؤها وختامها:
- في البدء: (الحمدُ لله الذي أنزلَ على عبده الكتابَ ولم يجعلْ له عِوَجاً.
- قيماً لِينذرَ بأساً شديداً من لدنهُ، ويبشرَ المؤمنين الذي يعملون الصالحاتِ أنَّ لهم أجراً حسناً.
- ماكثينَ فيه أبداً.
- ويُنذرَ الذين قالوا: اتخذَ اللهُ ولداً.
- مالهم به من عِلمٍ ولا لآبائهم كبرتْ كلمةً تخرجُ من أفواهِهم إن يقولوا إلا كذباً)
- وفي الختام:
- (قل: إنما أنا بشرٌ مثلُكم يُوحى إليَّ أنما إلهكُم إلهٌ واحدٌ، فمن كانَ يرجوُ لقاءَ ربّهِ، فليعملْ عملاً صالحاً ولا يُشركْ بِعبادةِ ربهِ أحداً).

- كان حسان في هذه اللحظات يعيش مع هذه المعاني، وكأنه يقرأ سطورها مطبوعة في صفحات ملموسة بين يديه، سره ذلك للتعويض عن حرمانه من الكتب والمطالعة، وهي هوايته المفضلة.
- طوال هذه الجولة القرآنية كان حسان في شغل عن هواجس التحقيق التي توارت إلى خلف . انسحبت إلى الطبقات السفلية من بحار الوعي وظلماته، على الرغم من قناعته بأن جلسة التحقيق الأولى غير كافية، بل هي غير ناجحة، فقد كانت قصيرة عاصفة، تعكس الشك بأقواله منذ البداية، وانتهت بغير قناعة لدى المحقق.
- تمدد على فراشه ينتهز فرصة هدوء الهواجس . يحاول الانتقال إلى ملكوت النوم العميق ذلك الفردوس الذي ضيعه منذ سنوات . اضطجع على جنبه الأيمن، ووضع رأسه على الوسادة، ومد ذراعه الأيمن تحت الوسادة، واستدعى مشهد قطيع الأغنام الذي بدأت غنماته تأوي إلى الحظيرة واحدة واحدة.
  - الليلة الرابعة
- مساء يوم السبت 7 حزيران 1980
- -1-
- بعد تناول العشاء بقليل نودي على حسان، وأدخل إلى غرفة تحقيق غير الغرفة السابقة . هذه الغرفة أوسع من تلك بنسبة مترين طولاً ومترين عرضاً في الأقل، وليس فيها غير منضدة حديدية وكرسيين، أحدهما بجوار المنضدة، وآخر

في الناحية المقابلة من الغرفة. وهي غرفة نظيفة، منخفضة السقف، شديدة الإضاءة مثل الغرفة السابقة.

- حين دخل حسان الغرفة لم يكن فيها أحد، فطلب إليه الجلوس والانتظار، ففعل. طال به الجلوس، وأخذت الهواجس تغزوه. صار يراجع أقواله في جلسة التحقيق السابقة استعداداً لإعادتها بغير تناقض ولا نقصان. ثم أخذ يتخيل شكل المحقق وموقفه، وتساءل: فيما إذا كان تغيير المكان يعني تغيير المحقق، وفيما إذا كان تغيير المحقق يعني تغيير اللهجة والمعاملة، وفيما إذا كان هذا التغيير وارداً، فهل يلجأ هو إلى تغيير لهجته أو بعض أقواله؟!
- لم يدر حسان كم مضى من الوقت. وإن استطال المدة –حين دخل عليه رجلان متوسطا الطول، أحدهما كهل أبيض البشرة أشقر الشعر، قد بدأ الشيب يرسم مؤشراته على شعره اللماع. أنفه الدقيق وخداه يتألقان بحمرة أخاذة، ربما كانت من آثار الكحول. وهو بلباس صيفي: قميص أبيض مخطط وبنطال فضي اللون نظيف جداً. وحذاء رشيق كرزي اللون مصقول حديثاً.
- الرجل الثاني: شاب حنطي اللون، أقرب إلى اللون الأسمر من الأبيض. شعره أسود يلبس معطفاً أسود اللون ذا خطوط لطيفة منقطة تخفف من قتامة اللون الأسود، وبنطاله ذو لون بني، ومع ذلك لا يضع ربطة على عنقه. منذ اللحظات الأولى تبين حسان أن الرجل الأنيق الأول هو المحقق، وأن

الثاني هو المساعد أو الكاتب.

- شرع الأول يتكلم، وهو نشيط يتحرك في أرجاء الغرفة، بينما جلس الثاني إلى المنضدة ممسكاً بالقلم مستعداً للكتابة.
- حينما دخل الرجلان وقف حسان احتراماً لهما، فحياه الأشقر، وأشار إليه بيده اليمنى إشارة لطيفة طالباً إليه الجلوس. ثم قال:

–منذ البداية نحب أن نهنئك على هدوء أعصابك وتصرفاتك الطبيعية جداً. أنت واثق من نفسك. وهذا كله يبشر بخير، ويسهل مهمتنا ومهمتك في وقت واحد. نحب أن نوضح لك أننا لا نريد إيذاءكم أبداً، أبداً. كل ما نريده منكم، هو الإجابة على بعض الأسئلة، ثم يكون بإمكانكم خلال ساعات أن تخرجوا أحراراً، تختارون أي بلد أوروبي فتسافرون إليه. كل هذا متوقف على أجوبتكم ما رأيك؟

–جيد.

–هل اعتقلت قبل هذه المرة.

–لا.

–هذه أول كذبة –قال حسان في نفسه– وما أصعب الكذب على النفس!

–أنت متأكد من كلامك؟

–نعم.

–اسمك وكنيتك؟

–حامد أبو الفضل.

–متأكد؟

–طبعاً.

–زوجتك؟

–مهدية.

-عدد أولادك؟

-سبعة.

-صبيان؟

-خمسة.

-بنات؟

-بنتان.

-أين هم الآن؟

-في حلب.

-متأكد؟!

-جداً.

-من يسكن معك هنا في الدارة؟

- بلع حسان ريقه، واسترخى قليلاً استعداداً للجواب، لأن هذا السؤال أسهل من الأسئلة السابقة التي جعلته يستوفز قليلاً في مقعده، بعد أن استرخى في بداية اللقاء، نتيجة عبارات الإطراء. إن حسان يمقت الإطراء، لكن مثل تلك العبارات في جو التحقيق والسجن لا بد أن يكون لها أثر ما. تابع حسان:

-أختي وأولادها الثلاثة.

-ما عملك؟

-مدرس لغة عربية.

-أين؟

-في حلب.

-منذ متى؟

-منذ عام 962.

-نعود إلى أسرتك كم عددها؟

-ثمانية!

–قلت قبل قليل سبعة!؟ (قال الكاتب وهو على المنضدة).

–سبعة بدون الزوجة.

–أسماؤهم وأعمارهم. (قال المحقق).

- لم يستطع حسان أن يبلع ريقه، ومع ذلك تابع وهو يدفع الكلمات دفعاً غير مفضوم:

–الأول بسام.

–الثاني؟

–بنت. اسمها فتحية.

–الثالث؟

–محمد.

- تلكأ هنا ليتذكر الاسم الرابع قبل أن يسأل عنه.

–لم تذكر الأعمار.

–الأول عمره...

- كاد يرتبك حسان من تذكر الأعمار لأنه ضعيف في الحساب، ولأن الأولاد الذين زعم أنهم أولاده في الحقيقة أبناء حميه الذين ادعى اسم أبيهم اسماً له، فتابع بعد مهلة حساب قائلاً:

–ثلاث وعشرين سنة.

–عمر البنت؟

–واحدة وعشرين.

–الثالث؟ الاسم والعمر؟

–محمد: تسع عشرة سنة.

–ألا تلاحظ أنك تتفطن لتذكر الأسماء والأعمار بصعوبة؟

–هل من السهل تذكر الأسماء والأعمار في الغربة وفي مثل هذا الجو؟

- لم يشأ المحقق أن يرد على هذا التعريض، بل مد

يده إلى جيب القميص الصيفي النظيف، استدار نحو حسان من آخر الغرفة، أخرج علبة السجائر، قال بلطف وهو يلوح بالسيجارة الطويلة:

–هل تدخن؟

–لا، وشكراً.

–دخنت سابقاً؟

–نعم، وتركت التدخين.

–ولم تعد إليه؟

–لم أعد إليه.

–أهنئك على هذه الإرادة.

–شكراً.

–اسم البنت الرابعة وعمرها؟

–ليس بنتاً إنه صبي. عبد الرحمن. عمره سبع عشرة سنة.

–هل هي مصادفة أن يكون الزمن بين كل ولد وآخر مقدار سنتين فقط!

–هذا هو الواقع.

–الولد الخامس وعمره؟

–عبد الله ست عشرة سنة.

–هاه بدأت تدقق! (قال المساعد).

–اسمح لي أن أقول لك: هذه الأجوبة غير مقنعة. دعنا من الأسرة. لماذا تركت عملك؟! قال المحقق.

- دفعة واحدة أحس حسان بشعورين متدافعين . الأول شعور بالراحة للتحول عن أسئلة أجوبتها صعبة لكذبها ولصعوبة ترتيبها منطقياً . الشعور الثاني: هو غصة الفراق للعمل الذي قضى فيه زهرة شبابه، فأحبه وتفوق فيه، ثم اضطر إلى تركه بلا سبب من مرض أو عجز، بل تركه في

أوج العطاء والتجاوب.

–تركت عملي نتيجة ضغوط الأوضاع المضطربة في البلد.

–وضح المقصود بالأوضاع المضطربة.

–أنا مدرس نزيه مستقيم في عملي. أرفض التزوير في العلامات والرشوة، كما أرفض السكوت على المخالفات والتجاوزات العلمية والمسلكية والتربوية، فعانيت في عملي من متاعب كثيرة.

–مثل ماذا؟

–النقل. التضييق. التحقيق والتفتيش.

–كل هذا لا يستدعي ترك العمل، ومغادرة البلاد.

–فعلاً ليس هذا وحده السبب.

–الأسباب الأخرى؟

–هناك أسباب أخرى تتعلق بالأوضاع العامة؟

- كأنما كان حسان ينتظر هذه الفرصة ليعرف الناس على قضيته وقضية شعبه لا سيما أولئك الذين اعتقلوه. تابع

–في بلدنا حاكم فرد مستبد.

–وحزب حاكم واحد.

–نعم. وهو حكم أقلية طائفية . ومجموعات انتهازية، وأجهزة قمع رهيبة.

–كل هذا معروف، وليس ابن ساعة أو سنة في بلدكم.

–الجديد أن الأوضاع تطورت إلى اغتيالات ومصادمات مسلحة واعتقالات واسعة وملاحقات.

–بين من ومن؟!

–بين السلطة والشعب.

–بالتحديد. كل الشعب والسلطة؟!

–من حيث الاستقطاب معظم الشعب ضد أركان السلطة.

–ما دام كل الشعب أو معظم الشعب ضد السلطة أو ضد أركان السلطة، فلماذا لا يسقط النظام؟!

–هذا هو السؤال الذي يحيرني، وأنا لا أفهم في السياسة.

- ضحك المحقق ضحكة قصيرة، وأردف قائلاً:

–هل نحن نتكلم في السياسة ! نحن نسألك عن سبب تركك العمل.

–في مثل هذا الجو خشيت على نفسي، فتركت العمل، ثم غادرت البلاد.

–وما علاقتك أنت حتى تخشى على نفسك؟

–أنا من هذا الشعب المضطهد.

–لا نريد كلاماً عاماً . نريد أمثلة حسية ملموسة على هذه الاضطهاد النازل بالشعب.

–الأمثلة كثيرة!

–هات.

- اقترب المحقق من حسان وفتح ذراعيه في الهواء يغريه بالكلام، وفي الوقت نفسه ألقى نظرة تفحص على ملامح حسان وحدق في عينيه قليلاً.
- شعر حسان بارتياح كبير لهذا الطلب، ووعد نفسه بالاسترسال في هذه المسألة، خلافاً لكل ما أوصى به نفسه من تقليل الكلام واختصار الأجوبة، وتجنب المزالق، لأن الكلام القليل خطؤه قليل، وهو لا يعلم على أي درجة من السلم يدوس:

–في الحقيقة هناك أنواع من الاضطهاد. بعضها بحق المدنيين، وبعضها بحق العسكريين . بعضها بحق الرجال، وأخرى بحق النساء والأطفال.

- في الجيش مثلاً وقعت حادثة معبرة في عام 1974 موجزها أن الطالب الضابط علي الزير من

بانياس كان يؤدي الخدمة العسكرية في الجبهة السورية، وهو متدين حريص على أداء الشعائر الإسلامية، من صوم وصلاة، وبعد عن المنكرات كالخمر والقمار، فلم يسلم من النقد والتوبيخ بسبب هذا السلوك الإسلامي، كان التوبيخ ينصب عليه من الضباط والمسؤولين المباشرين وغير المباشرين، فيحرمونه من الإجازات أو يسخرون من لحيته، أو يتحرشون به في وقت أدائه للصلوات، لدرجة أن بعضهم صب عليه الخمر، وجرَّ بنطاله إلى الأرض حتى تظهر عورته. كان يقاوم ذلك بالصبر والمداراة حتى طفح به الكيل، ولم يتمالك أن حمل سلاحه، وقتل المعتدين عليه، فحوكم محاكمة ميدانية، ونفذ فيه حكم الإعدام.

–هذا واحد.

–وفي عام 1977 كان هناك تمركز للجيش السوري على الحدود العراقية السورية حيث جرت واقعة أخرى شبيهة بالواقعة السابقة. مفادها أن الضابط الملازم الأول أحمد حمير من حوران قد طفح به الكيل أيضاً من اضطهاد رؤسائه الذين كانوا سابقاً مرؤوسيه، وهو أجدر منهم بالترقية لكفاءته، وخدماته الجليلة، وهم عناصر طفيلية لم يشفع لهم في الترقي غير انتسابهم إلى طائفة معينة . ومع ذلك كان الملازم الحمير يداري، ويصبر حتى زاد الضغط عليه، فاضطر للدفاع عن نفسه ودينه وكرامته، فقتل المعتدين عليه، وحاول النجاة بنفسه، لكنه لوحق بطائرة هيلكوبتر، وقتل.

–غيره؟

- لا شك أنك سمعتم بقتلهم اللواء محمد عمران في

طرابلس لبنان عام 1972، وباغتيالهم الضابط دريد المفتي المسرح أيضاً في لبنان عام 1970، وباختطافهم عام 1970 الضابط المسرح خليل مصطفى بريز (ضابط استخبارات الجولان قبل هزيمة حزيران عام 967). خطفوه من بيروت، وهو الآن في أعماق سجن المزة.

–هذا مؤلف كتاب (سقوط الجولان)؟

–نعم. وهو مؤلف كتاب (ملفات الجولان). والسجون الآن ملأى بالمعتقلين والمعتقلات من مختلف الأعمار والفئات الاجتماعية.

–في كل دولة سجون!

–سجناء بلا مذكرات توقيف وبلا محاكمات طوال سنوات.

–هل هناك تعذيب؟!

–أي تعذيب؟ هناك كثيرون توفوا تحت التعذيب.

–مثلاً؟

–المحاميان مصطفى كمال سماني وطارق حيدري من حلب، ماتا تحت التعذيب في سجون المخابرات عام 967.

–غيرهم؟

–المدرس حسن عصفور من حماة توفي تحت التعذيب. والطالب غزوان علواني، طلبته عناصر المخابرات في بيته، بعد اشتراكه في مشاجرة طلابية في ثانوية التجارة دفاعاً عن حرمة الصيام في شهر رمضان، فلما لم يستسلم للمخابرات قتلوه على باب بيته وأمام أهله جميعاً عام 1975.

–قلت هناك اضطهاد للنساء؟

–أحداث خطف النساء والبنات كثيرة، مثل بعض طالبات الجامعة ومعهد التمريض التابع لجامعة دمشق.

–بالتحديد!

–في عام 976 وبالضبط يوم الوقفة الذي يسبق العيد كانت

فتاة دمشقية شابة اسمها غفران أنيس خارجة من سوق الحميدية، بعد شرائها بعض أغراض العرس، لأنها مخطوبة وعلى وشك الزواج. وقفت على موقف الباص الذي يحملها إلى بيت أهلها، وإذا سيارة تاكسي تقف بجوارها، ويخطفها السائق بالقوة، ويهرب بها إلى حيث لا يعلم أحد. بعد البحث والتفتيش وجدت جثة مشوهة في ضواحي بلدة الزبداني خارج دمشق بعد الاعتداء عليها. والجاني من عناصر سرايا الدفاع أو أتباع مسؤول السرايا.

–أنت متأكد من هذه المعلومات؟

–وأنا متأكد من أنكم تعلمون بعض هذه المعلومات، وإن لم تكن بمثل هذه التفصيلات.

- ابتسم المحقق، كما ابتسم مساعده الذي هز رأسه هزة موافقة وغبطة.

–ما قصة مصطفى عبود وأحمد الفيصل وخضر شيشكلي ومحمود شقفة؟

- سرَّ حسان لصحة توقعة وسرعه تجاوب المحقق معه. تابع بحماسة:

–اثنان منهما من مدينة حلب. واثنان من مدينة حماة.

–تعرفهم؟

–اثنان منهما طبيبان والآخران من العلماء.

–قصتهم؟

–كلهم استشهدوا خلال السنوات الأخيرة. الدكتور خضر شيشكلي الحموي عمره ثمانون عاماً، وهو أحد زعماء (الكتلة الوطنية) وصاحب (بيت الأمة) أيام العمل ضد الاستعمار الفرنسي. خطفوه من بيته في شهر نيسان الماضي، حرقوه بصب الأسيد عليه في بيته، ثم نهبوا ما فيه من تحف أثرية.

- أما الطبيب مصطفى عبود الحلبي فقد كسرت

أضلاعه تحت التعذيب في سجن المخابرات بحلب، ومات من أثر التعذيب في صيف العام الماضي.

- والشيخ أحمد الفيصل تعرض للنفخ بالماء والهواء، حتى توفي تحت التعذيب، ألقي به أمام باب أهله في حلب.

–إذن الشيخ محمود شقفة هو الذي أغتيل في مسجده وبين طلابه؟

–نعم.

–هل تعرف أحداً منهم معرفة شخصية مباشرة؟

–أعرف الشيخ أحمد الفيصل رحمه الله تعالى.

–صفه لنا.

- اتجه المحقق نحو مساعده الكاتب يشير إليه للاهتمام بالحديث عن أحمد الفيصل. ثم اتجه نحو حسان مبتسماً يغريه بالحديث.

–الشيخ أحمد الفيصل من أهل مدينة الباب المجاورة لمدينة حلب، حيث ولد، درس حتى نال الشهادة الثانوية، وعمل في التعليم فترة غير قصيرة، لكن انسجاماً مع خطة السلطة بالسيطرة على توجيه التربية والتعليم وجهة الحزب الحاكم سرحته من التعليم، فانتقل الشيخ للعمل في منجرة والده يعمل ويأكل من كد يمينه وعرق جبينه، وهو يتابع تحصيل العلم الشرعي والثقافة العامة بنفسه ... عمل إماماً في أحد مساجد حلب يجمع الأطفال من حوله، ويعلم الكبار حتى تم اعتقاله وموته تحت التعذيب في شهر رمضان عام 979.

–عمره، شكله؟

- عمره خوالي خمس وثلاثين سنة . حنطي اللون ممتلئ الجسم، يميل إلى الطول، يلبس زي العلماء الريفيين، لا تفارق البسمة محياه . وبالمناسبة

هو من عشيرة (الشهابي) التي ينتمي إليها اللواء حكمت الشهابي رئيس الأركان العامة.

- توقف المحقق عن المسير، التفت إلى مساعده ينبهه إلى أهمية العبارات الأخيرة، فأجابه المساعد بإيماءة من رأسه وابتسامة قصيرة.

–هل أنت مسؤول عنه؟!

–لا. أنا لست مسؤولاً عن أحد غير نفسي.

–ألا تلاحظ أنك تتذكر المعلومات عن هؤلاء الأشخاص أكثر مما تذكرت عن أفراد أسرتك؟!

- ثم نظر إلى حسان نظرة، ملؤها الدهشة والإحراج، رافقها بوقفة في وسط الغرفة بين مساعده وبين حسان، ثم أخرج سيجارة، وأخذ يشعلها ببطء من (ولاعة) ذهبية اللون لطيفة وبراقة.
- لم يتلعثم حسان ولم يتأخر بالجواب على هذا السؤال:

–إذا كان هذا صحيحاً فالسبب أنك تساعدني في تذكر الأسماء والمعلومات وفي استكمالها. أليس كذلك؟!

- لم يتمالكا المحقق ومساعده من أن ينطلقا بضحكة عالية، ترددت أصداؤها في أرجاء الغرفة الصغيرة المنخفضة السقف، لدرجة استرعت انتباه بعض الحراس العابرين أمام الباب، فنظروا نظرة عابرة من خلال النافذة المنخفضة، ثم تابعوا السير!
- اشترك حسان في موجة الضحك، مظهراً رضاه عن ذلك.
- في هذه اللحظة قرع باب الغرفة. استأذن الطارق بالدخول. ثم دخل الغرفة وهو يحمل كؤوس

الشاي فوزعها على المحقق والمساعد وحسان،
الذي لم يتردد من استلام كأسه، لكنه فكر
قليلاً قبل الشرب:

–أنا آكل من طعام السجن، وأشرب من مائه، فلم التردد في شرب الشاي؟

- قال المحقق:

–هل تحب الشاي؟

–لا، ويمكنني الاستغناء عنها.

- كان حسان صادقاً في رأيه بالشاي، وكان مسروراً للحديث عن مثل هذه الأمور، لكنه أوصى نفسه مرة أخرى بالحذر، وبالاستعداد لأسئلة مفاجئة.
- من خلال الانشغال بشرب الشاي أتيح لحسان أن يتأمل الساقي الذي جاء بالكؤوس وهو نفسه الحارس الذي نقله إلى غرفة التحقيق، وهو غير الحارس الذي نقله في المرة الأولى، وإن كانا برتبة عسكرية واحدة. الأول قصير القامة، نحيل الجسم، دقيق الملامح، رشيق الحركات، واضح الصوت والنبرات، واثق من تصرفاته مع السجناء والرؤساء. أما الثاني فهو طويل ممتلئ الجسم بطيء الحركة، حنطي اللون، قليل الكلام، تنم تصرفاته وكلماته عن نفس فطرية و أصل ريفي. وهو على العموم شبيه بالشيخ أحمد الفيصل إلا أن الحارس بلباس عسكري والشيخ بلباس مدني، كما خطر في بال حسان ساعة دخوله الغرفة.
- بعد انصراف الحارس بكؤوس الشاي الفارغة قال

المحقق:

-نعود إلى السؤال الذي بقي بلا جواب.

-أي سؤال؟!

- **تحفز حسان استعداداً وإشفاقاً.**

-لماذا تركت عملك؟!

-قلت لكم: تركت عملي نتيجة الأوضاع المضطربة في البلد.

-وما علاقتك بهذا الاضطراب؟

-مواطن غير آمن على نفسه نتيجة ما يرى ويسمع ما يحدث حوله.

-بصراحة كل هذا لا يكفي إذا لم تكن لك علاقة ما.

-تسمح لي أن أروي لك نكتة سورية.

-تفضل.

-كان (غوار الطوشة) يعمل موظفاً على الحدود السورية اللبنانية، ومر به المواطن (حسني البرظان) يريد الذهاب إلى لبنان، فقال له غوار : ليش بدك تغادر البلاد؟ أجابه حسني : أخاف أن يقصوا لي أذني . قال غوار : يقصون أذنك ليش؟ قال حسني : إنهم ينفذون قراراً بقص أذن لمن عنده ثلاث آذان. قال غوار: أنت ما عندك غير أذنين اثنين فما يهمك القرار ! قال حسني المشكلة أنهم يقصون الأذن قبل عد الآذان!!

- **ضحك المحقق ومساعده ضحكة طويلة، وشاركهما حسان في الضحك، وهو يتأمل وقع النكتة على قناعة المحقق الذي قال بعد أن اختصر ضحكته:**

-يعني أنك تصر على عدم تسهيل مهمتك ومهمتنا!

-بالعكس!

-على كل حال نكتفي اليوم بهذا اللقاء اللطيف.

- **قال المحقق هذه العبارات، وهو ينظر إلى حسان نظرات ذات مغزى، بينما مد المساعد يده إلى**

جانب المنضدة حيث يوجد زر كهربائي، ثم ضغط عليه قليلاً. بعد ذلك انفتح الباب، ودخل الحارس الذي جاء بكؤوس الشاي، فألقى التحية العسكرية، وتلقى المهمة بإعادة حسان إلى زنزانته.

- الحارس يمشي أولاً، وحسان يتبعه. في بعض المنعطفات يقف الحارس، ويطلب من حسان أن يتوقف، يطلب منه أيضاً أن يتجه ناحية الجدار أو الزاوية مع عدم النظر إلى العابرين من سجناء وموظفين.
- حين وصل حسان والحارس إلى المدخل الداخلي للزنزانات كانت هناك حركة لنقل أحد السجناء إلى التحقيق، فطلب إلى حسان الدخول إلى ردهة أمام (دورة المياه) حيث يدير ظهره، وينتظر دون تلصص، مع ذلك خمن حسان أن السجين المنقول إلى التحقيق هذه المرة هو ولده مجاهد. لم يكن لهذا التخمين أثره السيء، لأن حسان عاد بمشاعر يغلب عليها نوع من الراحة النفسية والمرح.
- حالما دخل حسان زنزانته، وأغلق من خلفه الباب. أخذ يستعيد شريط التحقيق الذي حضره قبل قليل.

–على العموم كان الجو سهلا مرحاً، لكن النهاية ليست كذلك. وإذا كانت النهاية هي الهدف الأول من التحقيق، فما فائدة السهولة والمرح؟ الفائدة من السهولة والمرح أنني شرحت قضيتي وقضية بلدي، وصرفت النظر عن التحقيق في تركي العمل وخروجي من البلد . لكن إلى متى أستطيع المداورة

والمناورة؟ ! ثم هل كان هذا الجو من اختراعي أنا أم كان وسيلة أرادوا منها الوصول إلى مثل المعلومات التي أعطيتهم إياها والمعلومات التي أعطيتهم إياها والمعلومات التي حجبتها عنهم؟!

- إن اهتمامهم بشؤون بلدي وبالأوضاع العامة فيه مؤشر حسن، وهو مدخل مناسب لإزالة سوء الفهم.
- أحمد الله تعالى أن وفقني في الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالأوضاع العامة، وكان بودي الاسترسال أكثر فأكثر، ولو أرادوا لكتبت لهم مجلدات عن مئات المعتقلين والشهداء والمشردين والمنكوبين، لكن إشارة المحقق الذكية أحرجتني حين قال: أنت تتذكر المعلومات عن هؤلاء الأشخاص أكثر مما تذكرت عن أفراد أسرتك.
- كان حسان يتمشى في زنزانته ذهاباً وإياباً محاولاً تقويم جلسة التحقيق، ولما فطن لصلاة العشاء بسط البطانية نحو القبلة، وشرع يصلي، وهو لا يكاد يستطيع استبعاد الخواطر المتعلقة بالتحقيق الماضي، وبما يحمله المستقبل من تطورات.
- بعد فراغ حسان من صلاته وتلاوته أدعيته وأوراده والاستعداد للنوم شرع يعيد ترتيب فراشه العسكري الاسفنجي الضيق، ثم تمدد عليه يريد الاستغراق في نوم عميق، وهو لا يحس بأدنى رغبة بالنوم، على الرغم من مضي فترة غير قصيرة على منتصف الليل، أدرك ذلك من انطفاء الأضواء المنعكسة على الجدار الخلفي

الخارجي للزنزانة، وهي أضواء المكاتب الكائنة فوق مبنى الزنزانات، التي غالباً ما ينتهي عملها في منتصف الليل.

–ما أسباب هذا الأرق؟ أهي أصداء جلسة التحقيق، أم هواجس المستقبل، أم ضيق هذا الفراش، أم رائحته المؤلفة من عفونة التقادم ومطاط الاسفنج، أم الشوق إلى الأهل أو المطالعة والحرية، أم كل ذلك؟

- مد حسان زراعه الأيسر وضرب بقبضته أسفل الجدار المجاور، فرد ساكن الزنزانة بضربة أخرى.

–شكراً.

- عاد فدق دقتين على أسفل الجدار، فأجابه جاره بدقتين أخريين.

–إذن أنت بخير.

- حينما تهيأ حسان للدق على الجدار مرة ثالثة شعر بخطوات الحارس تقترب من زنزانته، فتوقف عن المحاولة، وهو من طبعه ألا يثير المشكلات بلا سبب.

–لننتقل إلى موضوع آخر.

- شعر أن اضطجاعه على الجانب الأيسر غير مريح، وهو لا يستحسن النوم، على هذا الجانب. تحول إلى الجانب الأيمن. بسط ذراعيه الأيمن تحت الوسادة. استدعى النوم لكن الذي استجاب لطلبه شيء آخر. إنها الذكريات.

–أهلاً وسهلاً. إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون!

- إن جلسة التحقيق هذا اليوم صادفت قبولاً عميقاً في نفس حسان، فهي فضلاً عن إتاحتها المجال للحديث عن القضية التي ينافح عنها، أتاحت له

المجال أيضاً لمد جسور الذكرى إلى إخوانه وأصدقائه الذين تفصل بينه وبينهم المسافات المكانية والزمنية، كما تحول بينهم الظروف الصعبة، فهم بين شهيد أو سجين أو متوار عن الأنظار أو شريد، أو منكوب.

–ليتهم سألوني عن صبري المدرس!

- صبري هذا زميل من زملاء حسان العديدين، وهو صديقه وجاره أيضاً. عمره أكبر من عمر حسان بسنوات قليلة، لكن حجمه أضأل من حيث الطول والوزن. أبيض البشرة، شعره خرنوبي اللون ذو جعدة يسيرة. له شاربان خفيفان لطيفان. سريع الحركة في المشي وفي العمل، وسريع الغضب أيضاً إذا استغضب، وهو سريع الرضى والعفو، يعمل مدرساً لمادة التربية الإسلامية. اضطر بعد تخرجه من الجامعة أن يعمل في إحدى دول الخليج ليسدد ديونه وليجني بعض المال يشتري به مسكناً لأسرته التي ازداد عدد أفرادها باستمرار.
- إنه يعيل أمه وأخوته من جهة، ويعيل أولاده السبعة من جهة ثانية.

–أستاذ صبري. أنا أتذكر أول لقاء تعرفت به عليك.

–ما هو؟!

–في صيف عام 968 زرتني وقت الأصيل في بيتي الكائن في حي المسبح البلدي، والشمس تودعنا بأشعتها الذهبية الناعمة.

–هل تعتبر ذلك الملحق الإضافي بيتاً يسكن؟!

–نحن نتحدث عن اللقاء لا عن مكان اللقاء.

–أنا أعرفك من قبل ذلك بزمن بعيد. من كتابتك في الصحف

والمجلات.

–وأنا سمعت عنك قبل أن نلتقي. ولكن ما التقينا إلا تلك اللحظة.

–أرواحنا ملتقية من قبل.

–لا شك لا شك

–وها نحن أصبحنا جارين في حارة واحدة منذ عام 975.

–إنني سعيد جداً بمعرفتك وبجيرتك وبتعليمك قيادة السيارة؟

–أما هذه فلم تتم بعد.

–يعني هل تريد أن اشتري لك سيارة أيضاً.

–فاقد الشيء لا يعطيه.

–إذا كان جارك بخير فأنت بخير.

–لا شك أعني أنت ما عندك سيارة، فمن أين تشتري لي سيارة؟

–وهل صدقت أنني سأشتريها؟!

–أنت من الذين إذا قالوا فعلوا.

–إلا في شؤون المال يا ابن الحلال.

- ضحك حسان حين وصل إلى هذا المقطع من الحوار، وحينما ضحك كان مغمض العينين، تحمله الأحلام بأجنحتها إلى سجن المخابرات العسكرية في ثكنة هنانو بحلب. إن حسان يعرف هذا السجن، لكنه يدخله هذه المرة بوساطة أحد طلابه الذي يشغل منصباً هاماً في المخابرات العسكرية. ها هو يدخل من الباب الخارجي للثكنة ثم ينتقل إلى الأوسط فالباب الداخلي الذي هو باب مموه في وسط الجدار لا يكاد يلحظه إلا من دخل فيه من قبل.

- **ها هو الآن يفتح باب الزنزانة الواقعة في آخر صف الزنزانات اليساري، إذا هي نفس الزنزانة التي سجن فيها صيف عام** 967 **هو وأربعة من زملائه المدرسين.**

خطوات في الليل(3)



محمد الحسناوي*
shasansh@hotmail.com

يفاجأ حسان بأن الزنزانة الصغيرة التي لا تتسع إلا لخمسة سجناء في حالة النوم أو الاسترخاء... تحتوي الآن على ما يزيد عن عشرين سجيناً فيهم المسن والكهل والشاب والفتى.

كان نصف السجناء جالسين القرفصاء للراحة ونصفهم الآخر واقفاً على قدميه، لكي يتسع المكان للجالسين، على حين كان هناك سجين واحد متمدداً أمام الباب مباشرة حيث يوجد منخفض ضيق كالقبر، مخصص لوضع الأحذية. لم ينهض هذا السجين النائم فوق الأحذية حين نهض السجناء جميعاً لاستقبال حسان الذي عرفه بعضهم، ومنهم الأستاذ صبري، وجاره أبو سعيد. اكتشف حسان بعد قليل أن هذا النائم هو طالب من طلابه في ثانوية الكواكبي قد كسر عموده الفقري تحت التعذيب، وهو في حالة غيبوبة.

رحب سجناء الزنزانة بحسان. حاول أن يصافحهم واحداً واحداً، لكنهم أبوا إلا أن يعانقوه تعبيراً عن سرورهم البالغ بحضوره، لم تكن الزنزانة تتسع لهذا العناق، فاضطر إلى التسليم عليهم خارج الزنزانة بوجود الحارس العسكري وموافقته، لأن حسان يحمل

كتاب توصية من مسؤول كبير. ثم سمح له بأن ينفرد بالأستاذ صبري، فيخرجه من الزنزانة، ويتمشى معه في باحة السجن الداخلية الصغيرة، حيث يوجد ممر من مادة الإسمنت على شكل مستطيل طويل تحيط به من الجانبين أزهار صيفية قصيرة السوق، أوراقها شديدة الخضرة، وتيجانها فاقعة اللون من أصفر وبرتقالي.

لم يكن هذا المنظر الخلاب جديداً على حسان فقد استمتع به صيف عام 967 حين سمح له ولإخوانه السجناء العشرة بالخروج إلى التنفس –هكذا يسمونه– والتمشي فرادى في هذه الحديقة لأول مرة ساعة العصر بعد اليوم السابع من أيام السجن.

– أعرف أن الحرية غالية وضرورية، وأعرف أن الطبيعة جميلة وممتعة، لكن لم أكن أعلم أن الحرية بهذه النكهة العذبة، وأن الأزهار والأطيار والهواء الطلق بكل هذه الروعة والسحر. أحس كأن كل مسام من مسام جسمي يتنفس بعمق، ويغتسل بهذا الفيض الغامر من الحرية والجمال. إن كل دقيقة تمر أجمل مما سبقها. لكنها دقائق معدودة نعود بعدها إلى الزنزانة.

هذه المشاعر هي المشاعر التي أحس بها حسان عام 967، ويتذكرها في لقاء الحلم مع زميله الأستاذ صبري ثانية كأنها هي هي لم تتغير ولم تتبدل، على الرغم من أنه جاءه زائراً وليس سجيناً مثله.

– كيف حالك يا أخي يا أبا عمر!

– لا تسألني عن حالي. ولكن خبرني عن حالك وحال عابد بعد اعتقالي.

– تركنا البيت مباشرة خشية أن ينتزعوا منك شيئاً عنا.

– فشروا. لم يستطيعوا أن يحصلوا على ذرة من غبار حذائي.

رفع صبري قدمه وساقه اليمنى عن الأرض، وأشار إليهما بيديه إشارة مباشرة مثل لاعب كرة قدم يضرب الكرة إلى الأفق الأعلى من سماء الملعب.

– ولدك بخير. يسلم عليك ويدعو لك ولإخوانك بالفرج العاجل.

– بشرك الله بالخير. كان بالي مشغولاً عليه جداً. لم أسمع عنه شيئاً منذ اعتقلت. سمعت باعتقال بشير وباستشهاد أيمن. الله يرحمك يا أيمن. يا حبيبي يا أيمن. لم تخيب ظني فيك.

استغرق الأستاذ صبري بالبكاء. لم يكن حسان يريد أن يذكر صبري بجراحه: استشهاد ولده أيمن، واعتقال ولده بشير.كان يريد أن يطمئنه عن عمر الذي غادر البلاد وعاد إليها ثم غادرها وهو بسلام خارج الحدود.

إذا كان للجراح أنواع، فجراح الأستاذ صبري من الجراح الغائرة، فهو معتقل منذ شهر نيسان، وابنه بشير الطالب في الصف الأول الثانوي اعتقل بعد بقليل أي قبل دخوله الامتحان، وصهره اعتقل مرتين وما زال في المعتقل، وراتب كل منهما مقطوع وكل منهما يعيل ذويه لا سيما والد الصهر وأمه على قيد الحياة، ولا مورد لهما غير هذا الراتب الشهري.

– وصلتني قصة استشهاده بتفاصيلها.

ابنه أيمن في الثامنة عشرة من عمره ترك

الدراسة ليعمل فيما يعين والده على سد نفقات الأسر التي يعيلها. كان شاباً وسيماً هادئاً باسماً جدياً. قليل الكلام عاكفاً على الجد والعمل. روي عنه أنه افتدى عدداً من زملاء العمل الملاحقين بنفسه، وتعرض لمخاطر جمة في أحداث حلب، ولم يكن يتأخر عن خدمة المطلوبين والمتوارين عن الأنظار رحمة بهم وتقرباً إلى الله تعالى بمساعدتهم، وحين حوصر عدد من المجاهدين في بيت من بيوت حي باب النصر بحلب كان معهم يقوم على خدمتهم، وأسهم في الدفاع عنهم وعن نفسه، حتى قال المواطنون: إنه صاحب الرصاصة الأولى والأخيرة، في معركة العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك.

– لم يؤلمني استشهاده بقدر ما آلمني تصرف المجرمين به. ألقوه من على سطح البناء الشاهق وما زالت فيه بقية من الروح.

– رحمه الله وأدخله فسيح جناته.

– أنا فخور به، وأرجو أن يثبتني الله تعالى بفضله ويتغمده برحمته.

– هل تذكر الحلم الذي رآه منذ سنتين؟

– كان يغط في نومه، وكنا نحاول أن نقص شعره الطويل كالخنافس، إذا هو يستيقظ ضاحكاً، فظننا أنه اكتشف محاولتنا، لكنه فاجأنا بأنه كان في حلم رأى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

– صلى الله عليه وسلم.

– وقلده السيف. وقال له: قم وجاهد يا أيمن!

– هل تعلم أن هذه القصة قد طبقت الآفاق.

– القضية بخير إذاً.

تهللت أسارير الأستاذ صبري، وأشرق وجهه الجميل بنور خاطف ما لبث أن غاب، وحلت محله سحابة حزن جديد.

– البيت يا رجل شبه محتل. المجرمون لا يكفون عن مداهمته واحتلاله بين حين وآخر. والعيال لا يستطيعون الحركة.

– الله تعالى لا يغفل عنهم ولا ينساهم. أهل الحارة كلهم يسألون عنك ويسلمون عليك ويقومون بواجب الأسرة.

– أنا مدين لأهل الحارة بالشيء الكثير.

– بل هم مدينون لك بتربية أطفالهم وأولادهم وبدروسك العلمية وبخدماتك الاجتماعية.

– هذا نحتسبه عند الله.

– هذا عهدي فيك.

– يبدو أنك نسيت السمان أبا سعيد.

– سمان الحارة. كيف أنساه يا رجل؟!

– لم تسلم عليه بحرارة. إنه معنا في الزنزانة.

– الله أكبر كيف لم أنتبه؟ واخجلتا! سوف أعتذر له حين الوداع.

– وتذكر أن ابنه سعيد سجين معنا.

– الله أكبر كيف لم أعرفهما؟

– تغيرت ملامحهما من شدة التعذيب.

– ما سبب اعتقالهما؟ إنهما من الناس البسطاء العاديين. لا يعرفان سبب اعتقالهما ولا نحن نعرف.

– فلماذا التعذيب إذن..؟!

– وهل هذا سؤال يسأل في هذه الأيام؟!

– عشنا وشفنا!

عاد البريق إلى وجه الأستاذ صبري، ومال برأسه على معصم يده اليمنى، ومسح حبات الدموع المتبقية في أجفانه ومحجريها. انتبه حسان إلى أن الأستاذ صبري قد اتسخت ثيابه، وأن حذاءه بلا رباط، وأن بنطاله متهدل بلا حزام، وهو الحريص على الحد الأدنى من النظافة والترتيب والأناقة الضرورية.

– خبرني كيف غامرت وجئت إلى زيارتنا وأنت مطلوب بشدة أكثر منا.

– خبرني أنت عن أحوال السمان أبي سعيد.

– ذكرتني. هذا الرجل وابنه احتملا صنوف العذاب من جوع وعطش وضرب بالسياط المطاطية (المجدولة) بالأسلاك، والتغطيس بالماء الحامي، والوضع في الدولاب، وأبو سعيد ممتلئ الجسم ناصح كما تعلم، وكاد يلفظ أنفاسه أكثر من مرة.

– ما السبب؟!

– تأكد أنه لا يوجد سبب حقيقي. فأنا أعرف الناس بهما.

وأشار الأستاذ صبري بكلتا يديه، وقد ضم كلاً من السبابتين والإبهامين في كلتا يديه – كعادته حين يريد التأكيد.

– هل يحدث التعذيب لمجرد التعذيب؟

– شيء كثير منه!

– ألم تخمن أي سبب؟

– إن كان فهو التشابه بالأسماء.

– كم اتسعت الدائرة في الاعتقالات حتى اختلطت الأسماء؟!

– أكثر مما تتصور ومما يخطر على بالك.

– يا لطيف.!

تألق وجه الأستاذ صبري مرة أخرى، وضحك، وتوقف عن المشي في وسط الممر. وقف تجاه حسان، كأنه يريد أن يدلي بشيء مهم خطر له في تلك اللحظة.

– أحكي لك نكتة رائعة؟

– هات.

كان يفتش حسان عن وسيلة يسري بها عن نفس صديقه صبري، ويخفف عنه بعض ما هو فيه من سجن وغم، ولما انفرجت أسارير صبري سرّ هو نفسه لهذه البادرة.

– النكتة رواها لنا جارنا أبو سعيد الزمان. ونحن نتذكرها بين الحين والآخر، فنستعيدها ونغرق في الضحك.

– في هذا السجن تضحكون؟!

– الله رحيم بنا يا رجل. ألسنا مؤمنين بالقضاء والقدر؟

– هنيئاً لكم. فرج الله عنكم.

– يقول سعيد إنك استلمت رسائلك منه عصر اليوم الذي سبق مداهمة المخابرات لبيتك، على أمل اعتقالك، فأخبرك أبو سعيد بأن هناك أشخاصاً غرباء سألوا عنك، واستفسر منك أبو سعيد عن السبب، فأجبته بكل هدوء: إنهم يريدون أن يعينوني وزيراً. فصدق كلامك هو وابنه سعيد، لأنهم لم يعهدوا منك إلا الصدق وعدم المزاح. وفي اليوم التالي فهموا أن الذين سألوا عنك يريدون اعتقالك لا تعيينك وزيراً.

غرق حسان وصبري من الضحك الشديد، لدرجة استدعت انتباه الحرس المنتشرين في الباحة. وأشار

أحدهم إلى ساعته يريد أن يلفت نظر حسان إلى انتهاء مدة الزيارة. هز حسان رأسه وأشار بجمع يده إشارة استمهال.

– إذن صدق كلامي؟!

– فعلاً.

– يا ترى هل يمكن أن تكون هذه الحادثة هي سبب اعتقاله وتعذيبه؟

– ما أدري. إنهم لم يذكروها له.

– تصور مثل هذا الإنسان العادي يعتقلونه، ويعذبونه هو وولده معه!

– كيف أتصور وقد رأيت وسمعت ما هو أعجب وأغرب؟!

شرع الأستاذ صبري يروي مشاهداته، بينما انصرف خيال حسان إلى أيام اعتقاله في هذا المكان عام 967.

تذكر حسان زيارة زوجته سعاد له بعد مضي أسبوع من اعتقاله. كانت الزائرة الأولى من ذوي المعتقلين آنذاك وقفت هي والطفل ولده مجاهد وراء القضبان الحديدية التي تفصل باحة السجن الداخلية عن الممر الموصل إليها، ووقف هو من الطرف الآخر على بعد أربعة أمتار وحارس من الشرطة العسكرية برتبة عريف يراقب حديثهما وحركاتهما.

كانت زوجته بلباسها المحتشم الأسود المعتاد. تتكلم وتتصرف بهدوء واتزان واضحين. كان هو حليق الشعر حتى درجة الصفر، يلبس (شحاطة) بلاستيك بنطلونه مستعار من أحد زملاء السجن، لأن بنطاله الخاص قد تمزق بشق طويل. كان هذا البنطال فضفاضاً وأطول من قامته، وهو بلا حزام يمسكه جيداً من

وسطه.

نادى حسان ولده مجاهد الذي يبلغ من العمر أربع سنوات. كان يتردد في المجيء إلى والده، فسمح له الحارس بالالتفاف حول القضبان الحديدية للاقتراب من والده، فعانقه عناقاً طويلاً، وسأله عن أحواله وعن أحوال زملائه في روضة الأطفال.

– كيف حالك يا أم مجاهد؟

– بألف خير. اطمئن، وطمئن إخوانك زوجاتهم وأولادهم وأهلهم كلهم بخير. حملوني تحياتهم، وسوف يسمح لهم بزيارتهم قريباً.

– نحن بخير والحمد لله.

– نحن فخورون بكم. أنتم شرف لهذا البلد. لم يعتقلوكم إلا لأنكم شرفاء، مخلصون ترفضون الظلم والفساد.

– كيف عملت بشأن الراتب؟

– ولا يهمك تذكر أنني التحقت بمستشفى دار التوليد قبل اعتقالك بأيام، وأنا الآن مواظبة على عملي بكل ارتياح.

– كيف حال أهلي؟!

– كلهم بخير. ومثلما طلبت من أمي اتصلت هاتفياً بوالدك وأخبرته باعتقالك، وهو الآن معي، لم يسمحوا له بالدخول، لأنني لم أستطع الحصول له على أذن بزيارتك انظر لقد أرسل لك هدايا. قال: إنك تحب هذا الفستق السوداني المجبول بالسكر.

– سلمي لي عليه. واطلبي منه الدعاء لي ولإخواني المعتقلين.

حتى هذه اللحظة كان حسان يضبط أعصابه،

ويتمالك من أن تظهر عليه أي علامة ضعف، لكن الحديث عن أهله ذكره بأمه وأبيه واخوته وأخواته وبمرابع طفولته وصباه في بلدته جسر الشغور، كل ذلك استجاش مشاعره، وأحس بالدموع تتسابق في مجاري عينيه تريد الانسيام، فكبح جماحها وتشاغل بمداعبه ولده البكر. وأخذ يتفحص ملابسه الصيفية: بنطال وردي اللون ذو (شيالات) على الكتفين وأزرار بيضاء. كنزة فضية اللون ذات أكمام طويلة على صدرها وردة طفلية مبسطة الشكل. الأوراق تشغل مساحة كبيرة من مساحة الصدر. ورقة حمراء وأخرى صفراء وثالثة بيضاء ورابعة برتقالية، تتوسط هذه الورقات دائرة بنفسجية شفافة. الألوان كلها زاهية مشرقة.

في اللحظة نفسها كانت سعاد تحس بمشاعر حسان مضافة إلى مشاعرها هي الأنثى منذ دخولها هذا السجن النائي الضخم ورؤيتها زوجها على غير عادته: شعر حليق. ثياب متسخة غير منسجمة. حذاء بلا أربطة. فاصل من قضبان حديدية ورقيب غريب عليهما. ومسافة أمتار لا يسمح بتجاوزها. احتمالات غامضة حول مدة السجن، حول مصير السجناء. بل إنها كتمت في صدرها حزناً عميقاً وخبراً تداولته زوجات المعتقلين، عن إحداهن حين استأذنت المخابرات بزيارة زوجها، فقال لها الملازم أول ممدوح، لا تنتظروا أزواجكم. ابحثوا عن أزواج آخرين غيرهم!

تذكرت سعاد كل هذه المعاني، وكادت تنفجر بالبكاء، لكنها استدركت نفسها وقالت:

– طمئن الأستاذ فاروق بأن زوجته قد ولدت

بالسلامة، ورزقت غلاماً ذكراً.

هذه المحاولة لتحويل مجرى المشاعر بتغيير مجرى الحديث لم تكن موفقة، بل كانت تراكماً جديداً يضغط على مشاعر الزوجين. فقد تذكر كل منهما أن الأستاذ فاروق الذي اعتقل مع حسان في ليلة واحدة، قد حصل اعتقاله بعد منتصف الليل، وهو في الشارع يبحث عن قابلة لتوليد زوجته التي أخذها المخاض، فلم تسمح له عناصر المخابرات بتأمين القابلة قبل نقله إلى السجن.

كما أنهم داهموا البيت بمجموعة أخرى قلبت أثاثه والمكتبة والفرش رأساً على عقب. والمرأة تتلوى وتتقلب تحت وطأة المخاض. اجتمع عليها ألم المخاض، وفقد الزوج وحضور رجال غرباء بأسلحة وبتصرفات وألفاظ نابية قذرة.

– إذن ولدت بالسلامة؟ الحمد لله. طمئنيها عن زوجها، فهو بخير، ويسلم عليها وعلى أولاده وعلى أمه وأبيه واخوته. كل الأخوة الذين معي بخير، ويسلمون على زوجاتهم وأهلهم وأولادهم وأقاربهم.

استطاع الزوجان تجاوز الأزمة الانفعالية وسيطرا على مشاعرهما، وشرعا يتحدثان في تأمين بعض الحاجات مثل لباس النوم ومنشفة الحمام حتى انتهى الوقت المحدد للقاء، فقال حسان:

– مع السلامة. مع السلامة.

فوجئ حسان أنه كان شارداً عن حديث صديقه الأستاذ صبري. والذي جعله يفطن إلى ذلك أن الأستاذ صبري دهش من هذه العبارات (مع السلامة) برغم أن حديثه لم ينته بعد. قال صبري:

– إذا كان وقتك ضيقاً.

– لا مؤاخذة كنت شارد الذهن.

– هذه عادتك. لن ألومك.

– هل تأمرني بخدمة. هل توصيني بشيء؟

– أحيطك علماً بأن الأخبار المتسربة عن أركان السلطة أنني سوف أنقل تقريباً إلى سجن تدمر. ويبدو أن هذا التدبير سوف يشمل الكثيرين من أمثالي.

– صل على النبي يا رجل.

– اللهم صل وسلم وبارك عليه. ومع ذلك الخبر مؤكد.

– وإن يكن. فالله قادر على أن يغير الأحوال.

– لا راد لمشيئة الله تعالى. ومن مشيئته أيضاً أنه جعل سنناً في الكون والبشر، ورتب النتائج على الأسباب. وأمرنا أن نأخذ بالأسباب.

– هل هناك أخذ بالأسباب أكثر من حمل الناس السلاح لتغيير الواقع؟

– صحيح. وهذا مؤشر خير. ولكن هل أحكمت المسألة؟ أرجو ذلك

– توكل على الله.

– توكلنا على الله. كل الأخبار مرضية. نرجو الله عز وجل أن يتمم بالخير.

مد الصديقان كل منهما ذراعيه للعناق فالوداع. شم حسان من عناق صديقه رائحة لم يعهدها فيه من قبل. إنها رائحة يتذكرها جيداً. رائحة العفونة المؤتلفة مع مطاط الاسفنج. خجل من أن يعجل بفك العناق بسرعة، لكنه اكتشف أخيراً أنه لا يعانق

الأستاذ صبري، بل يعانق وسادة الاسفنج.

-2-

مساء يوم السبت دعي مجاهد إلى التحقيق للمرة الثانية بصحبة الرقيب الأول الطويل. أغلقت الكوة الحديدية في أبواب الزنزانات تمهيداً لمروره. قرر مجاهد هذه المرة إلا يستجيب لطلباته بالهرولة والاستعجال، فيصل إلى غرفة التحقيق مرتبكاً منقطع الأنفاس:

- لو أنني تمهلت لأضطر هو أيضاً إلى التمهل لأنه يمشي أمامي. هكذا أستطيع أن أنظر يمنة ويسرة.

اكتشف مجاهد خارج مبنى الزنزانات فسحة على الجهة اليمنى تنتهي إلى درج يؤدي إلى خارج المبنى العام. قال في نفسه:

- إنه مكان صالح للهرب. هل أستطيع ذلك؟! وإذا هربت فماذا يكون مصير هذا المرافق الطويل ذي الكرش الضخمة المتهدلة التي لا يحيط بقطرها زنار.

دخل مجاهد غرفة التحقيق الصغيرة التي دخلها البارحة على يسار الداخل إلى المبنى الآخر. لم يكن المحقق الأشقر وحده. كان معه محقق شاب آخر أسمر البشرة. قام المحقق الأشقر عن المنضدة. طلب من مساعده الأسمر أن يقعد مكانه وأن يستعد للكتابة. بعد أن استقر السجين على الكرسي مباشرة قطب المحقق الأشقر جبينه وزمجر قائلاً له:

- أنت كذبت علينا!

- أنا لم أكذب أبداً.

- بل كذبت. لا تنكر!

- ...كيف؟ لم أفهم؟

قال المحقق الأشقر ملوحاً بيده في وجه مجاهد.

– المرأة التي معكم في البيت من هي؟ إنها زوجة خالك وليست والدتك.

– أنا أعرف والدتي. وأصر على أنها والداتي.

قال المحقق الأسمر:

– طيب. كيف تفسر التشابه بين اسم والدة والدك ووالدة امرأته؟!

قال المحقق الأشقر:

– ما هو اسم والدها أي والدة امرأة خالك إذن؟!

قال مجاهد على الفور:

– هل تعرف أنت اسم والدة امرأة خالك؟

ضحك المحقق الأشقر مكرهاً. ثم قال:

– إذن هل تستطيع أن تجيب بسرعة على اسم كل من أطلبه منك؟

– نعم أستطيع.

– ما اسم والد والدك؟

– مجاهد.

– والد خالك؟

– بكري.

– زوجة خالك؟

– مهدية.

– أمك؟

– سعاد.

– عدد أولاد خالك؟

– سبعة.

– كلهم صبيان؟

– خمسة صبيان وبنتان.

– اسم الولد الأول؟

– بسام.

– الثاني؟

– فتحية.

– من هو أبو حسن؟

– شاب طويل كثير العبوس. شاهدني مرة أدخل غرفة العمل مع والدي عبس بوجهي بشدة، فما دخلت إليهم ثانية. لذلك لا أعلم ما يصنعون.

– هل هناك مواصفات أخرى تلفت النظر؟

تظاهر بالتفكير ثم بدا وكأنه اكتشف شيئاً خطيراً.

– أبو حسن له أذنان صغيرتان.

اهتم المحقق الأسمر بهذه الصفة فدونها. على حين ضحك مجاهد في نفسه.

– هل هو علي فستق؟

– لا أدري.

– هل خالك من الجماعة؟

– لا.

– لماذا؟

– إنهم قرروا عدم الخروج من سورية. وخالي كما ترى جالس هنا.

صارت خطوات المحقق الأشقر قصيرة وسريعة. يمشي دائرياً حول مجاهد وبشكل قريب جداً. توقف فجأة وقال:

– لماذا تهز قدميك؟

– لأني مضطرب.

– لماذا أنت مضطرب؟

– لأنني في وضع غير طبيعي.

فوجئ المحققان بالأجوبة. كان الغضب بادياً على الأشقر. كاد يصفع السجين أكثر من مرة. لكنه تمالك نفسه. قال:

– هل لك أخوال أو خالات غير خالك هذا.

– نعم خالتان متزوجتان.

– قبل أن يتزوج خالك وشقيقاته كيف كانوا يعيشون. يعني كان أبوهم حياً ينفق عليهم؟

– توفي جدي بمرض السكر. خلف لأولاده مبلغاً من المال لا يستطيعون تثميره لأن الولد الأكبر خالي كان دون سن الرشد وأخواته بنات. فوضعوا المال أسهماً في شركة الغزل والنسيج المشهورة في مدينة حلب. وصاروا يعيشون على الأرباح الشهرية لهذه الشركة. استطاع خالي وخالتي أن يتابعا الدراسة. خالي تخرج من الجامعة. وخالتي تخرجت من دار المعلمين الابتدائية.

– هل تكفي أرباح الأسهم في شركة غزل ونسيج أن تعيل مثل هذه الأسرة؟

– هذا هو الواقع وإن كان خالي قد عمل أحياناً مع أعمامه في سوق الهال.

ودرست أمي القبالة والتمريض على حساب الدولة، واكتفت خالتي بعد تخرجها في دار المعلمين الابتدائية.

– مع ذلك لم تحصل القناعة.

– أنت لا مؤاخذة لا تعرف شركة الغزل والنسيج المشهورة في حلب، وليس غريباً أن لا تعلم تقدم الحركة الصناعية في سورية في تلك الآونة.

– أنا أعلم عدداً من أصحاب المعامل والمصانع في سورية قد خرجوا وأسسوا مصانع أخرى في عدد من الأقطار العربية المجاورة.

– هذا صحيح في السنوات الأخيرة. واليوم هناك ما هو أعجب وأغرب.

– مثل ماذا؟

– مصانع بكاملها تغلق من الإفلاس.

– عجيب!

– تصور أن إدارة بعض الشركات –بسبب التأميم– عمدت من أجل دفع الرواتب المتراكمة للعمال... إلى أن طلبت من كل عامل أن يقتلع الآلة آلة النسيج التي يعمل عليها، ويبيعها مقابل الأموال المستحقة له.

– هل تمزح؟

بلغ الارتياح لدى مجاهد مداه. استعاد هدوءه. توقف اهتزاز قدميه وساقيه الممدودتين. اعتدل في جلسته واضعاً كفيه على ركبتيه.

– هذه أمور لم تعد خافية في بلدنا على أحد. أين شركة الغزل والنسيج المشهورة؟ أين معامل النسيج الأهلية؟ أين معامل صايم الدهر والحريري والباقي؟ تصور. من هوس التأميم كان هناك معمل كبريت محلي صغير لا يكاد يفي بمعيشة أصحابه فشملوه بالتأميم.

– هل التأميم شر؟

– أنا لست خبيراً بالاقتصاد. لكن السرقات من الأرباح أولاً، ومن رأس المال ثانياً، ومن إحراق الإنتاج لتغطية السرقات ثالثاً وسوء الإدارة والمحسوبية رابعاً وخامساً...

– هل تتحدث المعارضة عن هذه الأمور في منشوراتها.

– لا أدري؟

– لكن من أين جئت بكل هذه المعلومات.

– أؤكد لك بأن هذه الأمور متداولة لدى المواطنين لأنها تمسهم جميعاً.

– هل يعقل أن تتراجع الصناعة السورية بمثل هذه السرعة؟ كانت المنسوجات السورية تنافس المنسوجات الأوروبية.

– الحرير السوري كان ينافس الحرير الفرنسي. حتى المواد الزراعية والتموينية التي كانت تصدرها سورية صارت تستوردها.

جلس المحقق الأشقر بجوار مساعده الأسمر على الكرسي، وأشعل سيجارة. ثم قال:

– أليست هناك غرابة في أن تعيش أمك وأولادها هنا مع خالك، على حين تبقى زوجة خالك وأولادها السبعة في حلب؟

أحس مجاهد بحراجة في هذا السؤال. لكنه مجهز نفسه للجواب عليه منذ زمن.

– ليست هناك غرابة.

لم يستطع المحقق الأشقر الاستمرار في جلوسه. قام يتمشى في الغرفة الصغيرة بين المنضدة والسجين.

– وضح.

– والدي غاب فجأة. لا نعلم مصيره. هل توارى بنفسه أم اختطف؟ لا ندري. خالي خاف على نفسه لشدة علاقته وصداقته بوالدي، فخرج إلى هنا. زوجته لا تستطيع الخروج معه لكثرة أولادها. خالتي خديجة

المعلمة اعتقلت. لا ندري السبب. ربما لأنها وبخت عناصر المخابرات لما جاءوا يفتشون عن خالي أو والدي الغائبين. أمي خافت لاعتقال أختها وغياب أخيها وزوجها فجاءت إلى هنا.

توقف المحقق الأشقر قبالة مجاهد، وقبض قبضته، وأفرد أصبعه السبابة في وجهه قائلاً:

– أحذرك من الضحك علينا.

– اطمئن. أنا لا أكذب

مد مجاهد ساقيه. صار يهز قدميه. تظاهر بالابتسام.

– إن السبب الذي أوردته لاعتقال خالتك غير مقنع إن كانت معتقلة حقاً. ثم لماذا تعتقل النساء؟ امرأة متعلمة معلمة. ولعلها متزوجة.

– نعم متزوجة ولها أربع بنات وصبي في مثل عمري.

– هذا يزيد الأمر غرابة.

– نحن مستغربون كلنا. نستغرب أن هناك سجوناً خاصة للنساء في قطنا والآخر في تدمر.

– في تدمر يقال سجن عسكري. ما علاقة النساء به؟

– نحن نسأل أيضاً هذا السؤال! لكن خالتي. الله يفرج عنها. ليست المعتقلة الوحيدة. هناك نساء اعتقلن مع أطفالهن أو بناتهن الصبايا. هناك أب هدد بهتك عرض ابنته الشابة العذراء أمامه في المخابرات. إذا لم يدل على مكان ابنه المجاهد المتواري عن الأنظار.

– في حلب؟

– نعم في حلب. أمّ المساجد والمآذن والعلماء والمدارس الشرعية!

انشغل المحقق ومساعده بتقليب بعض الأوراق. استيقظت في مخيلة مجاهد ذكريات بيت خالته حدث نفسه:

– في مثل هذا الوقت من كل صيف كانت أسرتنا تخرج مع أسرة بيت خالتي في نزهة سياحية من حلب إلى ادلب فأريحا فجسر الشغور فاللاذقية فجبلة بانياس طرطوس دمشق حمص حماة، ثم نعود إلى حلب. السيارة التي نركبها ملك خالتي. وفرت ثمنها بحسن تدبيرها. إنها سيدة بيتها. لا يكاد زوجها يتدخل في شؤون البيت. هي تبيع وتشتري وتربي الأولاد. لم يبق لها إلا أن تقود السيارة. راتب والدي أكبر من راتبها، وأسرتنا أصغر من أسرتهم مع ذلك ليست لنا سيارة. نحن نملك مكتبة ضخمة. هي تملك البيت الذي تسكنه أيضاً. استطاعت أن تشجع أولادها، فحفظوا أجزاء متعددة من القرآن الكريم. إنها سيطرت على استخدام التلفزيون الذي يملكونه. يمكن أن تحجبه أياماً أسابيع. نحن لا نملك التلفزيون. ما أجمل الأيام التي كنا نقضيها عندهم في سهرات مشتركة! خالتي تحب أمي كثيراً. زوجها يحب والدي كثيراً. نحن نحب بيت خالتي. الله يذكرك بالخير يا خالتي العزيزة. الله يفرج عنك ما أصعب السجن على مثلك! ماذا جرى لأولاد خالتي بعدك؟! بالتأكيد أنت الآن تذكريننا.. تذكرين رحلتنا إلى مصايف جسر الشغور. تذكرين زيارتك لنا في البيت الذي استأجرناه منذ سنتين هناك تذكرين نزهتنا البحرية مع صديقة والدتي في

جبلة. ثم انتقالنا إلى دمشق وجولاتنا في مصايفها الجميلة. والدي يحكي الحكايات والقصص الأدبية، وأنت ووالدتي توزعين الفواكه والنقول، على حين لا نكاد نحس بوجود زوجك المنصرف لقيادة السيارة، والاهتمام بشؤونها.

– هيه. بماذا تفكر يا مجاهد؟

ابتسم مجاهد.

– أفكر بذكريات خالتي المعتقلة.

– هل لها انتماء سياسي؟

– كانت معجبة بالرئيس جمال عبد الناصر إعجاباً شديداً. ومثل ذلك زوجها. لكنها تخلت عن هذا الإعجاب. انكبت على الكتب الإسلامية. وانصرفت لتربية أولادها.

– هل لها دروس؟

– هي معلمة.

– أقصد خارج المدرسة.

– إنها كتلة حركة ونشاط وتربية داخل المدرسة والبيت في كل مكان.

– هل زارت بعض الأقطار العربية مثل بلدنا؟

– أدت فريضة الحج منذ سنوات مع والدتي وخالتي الثانية في سيارة يملكها بيت خالتي ويقودها ابن خالتي أنور.

– أنت هل جئت إلى بلدنا قبل هذه المرة؟

– لا.

– أبوك؟

– لا أدري.

– خالك؟

– لا أدري.

– لا أدري. لا أدري. هل هذا معقول؟

* * *

حين عاد مجاهد إلى زنزانته نهض شريكه سليم يستقبله مستفسراً:

– حنطة وإلا شعير؟

تنهد مجاهد قليلاً. لم يجب على الفور. جلس على فراشه. أسند ظهره إلى الجدار. حرك يده اليمنى حركات عدة وهو يقول:

– حنطة وشعير وشوفان وعدس وحمص وما شئت.

– خير. خير. إن شاء الله؟

– الله تعالى ما عنده إلا كل خير.

– ماذا سألوك؟

– سألوني عن والدي وخالي وخالاتي والصناعة والاقتصاد والتأميم.

– لا يهمك كله فاضٍ.

– كيف فاضٍ؟ والدي مختفٍ. خالتي معتقلة. الاقتصاد منهار!

– السبب ليس التأميم طبعاً.

– المهم. حتى الاقتصاد منهار. تريد حقيقة أخرى. العمال أنفسهم لم يستفيدوا من هذا التأميم. بل قلت لهم إن معامل بأسرها أفلست، وأغلقت أبوابها، ودفعت الأجور والتعويضات المتراكمة في حلب على شكل خلع الآلات وتسليمها لمن يعمل عليها ليبيعها بنفسه.

– ليس صحيحاً. هذه دعاية رأس مالية.

– أنت بوسعك أن تقول ما تشاء. لكنني أقول ما

أعلمه علم اليقين. من شاء فليصدق ومن شاء فليذهب يستطلع بنفسه.

– المعمل ملك العمال.

– ألم أقل لك إنها صارت ملكهم فعلاً. طلب من كل واحد منهم أن يمتلك الآلة التي يعمل عليها. ويبيعها إن أراد.

– ليس هذا ما أقصد. هذه ملكية خاصة. هذا انتحار.

– سمه ما شئت هذا ما حصل.

أصيب سليم بصدمة. إنه أراد أن يواسي شريكه في الزنزانة. أن يعينه على تسديد أجوبته في التحقيق، إذا هو يطعن في أعز معتقداته عن الاقتصاد الاشتراكي وعن ملكية العمال للقطاع العام وعن نعيم التأميم.

أحس مجاهد بعظم المفارقة بعد قليل. قطع الصمت واقترب من شريكه قائلاً:

– يا أخي سليم. لو كنت في محلي لما تحدثت إلا بما تحدثت به أنا.

– العمال يا مجاهد. العمال! الطبقة المظلومة المسحوقة لا تؤازرهم في ظلمهم. أنت تشطب على الأمل مرة واحدة.

– أنا أشطب على الأمل يا سليم. أم السلطة التي شطبت على الشعب، على العمال والطلاب والفلاحين والمثقفين؟! أنا أتمنى أن يفرج الله عنك وأن تذهب إلى سورية لتسمع ما هو أعجب وأغرب.

– هل هناك أعجب وأغرب من هذا؟

أحس مجاهد بأن موازين الصداقة قد اعتدلت، وأن جسور الاتصال قد استعادت عافيتها. عاد إلى مجلسه

فعاد سليم ليجلس قبالته.

– أحكي لك واقعتين وأترك تفسيرهما.

– تفضل.

– بالقرب من بيتنا تسكن أسرتان عماليتان.

الأسرة الأولى ربُّها قد اتخذ من إحدى غرف منزله مشغلاً. نصب فيه آلة نسيج يعمل عليها ليل نهار. يعاونه بقية أفراد الأسرة: الزوجة والأولاد في استكمال المنسوجات التي تنتجها تلك الآلة التي لا تتوقف إلا ساعات قليلة في الليل. هذه الأسرة محبوبة في حارتنا. سيرتها حسنة. الزوج في عمله منهمك لا يرى إلا في الأعياد. الأطفال غير عدوانيين. ابنهم البكر تخرج مهندساً. أحد الأولاد نصفه مشلول يمشي على عكازتين، لا تكاد تحس بهما لخفة ظله. الأسرة الثانية بالعكس: ربها عامل أيضاً لكنه شيطان في صورة إنسان. بياض بشرته وشقرة شعره من دواعي غروره ليتحرش بنساء الجيران العفيفات الطاهرات. يطلق لهن القبلات في الهواء تظرفاً ومجوناً، فيبصقن عليه لوضاعته، وقبح هيكله الذي يشبه هيكل الممثل شارلي شابلن الساخر اليهودي في الأفلام الصامتة. إنه متخصص في حارتنا بسرقة الدراجات الهوائية. سموه (أبو البسكليت). أولاده لا يقلون عنه وضاعة ونذالة. الكذب. السرقة. الغش. اختصم الأب مرة مع صهره. فقال له مهدداً:

(لا تعرف من أنا؟ أنا مخبر. سوف ترى مصيرك!).

يعني أنه عنصر في المخابرات. كنا نتساءل: من أين هبطت عليه الثروة. إنه لص دراجات هوائية. عامل شبه متبطل. إذا هو يملك ثمن مسكنه، ويبتني منزلاً

جديداً في الحارة القريبة. يدعو إليه القاضي الذي سوف يبت في القضية التي رفعها ضد صهره. حضر المحامي الدعوة إلى البيت الجديد. هل أحدثك عن الأطعمة الفاخرة عن الخمور التي قدمت في تلك الدعوة؟ عن رقص ابنته العروس الجديدة في احتفالات الشبيبة وفخره بذلك؟ ما أدري إن رقصت أيضاً للقاضي والمحامي.

– كلهم ضحايا.

– نعم. لكن ضحايا من؟ السلطة ممسكة بمقاليد الدولة والمجتمع منذ عام 1970 في الأقل. إنها تشدد قبضتها باستمرار، ومن خلال عملاء أمثال هذا الجار الكادح الأشقر لتطحن أمثال جارنا الآخر وأسرته المجدة. الطبقة العاملة مسحوقة أيضاً لكن من يسحقها غير السلطة؟ إن أشد أنواع السحق والتخريب الأخلاقي والتشويه النفسي تسليط المواطنين على بعضهم...

– ممكن. ممكن!

– الاعتقال والاضطهاد للأحرار للشرفاء. والجلادون من أمثال أبي البسكليت.

– أنصحك أن لا تكثر من ذكر الاعتقال والمعتقلين لأن ما تذكره أكثر مما يتوقع أو يعقل.

– وإن كان صحيحاً مئة بالمئة؟

– وإن يكن.

– هل أكتم عنك أن ابن جارنا المهندس ابن العامل الكادح أصبح نجماً لامعاً في نقابة المهندسين، وأن أمثاله من النقابيين وأعضاء مجالس النقابات قد أصبحوا أيضاً في غيابات السجون.

- النقابيون أيضاً؟
- نعم.

تألق وجه سليم فجأة كأنه تذكر شيئاً مهماً.

- تذكرت. لقد احتفظت لك بحصتك من العشاء. ألا تتعشى؟
- شكراً. شكراً. كيف سمح لك الحارس بأن تحتفظ بالعشاء؟
- أبو نملة؟
- نعم.
- ولا يهمك سوف تكتشف أن كثيراً من مواقف الغلظة والقسوة إنما هي قشرة ووظيفة رتيبة يؤديها الناس على الرغم منهم. أبو نملة طيب طيب جداً، وسوف ترى.
- لا أكتمك بأنني اكتشفت أشياء أخرى. اكتشفت قدرتي على النقاش.
- أنت رهيب. من أين لك كل هذه المعلومات في مثل هذا السن؟
- ليست المشكلة في المعلومات لأنني مطالع نهم. المشكلة في تذكر هذه المعلومات في الوقت اللازم وبالطريقة المناسبة.
- أنا معجب بك.
- وأنا كذلك.

النهار الرابع

الأحد 8 حزيران 1980

في ساعات الضحى العالي استيقظ حسان من نومه، فقد ألف قبل أيام الاعتقال أن يطيل السهر في

العمل، وأن يعوض عن ذلك السهر بنوم الضحى، وقد تمكنت هذه العادة منه في السجن، حتى كان يقضي لياليه سهراً ونهاراته نوماً. من عاداته في النوم أن لا يهتم بإطفاء المصباح، وإن كان يميل إلى الظلام في توفير النوم المريح، لكن النور الشديد المنبعث من مصباح الزنزانة لا يساعد على تسهيل النوم، فهو إذا اجتمع مع القلق والذكريات ومواصفات الفراش غير المريح، وحاجات الجسد الضرورية لم يبق للنعاس نافذة يطل منها، ولا للرغبة بالنوم أنامل تستمسك بحوافه الملساء.

فتحت الكوة الحديدية في الباب، وأطل الحارس النشيط، وقال:

– أنت مستيقظ؟

– نعم.

– خذ هذا.

فتح الباب. وناوله الحارس كتاباً مخلوع الغلاف، مجعد الزوايا.كانت مفاجأة عظيمة لم تخطر على بال حسان.

– سجن وكتاب؟ إنها نعمة عظيمة. بل إنها أمنية من الأماني. لكم وددت أن أسجن للتفرغ للمطالعة!

إن مجرد استلام كتاب أحدث في نفس حسان شعوراً خاصاً. ولم يكد بعد يتعرف على مضمونه لضياع أوراق كثيرة من أوله وآخره.

– أيا كان مضمونه فهو كتاب. يا الله. إنه كتاب أعرفه. كتاب في تفسير القرآن. بل هو مجلد يضم عدة أجزاء في كتاب واحد.

لم يحس حسان بوجود الحارس ولا بانصرافه، فقد

استغرقه الكتاب الضيف حتى شغله عن كل ما عداه.

دق حسان دقات خفيفة على باب الزنزانة ليشعر الحارس برغبته بزيارة دورة المياه استعداداً لصلاة الظهر وتناول الغداء، ولما طال انتظاره الدور أخذ يتمشى في الزنزانة، وهو يمضغ المتع والموحيات التي جاء بها هذا الكتاب الضيف.

– صحيح أنا تمنيت السجن للمطالعة، لكن ليس سجناً سياسياً أو سجناً مجهول العاقبة والمصير. ثم إنه كتاب واحد. بل مجلد. كم تستغرق مطالعته؟ هل هناك ضمان بمطالعة كتاب آخر، فضلاً عن اختيار كتاب بعينه؟ هذا لا يهم. المهم أن السياسة فن إتقان الممكن. فلأفد من هذا الكتاب ما دام متيسراً. ولكل حادث حديث.

عاد حسان إلى الكتاب. فحصه وقلب صفحاته:

– إنه المجلد السادس من تفسير ظلال القرآن. فيه بالتأكيد تفسير سورة (العنكبوت). يهمني من هذه السورة آيات الافتتاح وآية الختام:

(ألف. لام. ميم.

أحسبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا: آمنّا. وهم لا يُفتنون.

ولقد فتنا قبلهم الذين من قبلهم، فليَعلمنَّ اللهُ الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين)

وفي نهاية السورة:

(الذين جاهدوا فينا لنَهدينـَّهم سبلنا، وإن الله مع المُحسنين).

يا ربِّ. اجعلني من المجاهدين فيك.

يا ربِّ أعنّي لأكون من المحسنين.

اللهم اجعلني من الصادقين. يا رب. يا رب. يا سميع الدعاء. يا مجيب المضطر. يا جبار السموات والأرضين.

أطل الحارس من الكوة وقال:

– استعد للتصوير.

– ودورة المياه؟

– لا مجال الآن.

هذا (التصوير) مفاجأة أخرى لحسان. حين جاء دوره وجد المصور شاباً يقف في رواق الممر ممسكاً بيده آلة تصوير ذات (فلاش). سلمه المصور الشاب لوحاً صغيراً مما يستعمله طلاب المدارس. كُتب عليه بالحوار الأبيض رقم (252)، وطلب منه المصور أن يمسك باللوح وأن يضعه تحت وجهه ليظهر وما فيه من كتابة ضمن الصورة. استدرك المصور وسأله عن اسمه، فأجابه باسم مطابق لما معه من أسماء. فسجل الاسم بجوار الرقم، ثم أعطى تعليماته لاتخاذ الموقف المناسب للتصوير.

انتهت عملية التصوير في لحظات، وبدأت في نفس حسان التساؤلات:

– لماذا التصوير؟ هل يعتبروننا مجرمين تؤخذ صورهم تحسباً للمستقبل؟ وهل يتوقع أن نخرج من السجن، وأن ندخله مرة أو مرات أخرى؟

حين عاد حسان إلى زنزانته لم تنقطع تساؤلاته حول التصوير:

– هناك فرق بين السجين السياسي والسجن الجنائي، ويجب أن يكون هناك فرق أيضاً بين الجرم السياسي والجرم الجنائي. ثم هل ارتكبت أنا جرماً سياسياً؟ وإذا كان لا بد من الدقة فأنا ممن يقاومون

الإجرام السياسي والجرائم السياسية، لدرجة اضطررت معها إلى ترك عملي وبلادي. على كل حال سوف يتبين هذا بوضوح لرجال التحقيق، ولكن ماذا تنفع الحقيقة بعد حصول التصوير، وإدراج الصورة في ملفات المجرمين أو أصحاب السوابق أو الخاضعين للرقابة أياً كانت؟

مما يخفف المصيبة أن الاسم الذي أعطيتهم إياه هو الاسم الحركي، ولكن إلى متى أظل مختفياً وراء هذا الاسم المستعار. وإذا عرفوا الاسم الحقيقي، فكيف يتصرفون بالصورة والاسم؟! أظن الجواب واضحاً!

لماذا لم أرفض التصوير؟ لا يمكن الرفض. لماذا لا أعترض؟ لماذا لم أحتج أو أطلب التأجيل؟ ما أظن أن بإمكاني الاعتراض أو الاحتجاج أو التأجيل. إن التصوير لا بد منه، وربما كان أمراً رتيباً (روتينيا) يخضع له كل زائر لهذه الزنزانات ولو كان رئيس دولة. بل ربما بسبب كونه رئيس دولة!

في بلدي كان يطلب منا خلال العام الدراسي تقديم ثلاث صور شخصية أكثر من مرة مع تعريف بالاسم والعمر وتاريخ الولادة، وإلحاح خاص على عنوان البيت، وتذكير بالإعلام عن تغيير العنوان في حينه. وكنا نراوغ، ونتأخر. ومع ذلك كنا في النتيجة ننفذ الطلبات والتعليمات مكرهين، كما كنا نشعر بأن هذه الصور مطلوبة من جهات أمنية. لم نكن نشعر أننا صرنا مثل المجرمين. هل لأن الطلب كان موجهاً لكل موظفي الدولة؟ أم لأنه إجراء تكرر مرات عدة حتى تطبعنا عليه، ثم إن الصورة التي نقدمها هناك تتم في مكان خاص بالتصوير وبالألبسة المعتادة. أما هنا،

فإن الصورة تنتم في السجن وبالألبسة وبالأوضاع غير المألوفة.

باختصار، عملية التصوير لم ترق لي أبداً أبداً. بل آلمتني، وهي مؤشر غير حسن. ثم هل تقديم كتاب للمطالعة موازنة بين حسنة وسيئة؟ ثم هل يحسبون مثل هذه الحسابات؟

قضاء وقع، فما العمل؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أراد حسان أن يشغل نفسه عن هذه الحادثة لكي يتفرغ لما هو أكبر منهما. إنه معرض للدعوة إلى التحقيق في أي لحظة. إنه لا يرغب أن يدخل حلبة التحقيق مشتت الذهن، خالي الفكر من استعدادات معينة واحتياطات معينة. إذا استطاع الاحتفاظ بالاسم الحركي فإن ذلك أمر مهم كما يقدر.

تذكر كتاب التفسير، فأقبل عليه وفتحه على مكان يعرفه من تفسير سورة العنكبوت وقرأ:

"ومحور السورة – كما أسلفنا – هو الحديث عن الفتنة والابتلاء لمن يقول كلمة الإيمان، لتمحيص القلوب وتمييز الصادقين والمنافقين بمقياس الصبر على الفتنة والابتلاء.. وذلك مع التهوين من شأن القوى الأرضية التي تقف في وجه الإيمان والمؤمنين وتفتنهم بالأذى، وتصدهم عن السبيل، وتوكيد أخذ الله للمسيئين، ونصره للمؤمنين الذين يصبرون على الفتنة، ويثبتون للابتلاء. سنة الله التي مضت في الدعوات من لدن نوح عليه السلام. وهي السنة التي لا تتبدل، والتي ترتبط بالحق الكبير المتلبس بطبيعة هذا الكون، والذي يتمثل كذلك في دعوة

الله الواحدة التي لا تتبدل طبيعتها."

وضع الكتاب جانبا، ثم نهض يتمشى في طول الزنزانة ويتأمل ما قرأ:

– ما أحلى هذا الكلام، وما أعظم هذه المعاني لكأني أقرؤها لأول مرة، وكأنها كتبت من أجلي أنا. لكن هل أنا مبتلى في الله؟ أرجو ذلك هل يكفي الرجاء؟ لا بد من مراجعة المواقف كلها، ومراجعة تفاصيل المعركة، وفوق ذلك لا بد من إخلاص النية.

أنا ما أشك في أن المعركة في سبيل الله، وكل ما يقلقني هو الإخلاص لله في هذه المعركة، النية أولاً وآخراً. إذن فلأبذل الجهد منذ هذه اللحظة في إخلاص النية.

النية أصل. وأصل آخر لا بد منه هو الصبر، لأن الآية الكريمة جعلته معياراً على الصدق وإخلاص النية (فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمن الكاذبين). ألا لعنة الله على الكاذبين.

لا بد إذن من النية والإخلاص في النية، ولا بد من البلاء والصبر على البلاء. سوف أفعل ذلك وأحمل نفسي عليه حملاً، ولكن ما الضمان بالنجاح؟!

في تقديري هذا جزء من الضعف البشري، وأنا بشر، ولا يحسن أن أتعجب من نفسي واضطراب مشاعري. الكمال لله عز وجل. هل هذا هو تسويغ لضعفي و عجزي؟ لا، لا، هذه محاولة للفهم، ولصقل النفس والمشاعر إن شاء الله.

منذ فترة طويلة، وفي السنوات الأخيرة بشكل خاص، كان دأب حسان تدبر القرآن على هذه الشاكلة، يفهم النص القرآني، ويحاول أن يطبقه على نفسه

وأهله ومجتمعه، فيتم له التفاعل بدرجات تتفاوت، بحسب الجو النفسي الذي هو فيه، من حيث الراحة والتعب، ومن حيث الصحة والمرض، ومن حيث السلامة والابتلاء، وفي كل مرة يتفحص مواقع قدميه ويراجع حساباته، لتصحيح النية والمسير والمواقف، لكنه يحس هذه المرة بأن التفاعل أشد وأن المحاسبة أعمق. ولا سيما أن مواقفه تنسحب على كثيرين جداً ممن وراءه، من أهله ومعارفه وطلابه والذين اقتدوا به وبأمثاله، مع كرهه الشديد لأن يكون قدوة لأحد.

– أنا أكره القدوة والزعامة أيا كانت، فلماذا رضيت بها؟ إنها من جملة الابتلاء. إنها تكليف ابتليت به على الرغم مني، وإن رفض التكليف مع الرافضين يدخل في باب الجبن والفرار من الزحف، والعياذ بالله. فلأدفع الثمن، ولأروض نفسي بكل ما أوتيت من قوة.

هل يحب الأنبياء وأولو العزائم الابتلاء والمحن؟ بالطبع لا. لكنهم حملوا أمانة، فدفعوا تكاليفها. هذا شأن نوح وإبراهيم ولوط وشعيب مع أقوامهم أمثال عاد وثمود وقوم فرعون وهامان على امتداد الأجيال. فلما صدقوا الله تعالى وصبروا حتى زلزلوا زلزالاً شديداً لدرجة اليأس أتاهم نصر الله وأزال العقبات، ومحق الأعداء المرصودين في وجه الحق والهدى.

(فكلاً أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً، ومنهم من أخذتْه الصيحةُ، ومنهم من خسفنا به الأرضَ، ومنهم من أغرقنا.)

كل هذه المعاني يعلمها حسان حق العلم، وهو يتفاعل معها في المحن والشدائد تفاعلاً أعظم، بل هو

يؤمن بصحة المعادلة، وبنصر الله للمؤمنين، وبشدة ضعف الظلمة والطغاة والمعتدين، وكما وصف الله تعالى ضعفهم وهوانهم ببيت العنكبوت:

(مثلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياءَ كمثل العنكبوت اتخذتْ بيتاً، وإن أوهنَ البيوت لبيتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمون)

خارج السجن كانت اهتمامات حسان بمعاني القرآن ممتزجة باهتماماته بجمال القرآن من موسيقى وتصوير. أما الآن فإن هذا المثل المصور الذي يجسم وهن القوى المعادية وتفاهتها لا يلقى من نفس حسان الاستمتاع الجمالي وحده، بل يلقى منه اهتماماً عميقاً بالمدلول الحقيقي أو الحرفي للألفاظ والمعاني، لأن المسألة لم تعد ذوقاً فنياً أو متعة جمالية أو تأليف رسالة جامعية، بل هي تقرير مصير في الدنيا والآخرة، والآخرة أهم وأبقى.

– من يشك في أن بناء الذين يعادون الله وأنبياءه مثل بناء العنكبوت وأشد وهناً؟ ولكن من يضمن أنه ينصر الله وأنبياءه؟ من يضمن أن الله تعالى معه؟ تلك هي المسألة؟ وهذا ما يقلقني. يارب. إنني اتخذت الأسباب فوفقني إلى الصواب والسداد.

فتحت الكوة الحديدية، قال الحارس:

– استعد للحلاقة.

– والطعام، ودورة المياه؟

– كله بالدور. دورة المياه بعد الحلاقة مباشرة.

هجمت على مخيلة حسان ذكريات حلاقة الشعر في سجن الشرطة العسكرية بحلب عام 967 حيث حلق شعر رأسه ورؤوس زملائه حتى الصفر، ولم يكد يعرف

بعضهم بعضاً بعد الحلاقة، وصارت ملامحهم أشبه بملامح المجرمين فعلاً، وكان ذلك مثار ضحك وألم بآنٍ واحد.

– ترى هل سوف تتكرر المأساة؟ وهل يمكن رفض هذا الإجراء؟ وهل سوف يعتذرون بعد التنفيذ كما اعتذر أولئك بحجة السهو؟!

منذ دخل هذا البلد قرر حسان ألا يتورط في مخالفة أنظمته. إن هذا المعنى تأكد لديه حين داهموا بيته في (الدارة) بقوة وبحشد من المسلحين بعد منتصف الليل، وسلمهم سلاحه الفردي بمحض اختياره.

– هناك عدو أول، أو عدو مباشر، لا بد من التفرغ له، ثم لماذا المعارك الجانبية أو الصغيرة. وخصوصاً إذا كانت تعرقل التفرغ للمعركة الكبيرة أو تعطلها؟

هكذا حسب المعادلة، وهكذا تابع استسلامه للتعليمات.

– أنا كنت أوصي غيري بفهم تعليمات السجون والتأقلم معها، لأن مخالفتها معركة خاسرة على كل حال، فلماذا لا أطبق ذلك على نفسي؟ احلق يا حلاق.

كان الحلاق شاباً وسيماً لطيفاً، يشبه المصور لكنه أكبر منه سناً. أبيض الوجه أشقر الشعر. عيناه عسليتان مؤنستان، وكانت أدوات حلاقته لطيفة، ليس فيها أداة جارحة. مقص، مشط، آلة (ماكنة) حلاقة كهربائية وحسب!

– كيف الحال؟

– بخير.

– هل ترغب بتخفيف الشعر؟

– نعم، وحلق اللحية.

– حلق اللحية ممنوع!

– شكراً!! خذ حريتك.

فكر حسان:

– أليست مفارقة عجيبة! أنا أطلب حلاقة لحيتي، وسلطة السجن تمنع ذلك إن إطلاق اللحية في بلدنا مسألة كبيرة. ويكره الناس على حلاقتها كرهاً.

بعد الفراغ من الحلاقة سمح لحسان أن يزور دورة المياه.

تعتبر دورة المياه بالنسبة إلى السجين مكاناً حيوياً، وربما كانت حاجة حسان إلى هذا المكان أكثر من غيره لضيقه من الانتظار، وحرصه على النظافة، ودوام الطهارة.

– في كل السجون التي دخلتها شعرت بأهمية دورة المياه. في سجن حلب المدني كانت دورة المياه جزءاً من الزنزانة، وهي غرفة النظارة. على الرغم من ضيق شركاء الزنزانة من دورة المياه كنت سعيداً بها مع العلم أن حساسيتي من الروائح أكبر من حساسية غيري، لكن بعض الشر أهون من بعض.

أطال حسان مدة زيارته لدورة المياه بحجة غسل الشعر المتناثر بسبب الحلاقة، وهو يريد في هذه الإطالة عدم الاستعجال بالعودة إلى الزنزانة، كما يريد التعرف إلى موضع دورة المياه الكائن في وسط صف الزنزانات وتفاصيل بنائها وعملها حباً في الإطلاع والتعرف لئلا يندم على جهله يوماً ما. فقد يفرج عنه ويتاح له أن يكتب قصة أو رواية. أو يحاول الهرب منها.

– نعم هناك ناس استطاعوا الهرب من السجون عن طريق دورات المياه. وسمعت عدداً من القصص حول ذلك لكن مثل هذا السجن، ما أظن. إن المكان يعادل حجم زنزانتين، نصفه مقسوم قسمين بحاجز لكل قسم باب قصير. وفي القسم الأمامي صنابير المياه والمغاسل.

– قال الحارس النشيط:

– عجل يا شيخ، غيرك ينتظر.

كلمة (غيرك) تهز حسان هزاً، لقد تعود التضحية من أجل الآخرين، وهو يخجل من تفضيل نفسه على غيره عادة. اختصر المدة التي كان ينوي قضاءها في المكان وعاد بسرعة إلى زنزانته.

كلمة (غيرك) دخلت معه الزنزانة.

– يعني لا بد من ضيف في الزنزانة الانفرادية.

كتاب. ذكرى. حلم!

من فوائد السجن التي اكتشفها حسان أنه تساوى مع الذين سجنوا بسببه من أهل ومعارف وطلاب وزملاء. ومن فوائد السجن أيضاً أنه يؤدي إلى الزعامة أو يؤكد الزعامة. فجواهر لال نهرو خرج من السجن إلى زعامة الهند.

– لا أريد الزعامة. طبيعتي تأبى ذلك والدين يحرم طلبها. وها هو ثمنها! ولكن ماذا أفعل للذين ألزموني بما لا أرغب، وبما ليس من طبيعتي أصلاً؟ طلب الزعامة رياء محض. والرياء حرام. ألم يقل رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتيَ به، فعرفه نعمته، فعرفها. قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت.

قال: كذبتَ، ولكنك قاتلتَ لأن يقال: جريء! فقد قيل، ثم أُمِرَ به، فسُحِبَ على وجهه حتى ألقي في النار."

لكن هل أتخلى عن الجهاد؟ إن أفضل الجهاد كلمة حق أمام سلطان جائر؟

لا بد من الجهاد. جهاد النفس الأمارة بالسوء وجهاد الطغاة. لقد صدق من قال: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

يا رب، يا متعال، عافني منهما.

إذا كان الإخلاص معيار العمل والتعامل والنية، فما معيار الإيثار والنزول عند رأي الآخرين؟ ما معيار الخروج من حظوظ النفس دون الوقوع في الضعف أو التفريط بالصواب؟!

أنا أعلم ضعفي. اضطررت إلى حمل عبء لا أطيقه حين تخلى عنه الأكفياء، وحين ألزموني بحمله من أحبهم وأثق بهم، مع قناعتي بعجزي، فهل هذا يجوز؟ وهل يجوز التلوم في السجن أو التهرب من المسؤولية؟!

يا رب خذ بيدي وسدد خطاي.

يا رب. إنني مقتنع بضرورة مقاومة الظلم والطغيان، ولا ألزم غيري بهذه القناعة. إنني مقتنع بالتكاليف الصعبة التي تقتضيها هذه المقاومة، وأنا لست شجاعاً، ولست جباناً أيضاً، فما العمل؟!

ما العمل؟! أليس هذا سؤالاً يسأل الآن! لقد سبق السيف العذل. لقد كشف الطغيان عن وجهه وبدأ الحرب، ولا بد من مواجهته. كانت السلطة —في تقديري– تتحاشى المواجهة في الماضي، وكنا نتحاشاها نحن أيضاً، ولكن ممارسات السلطة فضلاً عن

بنيتها ونوعيتها شحنت الجو العام حتى بات قطبين متناقضين كسحابتين ضخمتين، شحنت إحداهما بالسالب والأخرى بالموجب، وكل منهما تسير نحو الأخرى بكثافة متزايدة، والانفجار قدر منتظر.

مع قناعتي بأن الظلم الغشوم المتغطرس لا يعالج بالنصح ولا بالكلام، وقناعتي بأن الانفجار قادم لا بد منه، وأن المواجهة مؤكدة مهما تأخر زمانها، مع كل ذلك حاولت وقف الانهيار.

خطوات في الليل(4)



محمد الحسناوي*
shasansh@hotmail.com

خارج الزنزانة حدث انهيار، فقد هوت الحلة التي وضع فيها طعام الغداء حين نقلها من الباب الداخلي إلى رواق الممر عند فسحة دورات المياه، وأحدث سقوطها ضجة عالية تقاطر على أثرها عدد من الحرس يستطلعون الخبر، وساعد ذلك في تعجيل العمل، وتوزيع حصص السجناء من الطعام وهو ساخن.

في الوقت نفسه شرع الحراس يتلاومون على إسقاط الحلة وتحميل المسؤولية، فبعضهم يرى أن سبب سقوطها هو شدة حرارة الطعام، وبعضهم الآخر يرى أن تكليف حارسين ضعيفين سبب أهم، وبعض آخر يرى السبب في الاستعجال... وقليلون هم الذين يرون أن الأسباب كلها مجتمعة، والأقل يضيفون أسباباً خفية، منها تعمد الإسقاط أو انشغال البال بأمور تصرف عن إتقان العمل، أو إنفاذه على وجهه الصحيح.

بالمناسبة تذكر حسان حكاية رواها له أبوه:

– صاحب عمل لاحظ على أحد عماله نشاطاً خاصاً في أداء عمله لم يألفه لديه من قبل، فهو يحمل ضعف البضاعة التي يحملها على كتفه، ويقفز فوق درجات السلم متجاوزاً أكثر من درجة واحدة في كل خطوة، وهكذا بقية مراحل عمله. فتساءل رب العمل بعد طول

تأمل وملاحظة وفحص لمظهر العامل، اكتشف رب العمل أن هذا العامل يحمل على وسطه حزاماً مضاعفاً أو حزامين يخفي أحدهما الآخر، وبعد الفراغ من العمل اختلى به، وأحرجه حتى فك الحزامين، ووجد الحزام الداخلي مليئاً بالقطع الذهبية والمجوهرات المسروقة.

فتح باب الزنزانة ودفع بحصة الطعام بسرعة، ثم أغلق الباب.

لم يمنع هذا الحادث من تذكر حسان لوالده، وكادت الدموع تطفر من عينيه:

– كم أنا مشتاق إليك يا والدي! حفظك الله ورعاك.

كان تعليق والده حين أفرج عن حسان عام 967:

– إنه ابن أبيه. أنا اعتقلني الفرنسيون قبل الجلاء بعام واحد، وسجنوني في سجن (المية ومية) في لبنان، أنا أفتخر بابني لأنه مثلي.

هذا كلام الوالد لزملاء حسان حين اجتمع بهم والده بعد الإفراج عنه، ولكن حين يخلو به أبوه، أو حين يخاطبه على الهاتف بالمناسبات الهامة يقول له:

– أوصيك يا ابني بعدم التعرض للحكومة.

– ولا يهمك لن أفعل إلا ما يرضيك.

وبالفعل كانت أقوال حسان وأفعاله ونتائجها القاسية مرضية للوالد على كل حال، وحين يتذكر حسان هذه المعادلات يضحك من أعماقه سروراً وإعجاباً ورضى بما رزقه الله من والد حنون، مؤمن بالقضاء والقدر، واثق بولده كل هذه الثقة.

شرع حسان يمد قطعة (نايلون)، ويرتب عليها قطع الخبز وصحون الطعام، وهو ما يزال يفكر باعتقال والده عام 1945.

– كنت في الصف الأول الابتدائي. سمعت بخبر اعتقال الفرنسيين لوالدي. فجئت أنا وأخي الصغير إلى الدكان لنتأكد من الخبر، فوجدناه مغلقاً، والناس يروحون ويغدون في السوق مزدحمين، لأن يوم الاثنين هو يوم (البازار). كان الناس يمرون أمام باب الدكان المغلق، ويتطلع بعضهم إلى الباب الخشبي وبعضهم يشير بإصبعه بسرعة أو خفية إلى علامات على الباب. اقتربت أنا وأخي من الباب، فوجدنا أثر ضربات متعددة من حراب البنادق على الباب. أخبرنا بعض الناس أن والدنا محتجز في المخفر المجاور للسوق. فهرعت أنا وأخي إلى المكان، وهو عبارة عن دكان تحت بناء عال، والمخفر يغص بالمسلحين. هجمنا على يدي والدنا نقبلهما، فعانقنا عناقاً طويلاً، ولم يتدخل المسلحون. مد والدنا يده إلى جيبه وناولنا بعض النقود. وطلب منا الانصراف إلى البيت بلا تلكؤ، لكننا لم ننصرف، بل ابتعدنا قليلاً، ثم توارينا وراء جدار معترض يطل على الساحة التي يشرف عليها المخفر –الدكان وتابعنا النظر إلى الوالد بالتناوب، متلصصين خشية أن يرانا العسكر، أو خشية أن يشعر والدنا بأننا خالفنا طلبه.

أهم ما أتذكره من ذلك المشهد قيام والدي للوضوء وللصلاة غير مبال بالمسلحين.

ما أعظمك! ما أروعك يا والدي! بل ما أعظم الإيمان، وما أروع الجرأة في الحق. إنه دين، وهل هناك أغلى من العقيدة؟!

كان حسان قد استهلك نصف الطعام، وهو غير منتبه إلى نوع الطعام الذي يتناوله، والذي جعله

ينتبه أن لسانه كان يتحرك في فمه، منسجماً مع تفكيره وليس مع فكه، وفجأة عض على لسانه المحصور بين الفكين، فصرخ متأوهاً.

– آه. آه. هذه نتيجة التفكير وقت الطعام.

نصحتني زوجتي أكثر من مرة بترك هذه العادة، فلم أستطع.

ضحك حسان لذكرى زوجته. وذكريات الطعام. تذكر العشاء الأخير الذي تناوله مع أسرته الصغيرة في حلب، قبل تواريه عن الأنظار في نيسان عام 979. كانت تحدثه زوجته عمن رزق أطفالاً ذكوراً أو إناثاً من زملائه ومعارفه، وعمن رزق من الجنسين، فتذكر أخاه عبد الرحمن الذي لم يرزق أي طفل حتى الآن، برغم انقضاء سنوات عدة على زواجه السعيد فدعا الله عز وجل أن يرزقه غلاماً أو بنتاً، وأن لا يحرمه من هذه النعمة. كما تذكر أنه هو رزق أطفالاً من الجنسين، فلديه مثلاً ذكر وانثيان. فحمد الله تعالى على أنه لم يحرم من الأولاد من الجنسين، ثم ضحك في نفسه، لما فطن أنه أخطأ في الحساب، فأولاده ذكران وأنثى، وليس العكس، وقد لاحظت زوجته وأولاده ابتسامته وهو يأكل، فسألوه عن السبب، وحاول التملص لئلا يسخروا من ضعفه بالحساب، أو انشغاله كالعادة عن الطعام، ولما ألحوا عليه أخبرهم بالحقيقة ضحكوا جميعاً، وصاروا يضحكون كلما تذكروا هذه الواقعة.

في هذه اللحظات لم ينشغل حسان بالمقارنة بين طعام السجن الذي يتناوله الآن وطعام البيت المريء، ولا بين انقطاعه وحيداً بين الجدران ولا بين اجتماعه بأسرته كلها. كان باله مشغولاً بالتفكير في

مفارقات الصورة التي كان يتأملها على مائدة الطعام في العشاء الأخير مع أسرته في حلب. فهو من ناحية أسرته وحياته الشخصية قد بلغ الأوج في السعادة: أسرة متكاملة متحابة، توفر لها المسكن والصحة ولوازم الحياة الضرورية حتى الهاتف، وطموحاتها محدودة، وهو استطاع أن يستأنف نشاطه العملي والأدبي بعد انقطاعه، وهو ناجح في عمله نجاحاً ملحوظاً وهكذا... أما من ناحية الحياة العامة، فإن المأساة أيضاً قد بلغت الأوج من اضطهاد وظلم وسلب ونهب ورشاوى وكبت للحريات ومحاربة للإسلام، وأخيراًِ حملات الاعتقال والتصفيات الجسدية للأحرار والشرفاء. ولم يكن بالإمكان الفصل بين الحياة الشخصية وبين الحياة العامة، أو هو على الأقل لم يمكن من الذين يستطيعون هذا الفصل. بل كان يحس إحساساً قوياً استغرق اهتماماته وكيانه بأنه مسؤول مباشرة عن مصير بلاده: شعباً وأرضاً وعقيدة وتاريخاً وحاضراً ومستقبلاً، دنيا وآخرة. لم يكن هناك أي سبيل للتخلص من هذا الشعور الذي يتعاظم مع تقدم السن، وتفاقم المخاطر المحدقة بهذا المصير الجماعي.

– مما يطمئنني إلى سلامة هذه الأحاسيس والمشاعر أنني لا أطمح إلى مكسب دنيوي. كل ما أتمناه في آخر المطاف وبعد تسوية الأوضاع أن أعتزل الحياة العامة، وأن آوي إلى جبل مثل جبل الزاوية، لأتفرغ للقراءة والكتابة وحسب! ما الذي يمنعني أن أعتزل الناس منذ زمان، وأن أحقق هذه الأمنية الغالية؟

في الحقيقة أن الجواب جاهز، ولطالما طرحه حسان

على الكثيرين ممن خطر لهم هذا الخاطر، وأرادوا الانسحاب من أداء الواجب. كان يحكي لهم المثل التالي:

– كان هناك أخوان أحدهما عابد زاهد يقضي عمره في صومعة، يعتزل الناس ولا عمل له إلا العبادة وذكر الله، والآخر يعمل حذاء. في إحدى المرات جاء الزاهد يزور أخاه الحذاء في الدكان، فالتمس منه الحذاء أن يحل محله ريثما يؤدي صلاة العصر في المسجد ويعود إليه، فحاول الزاهد أن يتملص من هذه المهمة لجهله بشؤون العمل، ولرغبته بعدم مخالطة الناس أو الزبائن، لكن إلحاح أخيه الحذاء اضطره إلى القبول مكرهاً. فلما انصرف الحذاء جاءت امرأة شابة تريد شراء حذاء لها من هذا الدكان، فحاول الزاهد أن يتهرب من تلبية طلبها، بحجة جهله وأنه بديل مؤقت لصاحب المحل، لكنها سخرت منه ومن محاولاته الضعيفة للتهرب من أداء واجب عليه تجاه أخيه الذي ينفق عليه، ويوكله بعمله ويأتمنه على محله، كما سخرت من خوفه منها وهي امرأة. تجاه هذه الضغوط اضطر للمسايرة، فأنزل لها حذاء بعد حذاء من على الرفوف، وهي تلزمه بأن يخلع الحذاء بعد الحذاء من رجلها، وأن يلبسها الحذاء بعد الحذاء، وخلال انهماكه بعملية الخلع والإلباس راقه منظر ساقها الرشيقة البض، وغفل عما وراء هذا الميل أو الإعجاب بجسد امرأة غريبة عنه. في هذه الأثناء وصل الحذاء صاحب الدكان ولاحظ انشغال أخيه الزاهد بتأمل جمال الساق عن حسن الحذاء وملاءمته لقدم المرأة، فارتبك الزاهد، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وصار يلوم نفسه على ما فرط، فبادر

أخوه إلى تأمين طلب المرأة، وصرفها بحكمة البائع المحنك في معاملة الناس جميعاً، ثم قال لأخيه الزاهد:

– يا أخي. التقوى الحقيقة ها هنا بين السيقان، وليست بين الجدران!

رفع حسان رأسه عن الطعام، وقلب نظره في جدران الزنزانة الأربعة وقال:

– وهذه أيضاً جدران. أليس كذلك؟!

وضحك من غير أن يعض على لسانه بين الفكين، لأنه كان في يقظة تامة. وكان قد فرغ من تناول الطعام، المؤلف من صحن رز مع فاصوليا خضراء وخصلة عنب. استمتع بمنظر حبات العنب أيما استمتاع. ومضغ حباتها بهدوء، كأنه يريد تذوق ذراتها واحدة واحدة، وود لو كانت كمية العنب أكبر، ففضلاً عن متعة مضغها يحتاج حسان إلى نسبة غير معتادة من الخضروات والفواكه لتسهيل عملية الهضم لديه، ولتجنب نوبات القبض التي تعتري أمعاءه بين شهر وآخر في الأحوال الطبيعية، أما في أحوال السجن فالمتوقع أن تكون الحال أصعب بسبب القلق من جهة، وبسبب قلة المشي والتنقل من جهة ثانية.

قام وتمشى في الزنزانة، انتظاراً لدوره في الذهاب إلى دورة المياه، لغسل الأيدي وتنظيف الصحن البلاستيكي ومائدة البلاستيك وكوب الماء وكوب الشاي البلاستيكيين أيضاً وقطعة اسفنج بلاستيكية.

– يعيش عصر البلاستيك!

لم يشغل البلاستيك من اهتمامه حيزاً كبيراً، كان هناك شيء آخر يشغل باله على المدى القريب والمدى

البعيد:

(عجل يا شيخ. غيرك ينتظر.)

– ما أصعب الانتظار. وأي انتظار؟ انتظار الدور للذهاب إلى دورة المياه. ما الذي جاء بي إلى هذا المكان؟ لا أحد. أنا ألجأت نفسي إلى ذلك، ومن سار على درب وصل. وصل إلى أين؟ إلى هنا! الحمد لله على كل حال، ونعوذ بالله من حال أهل النار.

هذا دعاء تعلمه من شيخ قرية (بداما الصغيرة)، وهو في نظر حسان من الشيوخ الصالحين المغمورين الذين يحصلون علمهم بجهدهم الخاص، ويهبون أنفسهم وحياتهم لخدمة مجتمعهم. خدمة الآخرين.

قضى حسان عطلة الصيف لعام 978 في هذه القرية معتزلاً الناس ومعتكفاً لتحضير رسالة الدكتوراه، ومع ذلك لم يأسف على الساعات التي قضاها في لقاء هذا الشيخ الشعبي الصافي المتواضع. رجل مسن تجاوز الثمانين، وخط الشيب لحيته وشعر حاجبيه، ولم يذهب بألق عينيه الكستناويتين، ولا بابتسامته المشرقة على الدوام. لباسه لباس العلماء من عمامة وجبة، لكنه ينم عن بساطة وذوق ريفي طبيعي. هو قصير القامة، لكن حين يتحدث يعلو في نظر حسان، وتطول قامته كثيراً كثيراً. قصصه كلها في تقوى الله تعالى وحب الأنبياء والصالحين، وفي خدمة الناس ونصحهم، وعدم الخوض في مشكلاتهم، والعفو عن زلاتهم وأخطائهم.

– هذا الشيخ أعاد إليّ الثقة بنظافة الريف من آفة الزيف المنتشرة في المدن الكبيرة: الكذب. الغش. الرياء. الغدر. النفاق. اللصوصية. وأعاد إلي الثقة بأن

كمية العلم مهماً كانت قليلة يمكن أن تجدي ما دام العمل أو التطبيق يصحبها. لم يكن متحدثاً بليغاً، ولا خطيباً مفوهاً، بالعكس كانت آثار السنين في أسنانه وفكيه تأكل بعض النبرات والحروف. ومع ذلك كان ذا أثر كبير في مجتمعه الصغير وفي نفسي أنا. أنه لا يأنف أن يأكل من عمل يده، ولا أن يمسك بالمعول أو المسحاة أو السلة في حقله. ومع ذلك يتاح له أن يعود المرضى، ويتفقد الغائبين، ويهنئ بالأفراح، ويقدم الهدايا. إنه مدرسة قائمة بذاتها. لا ينازع غيره على المناصب ولا ينازعه أحد على منصبه. لكم وددت أن ينهج العلماء الشباب مثل هذا المنهج، لا يهاجرون من الريف، ولا ينقطعون عن الناس والعمل الميداني.

عبارة (غيرك ينتظر) خرجت مع حسان، إلى دورة المياه، فتعمد التعجيل لئلا يتعب غيره، وعادت معه إلى الزنزانة ثانية لما عاد. ولما استدار لإغلاق باب الزنزانة ابتسم في وجه الحارس النشيط ليشعره بأنه هذه المرة لم يتأخر في دورة المياه، فابتسم له الحارس أيضاً.

صورة الشيخ مصطفى لم تبارح بعد مخيلة حسان، وصارت تتحرك مع تحرك عبارة (غيرك ينتظر).

– الله يذكرك بالخير يا شيخ مصطفى. سقى الله تلك الأيام التي قضيتها في قريتك، وتلك الساعات الربانية التي أمضيتها في لقاءاتك ترى هل يصل سيف الاضطهاد إلى معقلك الريفي الصغير؟ أرجو ألا يصل. وما شأنهم بك وأنت على حافة القبر. لا تتدخل بشؤون السياسة إلا بمقدار ما يتدخل القمر في دهاليز

المناجم؟

(عجل يا شيخ غيرك ينتظر)

– وهل جاء بي إلى هنا إلا الاهتمام بالآخرين. والدفاع عنهم، والعمل للصالح العام؟!

نظر حسان إلى حركة أشعة الشمس المطلة من النافذة الخلفية، فوجدها قد انتقلت من قفا باب الزنزانة إلى الجزء الأيسر من الجدار المحيط بالباب، فقدر أن أوان صلاة الظهر قد حان، ويخشى أن يداهمه وقت العصر بعد قليل. فبادر إلى أداء الصلاة وقراءة ما يستطيعه من كتاب التفسير.

– هنا داخل الزنزانة لا ينتظرني أحد. أصلي متى أريد، وأقرأ متى أريد، وأنام متى أريد. إلا إذا أراد المحققون أو الحراس شيئاً آخر!

عاد حسان إلى تفسير سورة "العنكبوت" واستوقفته العبارات التالية:

" نرجح أن السورة كلها مكية... أما تفسير ذكر الجهاد فيها فيسير. لأنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة. أي جهاد النفس لتصبر ولا تفتن. وهذا واضح في السياق... والسورة كلها متماسكة في خط واحد منذ البدء إلى الختام"

– إذن اصبري يا نفسي. إذا صبرت على السجن والغربة والاضطهاد فأنت نفس مجاهدة. وإذا لم تصبري أنت، فسوف أحملك على الصبر، وأجاهدك حتى تصبري فما رأيك؟!

يا نفسُ واللهِ لِتصبرنَّهْ   لِتصبرنَّ أو لِتُكرَهِنَّهْ

مالي أراكِ تكرهينَ الجنةْ؟

إن تعليل المؤلف بأن السورة كلها مكية

أعجبتني، لا لأنه أحسن في تسمية تصبير النفس ومجالدتها جهاداً وحسب! بل لأنه يلحظ سياق السورة. والسورة –كما أشار المؤلف في أكثر من موضع– كل متكامل. إن لكل سورة من سور القرآن، شخصية مميزة! شخصية لها روح يعيش معها القلب، كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس! ولها موضوع رئيسي، أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص. ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو. ولها إيقاع موسيقي خاص –إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة.. وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً، ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور ولا قصارها.

مفهوم أن يكون لكل إنسان شخصية، ومفهوم أن يكون لكل مخلوق من عالم الحيوان أو النبات أو الجماد شخصيته. أما أن يكون للنص الأدبي، للنص القرآني – وهذه حقيقة مؤكدة – شخصية فأمر يثير العجب!

والأعجب أن شخصية السورة الواحدة تتكامل مع بقية السور في الجزء الواحد من الثلاثين جزءاً، فتؤلف شخصية أوسع ضمن الجزء، ثم تتكامل الأجزاء الثلاثون لتؤلف شخصية واحدة أشمل هي شخصية القرآن الكريم.

هذا سر رباني: وحدة الأجزاء لا تلغي وحدة الجزء أو شخصيته، وعظمة هذه الحقيقة ليست في مدلولها الجمالي وحسب! بل في مدلولها الشمولي الذي ينتقل إلى عالم الجماد والنبات والحيوان والإنسان. فمن سنن

الله في خلقه أن تتوازن المخلوقات والكائنات وتتناسق فيما بينها، وبمعنى آخر أن لا تطغى شخصية مخلوق على آخر أو على آخرين بعدوان أو مسخ أو خسف أو نسف، كما يفعل القوي الظالم بالضعيف المظلوم، وإذا تعاظم الطغيان كان الخراب.

ألهذا السبب أراني أكره الظلم والطغيان؟ أي أن تأملاتي الجمالية والفنية ساقتني إلى اختبار عقيدتي في الحياة؟! هذه مسألة شائكة لا محل لها الآن. المحل هنا لراحة الأعصاب، أو البحث عن مخرج بسلام، وإن لم يكن خروج، فليكن الابتلاء من الله. هل في ذلك شك؟ لا شك، ولكن ليطمئن قلبي.

فتحت الكوة الحديدية، وأطل الحارس قائلاً:

– هل أنت قرعت على الباب؟!

– لا!

أغلق الكوة وانصرف. تساءل حسان:

– هل هذا سؤال محدد؟ أظن ذلك.

فتحت كوة الباب المجاور. جرى حوار بين السجين والحارس يفهم منه أن ساكن الزنزانة الأخيرة "13" قد هوى على الأرض بشكل قوي. فتح باب الزنزانة المذكورة. نادى الحارس زملاءه بصوت مضطرب. هرع عدد من الحراس، حملوا السجين. نقلوه خارج الرواق.

فكر حسان:

– ماذا جرى لساكن الزنزانة "13"؟ إغماء. أم انتحار. أم مرض، أم تمثيل؟

ما أظن. هل هو همام أم ساكن آخر؟ سوف أعلم بعد حين. وماذا لو علمت؟ هنا لكل سجين شخصيته المستقلة ما لم يتضامنوا، ولماذا التضامن؟

عاد حارسان يتمشيان في الممر، سمعهما حسان يتحاوران بصوت خفيض:

– قبل قليل كنت أتكلم معه؟

– عجيب! ماذا جرى له؟

– ما أدري. الطبيب سوف يقرر ذلك.

– أما رأيت شحوب لونه؟

– نعم.

– هل أكل أو شرب شيئاً غير طبيعي؟

– ومن أين يأتي بالشيء غير الطبيعي؟!

– يا ستار.

– يا رب استر.

جاء حارس ثالث، وبشرهم قائلاً:

– بسيطة. قال الطبيب: الحالة عادية، لا خوف عليه.

– الحمد لله.

قال حسان في نفسه:

– يعيش الطب.

في سجون بلادنا أيضاً أطباء. لا لإسعاف المرضى من السجناء، بل لتقدير درجة احتمال السجين للتعذيب بالتيار الكهربائي، أو الضرب بالأدوات الحادة كالبلطة والساطور، وابتزاز المعلومات، أو تلفيق التهم، وليس هناك ممنوع إلا الموت، لا رحمة بالسجين، بل الخوف من انقطاع مصدر المعلومات غالباً: إن مات السجين. وهو في الوقت نفسه سلعة، يشتريها أهله بالنظر إليها لكل زيارة، أو بالإفراج لقاء فدية ضخمة. وكم سجين مات تحت التعذيب!

جاري بخير. أنا إذن بخير.

مد حسان يده وضرب أسفل الجدار المجاور ضربة

واحدة بقبضته: فرد عليه ساكن الزنزانة بضربة واحدة.

– أنت بخير إذاً. الحمد لله. أنت بالتأكيد لست واحداً من جماعتنا، ولكن ليعم الخير كل الناس، فما المانع؟

هل حبي الخير للناس هو الذي دفعني لمحاولة وقف الانهيار العام في بلدي، مع يأسي من إمكانية وقف ذلك الانهيار؟!

تذكر حسان حاله وحال بلده في أواخر شهر نيسان من عام 979. كان قد مضى على احتلال المخابرات لمنزله مدة أسبوعين، وكان يقضي أيامه ولياليه مطارداً متوارياً في بيوت تلاميذه ومعارفه، وكانت كل ليلة تمضي باعتقال مجموعة جديدة من زملائه وأصدقائه وأبناء بلدته، وهم النخبة والصفوة في العلم والأدب والعمل والخدمة الاجتماعية، وكانت الأخبار تصله عما يجري في السجون من تعذيب وحشي، وعما يجري في احتلال البيوت من سلب ونهب وحجز للحريات. كان يدرك إدراكاً يقينياً بأن هذه الإجراءات التعسفية المتعاظمة سوف تؤدي إلى الانفجار العام، الانفجار الذي ربما يحرق الأخضر واليابس، الانفجار الذي لا يمكن تلافيه أو تلافي آثاره المدمرة، فقرر أن يبادر بمحاولة مهما كان حظها من النجاح، فاستشار أخاه عابد المتواري معه في جدوى المحاولة، وهي كتابة رسالة موجهة إلى رجالات المدينة ومسؤولي السلطة، تدعو إلى تحكيم العقل والمصلحة العليا ووقف التجاوزات، فوافقه عابد على ذلك، وتطوع بكتابة العناوين إلى محافظ حلب ورئيس المخابرات

ورئيس الشعبة السياسية وعدد من مسؤولي الأمن، وإلى رئيس المجلس المحلي، وإلى رؤساء فروع النقابات العلمية والمهنية كالأطباء والمحامين والمهندسين والقضاة والمعلمين وفروع نقابات العمال والفلاحين والتجار وأمثالهم. وإنه ليتذكر نصها حتى الآن:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى كل من يهمه الأمر من رجالات البلد والمسؤولين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فنحيطكم علماً بأن عناصر المخابرات وقوى الأمن قد عمدت منذ أكثر من أسبوعين لمداهمة بيوت عدد كبير من المواطنين لاعتقالهم، وإذا لم تجدهم احتلت بيوتهم مع من فيها من النساء والأطفال، أو أخذت ذويهم رهائن، خلافاً لكل عرف وقانون. وهؤلاء المواطنون من خيرة أبناء البلد المشهود لهم بالاستقامة والتفوق في مجالات اختصاصهم، فيهم الأطباء والعلماء والمهندسون والمدرسون والطلاب والعمال، كما سوف تلاحظون من أسمائهم التي نوردها لكم في آخر الكتاب.

إن تصرفات الأجهزة المذكورة قد جاوزت كل الحدود والممارسات السابقة من حيث اتساع دائرة الاعتقالات، ومن حيث احتلال البيوت الآمنة الشريفة، ومن حيث إخضاع المعتقلين والرهائن لأنواع التعذيب الرهيبة. وقد أشرف بعضهم على الهلاك.

وبالمناسبة نحيط رجالات البلد علماً بما يجري في الخفاء من فظائع حتى يكونوا على بينة من الأمر، فيبذلوا جهدهم لوقف المأساة قبل أن تبلغ مداها الأخير، كما نحذر السلطة من الاسترسال في هذه

الممارسات لأن صبر المواطنين له حدود.

نحن ندعو إلى تحكيم العقل والمصلحة العليا، وتدارك الأمر قبل أن يتفاقم، وإلا فإننا نحذر أن تنقلب أوضاع مدينتنا التي ما تزال هادئة في الظاهر، فيحدث فيها مثل ما حدث في مدينة حماة. وقد أعذر من أنذر. والسلام عليكم.

التوقيع

مواطن حلبي

وبالفعل استجاب رجالات البلد لهذا النداء، وطالبوا بالكف عن هذه الممارسات، فردت السلطة بأنها تلاحق الذين يمارسون العنف ضدها، فطالبها المحامون ورجال القضاء باتباع الطرق القانونية، ورفع الأحكام العرفية التي أخضعت لها البلاد سبع عشرة سنة، وهناك من واجه ممثلي السلطة بأسئلة واضحة محرجة جداً.

– من الذي بدأ العنف؟

– لماذا لم يظهر هذا العنف منذ عهد الاستقلال إلا في ظل هذا العهد؟

– لماذا يتهم أصحاب الأدمغة والكفاءات باقتراف العنف؟

– إذا صح أنهم هم المسؤولون عن هذا العنف، أليس في ذلك مؤشر على الحوافز التي دفعت هؤلاء إلى تكسير أقلامهم ومحابرهم واتباع طرق لم يألفوها.

– ما تفسير هذا التأييد الشعبي الواسع لهذه المعارضة؟

بدأت تعتري حسان حالة من الانتعاش النفسي، جعلته ينسى جدران السجن، وتلقيه في لجة الغضب

الشعبي الذي كان يرصد تطوراته لحظة لحظة، وكانت كل خطوة من تلك التطورات تؤكد توقعاته وحساباته، فقد تحركت المنظمات الشعبية كالنقابات العلمية –المهنية وفي مقدمتها نقابة المحامين، وجسدت الغليان الشعبي بندوات ومؤتمرات واجتماعات نقابية أولاً، وشعبية ثانياً: تنتقد مجمل أوضاع السلطة لا عمليات القمع وحسب، وتقدم مطالب وحلولاً جذرية لأزمات البلاد المستحكمة مثل:

1– إلغاء قانون أحكام الطوارئ.

2– إطلاق الحريات العامة، وإطلاق سراح المعتقلين.

3– وقف أعمال القمع والإرهاب وسحب الجيش من الشوارع.

4– إقامة مجلس تشريعي منتخب بشكل آخر.

ولما لم تستجب السلطة لأي مطلب من هذه المطالب نفذت النقابات إضراباً ليوم واحد تأكيداً لمطالبها. فإذا الشعب يعاضدها بإضراب عام استمر مدة أسبوعين في المحافظات الشمالية، فبادرت السلطة إلى إرسال مندوبيها لتهدئة الأوضاع، والتظاهر بالسماع لمطالب الجماهير الغضبى.

في دير الزور قال أحد الصيادلة للجنة الزائرة من القيادة القطرية للحزب الحاكم حين اجتمعت بأعضاء النقابات وممثليها:

– إن معظم المجاهدين من أبناء هذا الشعب، وهم شباب، أعمارهم تتراوح بين "20– 30" سنة. وهم ممن اكتووا بنار التسلط القمعي.

أما في مدينة ادلب فقد تصدى للجنة السلطة نجيب الشاوي (أمين فرع الحزب الحاكم) قائلاً: –نحن في

ادلب تجمعنا القرابة، وتصدينا لأي إنسان أو قتله تمتد آثاره السيئة إلى أجيال. ولذلك لن نقدم على هذا. المواطنون المعارضون لا يعادون الحزبيين، وإنما يطلبون من الرئيس أن يستقيل، واستقالته أفضل، ومجابهة الشعب لا تجدي.

وفي اجتماع الفعاليات في حماة قال الدكتور خضر شيشكلي لرجال السلطة:

– بدلاً من أن تدعوا الزوار السياسيين والسياح لمشاهدة خرائب مدينة القنيطرة.. أقترح أن تدعوهم لمشاهدة خرائب مدينة حماة على أيديكم.

أما مدينة حلب التي عاش فيها حسان، فقد وفدت عليه أحداثها المزدحمة، فمد يده في الفراغ، وفتح باب قاعة الاحتفالات في جامعة حلب، حينما كانت الجامعة في غضب شديد بسبب اعتقال أحد أساتذتها المختصين الدكتور حسن محمد حسين (وهو من أصل فلسطيني) وأخذ ينصت باهتمام وإعجاب بالغ لكلمات أساتذة الجامعة قال أحدهم:

– إننا لا نرضى أبداً بهذه السياسة التي تنتهجها الدولة من أساليب مختلفة في التعذيب، لتجبر المعتقلين على الاعتراف، وأنا أول الذين يقرون بأنه من قادة التنظيم! إذا (ضرب عصايتين)... يا دكتور حامد لقد كذبوا عليك عندما اتهموا الدكتور حسن بالباطل... كما كذبوا عليك من قبل عندما قالوا: سنأخذه نصف ساعة ثم يعود!! إنني أطالب بعدم العودة إلى التدريس حتى يعود الزميل الدكتور حسن. (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون(.

التهبت القاعة بالتصفيق الحاد، فرفع حسان يديه،

ووضعهما على أذنيه، وحدق في ملامح المدرس الذي نزل عن المنبر ليعطي الدور لغيره، وأراد أن يتأكد حسان فيما إذا كان هذا المدرس الأنيق الأشقر الناعم يمكن أن يحتمل وطأة الاعتقال أو التعذيب.

قام أستاذ آخر، وقال:

– لم يعد أحد منا يصدق ما يقولونه.. لقد قال الرئيس في المؤتمر القطري السابع: إن هؤلاء المتهمين عملاء لكامب ديفيد، وهذا يعني أن زميلنا الدكتور حسن عميل! والعميل يكون على درجة من الغنى... ولكن هل تعلمون أيها الأخوة أن الدكتور حسن لا يملك حتى سجادة، وبيته بالإيجار! أيها الزملاء.. تعلمون أن إسرائيل تملك عدة مفاعلات نووية، وقد دخلت في مجال القنابل الذرية، وهي تنفق الملايين على العلماء في هذا الاختصاص... وهذا الدكتور حسن... دكتور في الفيزياء النووية، ونحن نرميه في أقبية السجون! لماذا لأن المخابرات أرادت ذلك؟! إنني أضم صوتي إلى زميلي الدكتور الذي تكلم قبلي بعدم دخول أي محاضرة حتى يعود الدكتور حسن.

قال حسان: –وأنا نصف بيتي لزوجتي. ونصفه الثاني سددت دينه بالأقساط من حصيلة الدروس الإضافية والخصوصية. فماذا تصنع زوجة الدكتور حسن وأطفاله من بعده؟!

قام أستاذ آخر يتحدث من مكانه، ولا يكاد يرى إلا رأسه الأصلع لشدة الزحام، فقال:

– تعرفون قصة صديقي الذي اعتقل منذ سنتين، ووضع أكثر من سنة في السجن الانفرادي مع تعريضه لعذاب مستمر، فخرج من السجن مختل العقل، فاعتذروا

له قائلين: عفواً! لقد أخطأنا معك! وأنا أخشى أن يكون هذا مصير الدكتور حسن، وأتوقع أن يكون الآن في سجن تدمر العسكري الصحراوي.

انفجرت القاعة بموجة ضحك جماعي، ثم بتصفيق ذي لحن خاص. تابع المتكلم:

– لذلك أقسم والله ثم والله لن أعود إلى التدريس حتى يعود الدكتور حسن وإني أناشد كل الزملاء أن يضموا أصواتهم إلينا.

قال حسان:

– نعم أذكر حادثة صديقه الدكتور طبيب الأعصاب والأمراض العصبية، وعيادته في وسط مدينة حلب، ولافتة سوداء مكتوب عليها بالخط الأبيض: الدكتور أحمد طليمات.

التفت رئيس الجامعة إلى أحد الأساتذة، وقال له كلاماً ينقله عن رجال السلطة الذين قابلهم في دمشق، فهب الدكتور المقصود صارخاً:

– أنا لست جاسوساً. أنا لست صهيونياً، ولست عميلاً!! إنني مواطن ولي الحق الكامل في أن أمارس حريتي، اعلموا أن الكلب في الشارع يشبع لقمته، ونحن لن نجوع إذا طردنا من الجامعة، ولكن اعلموا أن الشعب لا الحكومة هي التي أنفقت علي، ولذا فأنا خادم الشعب. وأنا برغم التهديد أطالب بالإضراب متضامناً مع زملائي حتى يعود الدكتور حسن.

فاستقبل كلامه بتصفيق أشد. وكان الملاحظ على ملامحه أنه من أصل ريفي. على خده وشم أزرق. وفي جبينه تجاعيد الحياة المضنية التي قضاها منذ طفولته المبكرة. بشرته سمراء، وشعره مفلفل.

ثم نهض دكتور خامس طويل القامة، أبيض البشرة، شعره أحمر، عيناه زرقاوان، في مقتبل العمر، فقال بلهجة حزينة حموية:

– يا إخوان.. سأذكر لكم حادثة وقعت في حماة... لقد دخل رجال السلطة منذ أيام أحد البيوت، وأخرجوا من فيه من الرجال، وأداروهم على الحائط وبدأوا برشهم، فقتل ثلاثة فوراً، وسقط جريحان، استقر في جسد أحدهما عشرون رصاصة! هل تذكرون ما حدث في حلب... في حماة... في جسر الشغور... هذا كله يجعلنا نشك في صدق الذي حملوك يا رئيس الجامعة! نحن نعلم أنهم كذابون، ولم يبق لنا ثقة بأحد من هؤلاء، وإني أصر على الإضراب، وأناشد جميع الأخوة الزملاء أن لا يدخلوا أية محاضرة حتى عودة الدكتور حسن.

صفق الحاضرون له أيضاً تصفيق تأييد واستحسان.

ثم قام مدرس كهل ذو هيبة وشيب في شعره، يمشي بخطوات موزونة. فسكت الجمع الحاشد إجلالاً له، وانتظاراً لكلام هام يتوقع أن يصدر عنه، فقال:

– أناشدكم أن تتخذوا موقفاً جماعياً بالإضراب حتى لا يتميع الموضوع والسلام عليكم.

رد جميع الأساتذة على شيخهم بالتصفيق الطويل الحاد، وكان حسان قد رفع يديه عن أذنيه، فأعاد وضعهما من شدة التصفيق. وأدرك أن رجاء هذا المدرس المسن بمثابة القرار الجماعي، فلم يعقب عليه أحد.

ما إن ذكر أحد الخطباء مدينة جسر الشغور –مسقط رأس حسان– حتى انفتح رواق جديد من أروقة الذاكرة. لاحت لعينيه المدينة وهو يقبل عليها من طريق حلب. وهي تستلقي على الأودية المنحدرة من

الجبال والتلال الغربية، لتغسل أقدامها في نهر العاصي، تحف بها الحقول والبساتين المزدانة بأنواع الفواكه والثمار اليانعة، وتحف بها أيضاً ست عشرة طائرة حوامة (هليكوبتر) ملأى بعناصر الوحدات الخاصة والمخابرات، حلقت في سماء المدينة تعلو وتهبط، وتدور من اليمين إلى الشمال وبالعكس بضجيج شديد...

ثم تمركزت في موضعين شبه متقابلين مشرفين على المدينة، الأول عند (معمل سكر الغاب) من الناحية الشرقية، الثاني عند (المحلة الشمالية) حيث سلطت المدافع على المدينة.

كان الوقت عصراً، والدخول إلى المدينة والخروج منها ممنوع بسبب تظاهرة البارحة فتوقف بصر حسان عند الحاجز الذي نصبته السلطة على المدخل الشرقي، يستمع إلى قصف المدفعية، حيث كان الصدام الأول مع أهل المحلة الشمالية وحيث سقط عدد من الضحايا من الطرفين.

استمر إطلاق النار متقطعاً في أرجاء المدينة حتى الليل. ها هو ذا محافظ ادلب توفيق صالحة يصدر تعليماته بتوجه قوة من الوحدات الخاصة، مؤلفة من ألف عنصر بمساعدة المخابرات إلى منطقة السوق لاحتلالها، نظراً لوجود مكتب الحزب وفرع المخابرات ومقر الجيش الشعبي بها، ولتمركز المقاومة الشعبية فيها.

بعد ساعة انفجرت المعركة عنيفة، وبدأ قصف المنازل وهدمها فوق ساكنيها بقذائف (الأر. بي. جي). اقترب حسان من غرفة عمليات السلطة في مخفر البلدة

القريب من الحاجز فسمع جهاز اللاسلكي يقول:
– شرعنا بهدم المنازل وإحراقها، لن نقف قبل تنفيذ الخطة، وقبل أن نحرق السوق بالقذائف الفسفورية. الضحايا كثيرة من الطرفين.
عربد توفيق صالحة وقال كلاماً ينضح بالحقد وبألفاظ الشتم والتجديف، ثم قال على اللاسلكي:
– اعتقلوا الأشخاص الذين سميناهم لكم، وكل من تصادفونه في طريقكم.
– ولو كان من غير المقاتلين؟
– نعم ولو كان.
– الرجال فقط؟
– الجميع. الجميع. وحتى النساء والأطفال.
هدأ القصف والقتال بعد منتصف الليل. انتقلت غرفة العمليات من "مخفر البلدة" إلى (مكتب بريد) ضمن المدينة، وشكلت محكمة ميدانية بحضور علي حيدر (قائد الوحدات الخاصة) و (وزير الداخلية) ناصر الدين ناصر، وعضوية (المحافظ) توفيق صالحة، وحمدو حجو (رئيس فرع الحزب بادلب) ومحمد أنيس (رئيس شعبة الحزب بالجسر).
كانت تسمع طلقات نارية متفرقة بين حين وآخر، وكانت ألسنة اللهب تتصاعد من منطقة السوق والمنازل المجاورة لها على ارتفاع عال، لم يشهد له حسان في حياته مثيلاً. ولشدة انتشار الحرائق واستضاءة ما حولها استطاع حسان أن ينقل بصره في نواحي السوق ومنعطفات الطرق المجاورة بين المنازل، فشاهد عدداً من جثث القتلى والجرحى الذين يتلوّون من شدة الإصابات، وخصوصاً على باب العيادة،

حيث منع الطبيب من إسعافهم. كما شاهد أكثر من سيارة شاحنة تنقل البضاعة المنهوبة من الدكاكين الكبيرة.

لفت نظر حسان اشتعال بيوت متفرقة في أحياء أخرى غير الحي المجاور للسوق، ولما تفحص مواقعها عرف منها منزل الأستاذ يحيى حاج يحيى، ودكان الشهيد سليم الحامض ومنزل خطيب الجمعة الشاب عبد الكريم النايف، ومنزل المعلم المحول إلى البلدية عبد الرحيم منصور. فقد دكت (بالأر. بي. جي). ثم أحرقت بالقنابل الحارقة، وفجرت فيها اسطوانات الغاز، أو سكبت فيها صفائح الكاز والمازوت.

سمع حسان أيضاً مكبرات الصوت المتصلة بمئذنة الجامع الكبير تنادي على أسماء ومواطنين ليسلموا أنفسهم مقابل تعهد بالأمان، منهم أئمة المساجد وخطباؤها، وعدد من قادة الرأي والفكر في المدينة، وبعضهم من أصدقائه وتلاميذته أو أقاربه، فأمسك قلبه بيده بعد أن ظن أن لا قلب له مما يرى ويسمع.

ولما رأى مجموعات من المواطنين مقرنين بالسلاسل والأصفاد، انتزعوا بثياب النوم من بين زوجاتهم وذويهم، وسيقوا إلى المحكمة الميدانية في (مكتب البريد) لم يتمالك حسان من أن يدس نفسه في إحدى المجموعات، يشم عبير الأرض التي نبت فيها، وأنفاس المواطنين الذين رضعوا لبان المقاومة للطغيان في كل العهود، ودفعوا الثمن غالياً.

بدأت هذه المجموعات بالدخول إلى مبنى البريد، فيتم حشرها في قبو المبنى حيث يتلقون دون سؤال ولا جواب بسياط الأسلاك المجدولة وبأعقاب البنادق

والأحذية العسكرية تدعس الرؤوس، وقوائم المناضد الخشبية والحديدية تحطم الأرجل والظهور.

ها هو ذا الأب أحمد فاضل حلي بائع الخردوات البالغ من العمر خمسين عاماً، ترفع العصابة عن عينيه، وما تزال القيود الحديدية في يديه، والدماء تسيل من رأسه ومن تحت فتحتي بنطاله الرمادي المخضب ببقع الدماء، يدفع دفعاً عنيفاً أمام المنضدة التي تكومت حولها عصابة المحكمة الميدانية بين قاعد وقائم ومنحن على جاره، والسلاح بأيديهم أو على جنوبهم، قال له أكثر من واحد:

– أنت أحمد فاضل حلي؟

– نعم ماذا تريدون؟

– هل هذا ابنك إبراهيم؟

– أنا أعرف ابني ولكن هذا الإنسان لا ملامح له!

– هل هذا أبوك يا كلب!

– نعم. ماذا تريدون؟

تعجب حسان من صدور كلام من مخلوق مكوم جثة شبه هامدة في بركة من الدماء في زاوية الغرفة الملأى بالمسلحين وبدخان السجائر وزجاجات الخمر الفارغة وأجهزة اللاسلكي والخوذات الحديدية.

– هاتوا الكلب إبراهيم إلى هنا. قصوه بمقرض الحديد!

صاح الأب:

– خافوا الله. حرام عليكم!

– اسكت يا كلب. خل الله يخلصك ويخلص ابنك.

صاح الابن، وهو شاب لم يبلغ العشرين من عمره:

– الله أكبر. آخ. آخ. يا الله...

هجم الأب يريد تخليص ابنه من مقرض الحديد الذي يستخدمه الحدادون وعمال البناء في تقطيع قضبان الحديد، فهجم عليه أحد المسلحين بعقب البندقية وضربه على مؤخرة رأسه ضربة قوية، فسقط يتخبط بدمائه بينما كان الابن يلفظ أنفاسه نفساً نفساً، كلما قطع عضو من أعضائه، وأعضاء المحكمة يتشفون ويشربون نخب العدالة.

لم يستطع حسان متابعة هذه المشاهد في المحكمة الميدانية، فقد سمع بالإفراج عن مجموعة من المعتقلين، فلحق بهم يريد التعرف على أشخاصهم، فقد يكون بينهم أحد أقاربه، وكل منهم جاره أو صديقه أو زميل دراسة، وما كاد يلحق بهم في ساحة طارق بن زياد حتى استقبلهم سيل من رصاص الوحدات الخاصة، فسقطوا يتخبطون في دمائهم.

تحسس حسان رأسه وجنبه وصدره، يتلمس مواقع الرصاصات الغادرة، ونظر في يده، فوجد اللون الأحمر قانياً –وهنا انشطر حسان إلى حسانين:

حسان السجين –ما هذه؟ دماء؟

حسان الطليق –بل مسك وعنبر!

السجين –هذا دمي.

الطليق –ودماء أحبائك وأقربائك!

السجين –أراك تبتسم، كأنك لا تحس بالمأساة!

الطليق –بل أحس بما بعدها.

السجين –ماذا بعدها؟!

الطليق –هل تتجاهل؟ أنت تعلم ما بعدها من نصر أو جنة عرضها السموات والأرضون.

السجين –ماذا؟ هل تزاود علي؟

الطليق –لا، أبداً، إنما أذكرك بما تعلم!

السجين –وما المناسبة؟!

الطليق –وهل تنكر مرارة الألم التي بدأت تتحول إلى مقدمات يأس عندك؟

السجين –تريدني أن لا أتألم؟

الطليق –لا، ولكن بلا يأس.

السجين –ماذا كانت حصيلة مجزرة بلدتي مسقط رأسي جسر الشغور؟

الطليق –إحراق عدد من الدكاكين والمنازل ونهب بعضها، وعشرات الشهداء والجرحى والمعتقلين والمشردين.

السجين –ماذا كانت عاقبة أساتذة جامعة حلب الذين غضبوا لاعتقال الدكتور حسن محمد حسين.

الطليق –اعتقال عدد منهم، واختطاف الدكتورين أدهم سفاف الحموي ونذير زرنجي الحلبي وتعذيبهم حتى الموت وطرح جثتيهما أمام باب داريهما.

السجين –وماذا كانت عاقبة المتكلمين في اجتماع الفعاليات في مدينة حماة؟

الطليق –اختطاف عدد منهم من بيوتهم ليلاً وتعذيبهم حتى الموت.

السجين –مثل من؟

– الدكتور عمر الشيشكلي والدكتور خضر الشيشكلي والدكتور عبد القادر قنطقجي والمزارع أحمد قصاب باشي.

السجين –وماذا فعلوا بهم؟

الطليق –عذبوهم حتى الموت.

السجين –عذبوهم حتى الموت: كلام مبهم. وضح.

الطليق –أنت تعلم ما جرى.

السجين –أريد أن أسمعها منك.

الطليق –هل تشك بذاكرتك!

السجين –بل أشك في قلبك المتحجر!

الطليق –أنا حزين مثلك وأكثر منك.

السجين –عدنا إلى المزاودة.

الطليق –لا مزاودة ولا ما يحزنون. كل ما أريده أن لا تجمع على نفسك مأساة بلدك ومأساتك الخاصة في هذا السجن.

السجين –إذن تعترف بالمأزق الذي أنا فيه!

الطليق –أنت تعرف تكاليف الطريق الذي سرت فيه!

السجين –هل أنت شامت بي!

الطليق –بالعكس أنا معجب بصبرك وثباتك حتى الآن.

ابتسم حسان الطليق كأنه يسخر من صاحبه، فابتلع حسان السجين السخرية بتجاهل وقال:

– تضحك لأنك صرفتني عن جواب السؤال السابق؟

– تقصد ما فعلوا بزعماء الفعاليات الحموية.

– نعم.

– اسمع إذن. بالنسبة إلى الدكتور عبد القادر قنطقجي طبيب الجراحة العظمية لا أعلم تفاصيل تعذيبه، ولكن أعلم أنهم ألقوا جثته بعد التعذيب على طريق الشيخ غضبان، على بعد ثلاثين كيلوا متراً عن مدينة حماة.

– والمزارع قصاب باشي!

– عمره خمس وخمسون عاماً. قلعوا أظافره وقطعوا

أصابعه قبل أن يقتلوه.

– والدكتور عمر الشيشكلي!

– ولا تعذب نفسك بإعادة التفصيلات التي تعرفها.

– لا تتهرب.

– عمره خمسة وأربعون عاماً. رئيس جمعية أطباء العيون في سورية. قلعوا عينيه، وألقوا جثته في حقل قرية مجاورة للمدينة.

– خضر الشيشكلي البالغ من العمر ثمانين عاماً؟

– هو أحد زعماء الكتلة الوطنية، وصاحب بيت الأمة أيام العمل ضد الاستعمار الفرنسي. حرقوه بصب الأسيد عليه في بيته، ثم نهبوا ما فيه من تحف أثرية.

– متى حصلت هذه الجريمة؟

– في شهر نيسان الماضي.

– أي بعد شهر من مجزرة جسر الشغور؟

– أنا لا أشك بذاكرتك

– شكراً.

– والنتيجة؟

– عندكا!

– لا بد من الصبر والمصابرة.

– أنت لا تقصدني. فأنا هنا بين الجدران برغم أنني صبرت أم لم أصبر. أما الآخرون: الشهداء، المعتقلون، المشردون... ذووهم، وما أكثرهم!...

– الأنبياء والرسل أحب الخلق لله تعالى، ومع ذلك عانوا من أقوامهم الأمرين حتى نشر بعضهم بالمناشير كالنبي زكريا –عليه السلام– وقدم رأس

النبي يحيى للراقصة سالومي. ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم– لقي التكذيب والتجويع، كما جرح في خده الشريف وسال دمه، واستشهد عدد كبير من أصحابه في حياته وبين يديه وأحبهم إليه حمزة بن عبد المطلب –رضي الله تعالى عنه.

– هل نحن على حق، على درب الأنبياء والشهداء!

– هذا هو الظاهر.

– والحقيقة؟

– ليس المسؤول بأعلم من السائل؟

– لماذا تتحمس للقضية إذن كل هذه الحماسة؟

– وهل أملك أو تملك غير ذلك؟

– تملك المراجعة للحسابات، وتدقيق النظر في موطئ القدمين، وفي طريق المسير، وفي الهدف أو النتيجة التي ينتهي إليها.

– قد فعلت!

– وإلى أي شيء وصلت؟

– إلى مثل الذي وصلت إليه أنت.

– أعترف أنني أعيد النظر بعمق وبكل شيء.

– وأنا مثلك

– فعلى أي شيء نختلف؟

– نختلف في أنك تخضع لضغوط السجن، فتغمرك موجات الألم الشديد التي تتحول شيئاً فشيئاً إلى يأس أو شك أو قنوط

– عدنا إلى المزاودة.

– هذه حقيقة فلا تكابر.

– اغرب عن وجهي.

– لم أحضر بأمرك، حتى انصرف بإمرتك.

تأزم الموفق بين حسان الطليق وحسان السجين، لكن كل منهما كان يخفي للآخر شعوراً بالإعجاب. فحسان الطليق يكبر في حسان السجين معاناته في أيام السجن، وحسان السجين يكبر في حسان الطليق ثباته على المبدأ، وعشقه للقيم العليا التي لا تجامل في الحق، ولا تسكت على الظلم.

-2-

في عصر هذا اليوم الأحد هبطت درجة الحرارة الصيفية مع ميل الشمس عن قبة السماء. بدأت حركة الناس في المدينة تنشط بعد هدوء الظهيرة. ترامت إلى مسامع نزلاء الزنزانات أصوات السيارات العابرة، لا سيما السيارات الصغيرة المستعجلة وغير المستعجلة، تحمل المتنزهين والسياح. بدأ السجناء يستيقظون. يستأذنون في الخروج إلى المغاسل. أغلقت الكوى الحديدية في الأبواب.

لما رفع مجاهد رأسه عن وسادته في الغرفة رقم (6) رأى في ضجة الناس خارج الزنزانة تظاهرة شعبية ضخمة تحاصر الأسوار وتتسلقها: الطلاب والعمال في الطليعة والمحامون وأساتذة الجامعات وراءهم وبقية المواطنين يتدافعون من كل مكان. كلهم تظاهروا لتحطيم الظلم وإطلاق سراح الأبرياء المظلومين.

- هل يعقل ذلك؟ نعم أنا أتوقع ذلك وأكثر منه.

هكذا قال مجاهد في نفسه. هب واقفاً. شمر عن ساقيه. ربط أطراف (جلابيته) الزرقاء على شكل زنار حول خصره النحيل. تأمل قامته فوجدها أطول من قامة شريكه سليم. وثب بخفة إلى أعلى الجدار الخلفي. تعلق بقضبان النافذة الخلفية المطلة على العالم

الخارجي من وراء الأسوار وفوقها.

– يبدو أنني كنت واهماً. أين التظاهرة؟ ليس إلا السيارات والناس العابرون. الضجة تأتي من جهات عدة. من أعماق المدينة ومن هذا المكان الذي يلتقي فيه عدد من الشوارع العريضة. ليس في واحد منها أي تجمع يلفت النظر.

شبع من النظر إلى المدينة والشوارع القريبة. تأكد من خطأ أوهامه. تعبت يداه من التعلق بقضبان النافذة الحديدية. أرخى قبضتي يديه يريد النزول. أحدث نزوله على أرض الغرفة ضجة أفاق على أثرها سليم. انفتح باب الزنزانة في الوقت نفسه. ظهر الحارس الخفيف الأسمر. فوجئ مجاهد بظهوره. توقع مشكلة. تساءل:

– هل رآني؟ هل أحس بي؟ الله يستر؟

وقف الحارس مبتسماً يتأمل السجينين. أحدهما واقف مذهول. الآخر ينهض من فراشه وهو يفرك عينيه.

– استعدوا للتصوير. جاء دوركم. أي واحد منكم مستعد؟ تعال أنت.

كان المقصود مجاهد لكنه لم يكن راغباً بالتصوير. ولم يكن راغباً أو قادراً على الرفض.

– إنني سجين. لعله ضبطني أيضاً وأنا متسلق على الجدار أتطلع من خلال النافذة.

بشكل آلي تحرك مجاهد صوب الباب. مشى خلف الحارس الخفيف. أشار له بالجلوس على الكرسي في الممر أمام المصور الشاب. ناوله لوحاً أسود صغيراً، ليكتب عليه اسمه ويضعه على صدره وقت التصوير.

قرأ عليه اسم من كان قبله (حامد أبو الفضل).

– انه اسم خالي الذي هو أبي. إذن هو ما زال هنا.

أحس بفرح خاص لوجود والده قريباً منه، وبشيء من العزاء. إن أباه وإخوانه مشتركون معه في مصيبة التصوير.

بعد أن فرغ المصور الشاب من استعداداته وإعطاء تعليماته... قال مجاهد في نفسه:

– لا بأس فليأخذ صورتي. شعري بلا تمشيط ثوبي مكسر. ها أنذا أنفخ خدودي وأجحظ عيوني. اللوحة خفضتها إلى نصف صدري الأسفل و... عاشت المقاومة.

– انتهت عملية التصوير، وبدأت حفلة النظافة.

قال ذلك الحارس الخفيف، وشرع بفتح الزنزانات بالدور، ليقوم سكان كل واحدة منها باستلام السطلين البلاستيكيين مع علبة الصابون المذرور (تايد). ومجرفة مطاطية ذات عصا. وقطعة من نسيج القطن الغليظ للتنشيف.

لم تكن حصة سكان الزنزانة رقم (6) تنظيف غرفتهما وحسب! بل كان دورهما في الأخير، كما كان مطلوباً منهما تنظيف الممر أيضاً.

– يا الله. يا شباب. استلموا أدوات التنظيف.

تجرد المجاهد من ثيابه ما عدا سرواله الذي يغطي نصفه الأسفل. بدا صدره عارياً بكتفيه العريضتين الرياضيتين. لم يكن جسمه ممتلئاً. بل هو أقرب إلى النحول. ذو لون برونزي مزيج من لونه الأسمر ومن قبلات الشمس المديدة في مسابح الصيف. سليم تجرد من كل ثيابه ما عدا سرواله الأحمر القصير جداً. لشدة قصره وضيقه ارتسمت أشكال أعضائه الأمامية

والخلفية بوضوح. كان هزيلاً جداً. أشبه بهيكل عظمي، أخرج من أحد القبور إلى منضدة التشريح في كلية الطب البشري.قال في نفسه:

– ماذا يضيرني لولا مراعاتي لشعور مجاهد شريكي لخلعت ورقة التين أيضاً. تسقط العادات والتقاليد البورجوازية.

افتتح السجينان الحفلة بالتراشق بحفنات الماء النقي البارد. كان الحارس الخفيف متوارياً عنهما خارج الرواق غير بعيد. إنه يعرف حاجة السجناء، للمزاح والمرح. وهم يعلمون فطنته وحسن تصرفه. لا يقسو عليهم، ولا يتجاوزون الحدود. أمسك مجاهد بالمجرفة، وشرع سليم ينقل الماء من المغاسل ويسفحه هنا وهناك، ويتعاونان على رش الصابون ونقل أغراض غرفتهما. ثم انتقلا إلى تنظيف الممر. لم يكن السجينان يجدان أي ضير في تنظيف الممر. بل كان يجدان في ذلك متنفساً، يخرجان فيه من ضيق الجدران الأربعة، ويتاح لهما فيه فرصة الاستحمام بماء بارد في حر الصيف، فضلاً عن فرص المزاح، واستطلاع أحوال السجناء خلسة في الزنزانات الأخرى. غمس سليم رأسه في السطل عدة مرات، فيما كان مجاهد ينشف أرض الممر بقطعة المنشفة الملفوفة على قطعة المطاط في رأس المجرفة، ويطرق عن عمد أسفل الأبواب بمجرفته كي يلفت نظر إخوانه المعتقلين إلى وجوده.

نادى مجاهد شريكه: أن أعطني سطلاً من الماء. بصوت مسموع فأدرك ساكن الغرفة رقم " 10" حسان أن هذا صوت ولده مجاهد، فأسرع إلى باب زنزانته

يقرعها على غير العادة، لأن الممر مشغول، طالباً العبور. سمع الحارس النشيط النقرات. أقترب من باب الزنزانة ليفتح كوة الباب: أشار لمجاهد أن يبتعد إلى أقصى الممر ريثما يستطلع الخبر.

– ماذا تريد؟

– أريد الخروج إلى المغاسل؟

– أما ترانا مشغولين في تنظيف الممر. الطريق مشغول!

كانت مبادرة جريئة من حسان أن يطلب هذا الطلب. لكنه عمد إلى ذلك عمداً لكي يلفت نظر ابنه إلى وجوده. وبالفعل حين سمع مجاهد صوت أبيه يتكلم مع الحارس ابتسم وسر من أعماقه. إنه حدد المكان الذي يقيم فيه والده.

– هذا وحده مكسب في السجن. أن تحس بوجود إخوانك وأن تحدد مكان وجودهم. ومكسب آخر أن تتعلم طرق الاتصال المشروعة أو المغتصبة من ظروف السجن.

رفعت صوتي: ذاك يعني أنا هنا موجود. رفع والدي صوته: يعني: سمعتك أنا هنا أيضاً موجود. فوق ذلك لم يستتبع الأمر عقوبة للمتخاطبين، ولا شكل خطراً على الحارس. لكن هل تنجح اللعبة دائماً؟

خطوات في الليل(5)

خطوات في الليل(5)



محمد الحسناوي *
shasansh@hotmail.com

الليلة الخامسة

مساء الأحد 8/6/ 980

منذ بدايات المساء أخذت تتميز أصوات الأعراس من بين أصوات الضجيج القريب والبعيد، ففي الصيف من كل عام وفي ليلة الاثنين والجمعة من كل أسبوع تقام حفلات الأعراس. سكان الزنزانات ينشغلون بهذه الأصوات، لأن مواكب العرسان تمر بالقرب من مبنى الزنزانات في سيارات صغيرة مصاحبة بزغاريد النساء، وتصفيق الرجال، ونفخات الأبواق أبواق الموسيقى وأبواق السيارات. الابتهاج ليس ملكاً للعروسين ولا ذويهما وأقربائهما وكل من يلوذ بهما، بل الدنيا كلها مبتهجة، وحتى سكان الزنزانات، أو هكذا يجب أن يكونوا ولو بالرغم منهم. الكلام في السجن ممنوع، ومثل ذلك الغناء فضلاً عن الرقص والضجيج. الصمت أو الهدوء هو المطلوب. وحين تضمر حاسة من حواس الإنسان أو تعطل.. تنمو حاسة أخرى، تعويضاً عن نقص، أو سداداً لحاجة، أو استجابة لجهد إضافي. هكذا كانت حال الحواس لا سيما حاسة السمع لدى السجناء، فكيف كانت الأحاسيس!

الزنزانة رقم(1)

في هذه الزنزانة سجينان أعزبان. الأول عبد الحكيم السيد وعمره فوق الثلاثين عاماً. مربوع القامة، عريض المنكبين، أسمر البشرة، مدور الوجه، ذو نظارة طبية لضعف في بصره، كثير التأمل، قليل الكلام، محروم من التدخين، وهو معتاد عليه منذ صغره. محروم من المطالعة وهو مدمن عليها، ومن الكتابة وهو أديب شاعر. مضى على سجنه خمس ليال.

الثاني مصطفى الخشان وعمره حوالي عشرين عاماً. أقصر من شريكه الأول، وأميل إلى النحافة، أبيض البشرة، بيضاوي الوجه، مستخدم في شركة تجارية. لم يمض على اعتقاله ساعات.

مصطفى: حضرتك من هذا البلد؟

عبد الحكيم: لا. سوري.

– من دير الزور؟

– لا. من شمال مدينة حلب.

– لا مؤاخذة. أنا جديد. اليوم اعتقلت. لم أعتقل في حياتي قبل هذه المرة، وأعتقد أن اعتقالي غير طويل، لأن مشكلتي بسيطة، ومعلمنا، مدير الشركة يحبني كثيراً، وسوف يبذل جهداً كبيراً للإفراج عني.

– أهلاً وسهلاً.

– رأيتك تصلي وتقرأ القرآن. أنا أحب القرآن وأريد أن أصلي فهل تتكرم بتعليمي.

– تكرم. أنا مستعد.

– هل أنت متزوج؟

– لا. حتى الآن.

– أنا خاطب. خطيبتي تنتظرني. خلال هذا الشهر حزيران سوف نتزوج. كل حاجات العرس جاهزة. البيت

استأجرناه. غرفة النوم والاستقبال من أحدث طراز اشتريناها. أدوات المطبخ: الثلاجة. فرن الغاز. موقد الغاز. قدور (التيفال). الصحون. الملاعق. الشوكات...

استرسل مصطفى في سرد التفاصيل عن خطوبته واستعداداته للزفاف فالزواج... فيما كان عبد الحكيم غارقاً في همومه وذكرياته:

أنا خاطب أيضاً. إنها ابنة عمي تنتظرني من قبل دخولي الجامعة. درست. تخرجت. عينت مدرساً للغة العربية. قبضت الرواتب. وفيت الديون. لم ينقطع سداد الديون طوال السنوات الماضية. وأخيراً انقطع الراتب بالهجرة.

قلت لكيا والدي أكثر من مرة: دعنا نفك الخطوبة ونطلق سراح ابنة عمي. أنا راغب بالزواج لكن ما باليد حيلة. أولاد عمي يقبلون بالزواج بلا مهر، أنا لا أقبل. كيف أقبل؟ أنا موظف. مدرس. اضرب. اطرح. تعال صدق أنا مفلس. بعد كل هذا العمر والجهد والجهاد ومفلس. صدق أولا تصدق. عمك أبو سليمان يصدق، ووزراؤه يصدقون، لكن الذكي فيهم يقول:

كل الموظفين يرتشون ويتبحبحون. لماذا تزيد الرواتب؟ أمن أجل حفنة غبية لا ترتشي؟! إذا زدنا الرواتب فلا بد أن نرفع الدعم عن بعض المواد التموينية. لا بد أن تزيد نسبة الضرائب.

– أستاذ عبد الحكيم هل رأيت خطيبتك، أعني هل قابلتها على انفراد. إن خطيبتي ابنة مدير الشركة. أنا أذهب معها منفردين لشراء أغراض الزواج. ألم أقل لك إن مدير الشركة يحبني؟! أستاذ عبد الحكيم – لا مؤاخذة – لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

– رئيس دولتنا لا يسمح لي.

– تريد الزواج من ابنته؟

– لا.

– من أخته؟

– لا.

– من عشيرته؟

– لا.

– أنا لا أفهم بالسياسة. ولا أريد أن أفهم. لكن هل للزواج علاقة بالسياسة.

(كيف أشرح لهذا الإنسان مشكلتي: لا يفهم في السياسة، ولا يريد أن يفهم. ثم ماذا يفيده أو يفيدني أن أشرحها له؟ نحن يا صديقي العزيز أبناء ريف. سكان قرية نقطن بجوار نهر الفرات مستوري الحال، أبناء عشيرة واحدة متكافلين متضامنين على ضيق العيش وسعته.. قررت الحكومة الموقرة، يجب أن نحتاط دوماً ونقول: موقرة – قررت حكومتنا الموقرة إقامة سد ضخم على نهر الفرات العظيم. اختارت منطقة (الطبقة) المجاورة لقريتنا. السد يختزن الماء. الماء يغطي مساحات شاسعة، ومنها منطقة قريتنا. إذن نحن مضطرون –شئنا أم أبينا – إلى مغادرة القرية أرضنا وأرض آبائنا وأجدادنا. الأرض التي ولدت فيها ونشأت وترعرعت. رعيت فيها الماشية، وزرعت وحصدت مع أهلي حين تجود الأمطار. وفيها إذا شئت تعرفت على خطيبتي ابنة عمي المرهونة بي. لم يسمح لنا أن نمتلك أرضاً جديدة من الأراضي المستصلحة بعد قيام السد. الأراضي المستصلحة ملك الدولة التي أقامت السد. وبالدقة ملك العصابة التي تمسك بمقاليد الدولة، وتوظف من تشاء

وحيث تشاء، وتسرح من تشاء، كيف تشاء، وفي أي وقت تشاء. كان بوسعنا أن نستأنف حياتنا بأي أرض حول مناطق السد الشاسعة الواسعة المستصلحة أو غير المستصلحة: أنا وأبي وأمي وإخوتي الشباب والصغار، المتزوجون منهم والعزبان. ومثل ذلك يفعل أقاربي وأبناء عشيرتي، فلا يتفرق الشمل، ولا يختلف الهواء والتراب والجيران وطرق العيش. عليكم أن ترحلوا من هنا. قالت الحكومة أي العصابة الحاكمة. إلى أين؟ إلى الجزيرة السورية. لماذا لا نبقى حول هذا السد العظيم؟ يجب أن تشكلوا الحزام العربي في وجه الأكراد. أكراد الجزيرة السورية؟ لماذا نحن بالذات؟ أنتم عرب أقحاح؟ لماذا تفعلون بنا هكذا ما دمنا عرباً؟ العربي لا يأخذ أرض العربي بالقوة ويطرده منها. العربي لا يأخذ أرض الآخرين ظلماً لأنه مسلم. لأنه صاحب رسالة محمد رسالة النور والرحمة للعالمين. لماذا نضطهد إخواننا الأكراد الذين لم نر منهم إلا خيراً. أليسوا إخواننا في الدين؟ أليسوا موطنين أحراراً مثلنا. ألم يحاربوا معنا الأعداء في الماضي والحاضر. أليس منهم صلاح الدين الأيوبي؟ نحن ليست لنا مشكلة مع إخواننا الأكراد. ولا نريد أن نخلق مشكلة معهم، ولا أن نكون سبباً في خلقها. إذا كان لكم معهم ثأر فتفضلوا بأنفسكم يا أصحاب العيون الزرق والشعر الأشقر. أم إنكم تجبنون عن مواجهتهم؟ لم تجد النقاشات ولا الوفود ولا العرائض. كان الجواب: من لا يريد أرضاً في الجزيرة فليتدبر أمره بنفسه. ها نحن نتدبر أمرنا بنفسنا. رفضنا الظلم الواقع بنا. رفضنا أن نظلم غيرنا وأن نكون أداة الظلم. التمسنا عيشنا من نقطة الصفر. القادر منا على

العمل يرد على من لا قدرة له حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا. تصور الرعاة والفلاحين الذين لا يتقنون صنعة غير الرعي والزراعة يسكنون ضواحي المدن المكتظة بسكانها، المرهقة بمشكلاتها: غلاء المعيشة. البطالة. قصور الخدمات: شح المياه. انقطاع التيار الكهربائي. تعثر المواصلات. هبوط التعليم. انتعاش الرشوة والقمار والخمور والرذيلة واللصوصية.)

– قلت لك في هذا الشهر سوف نتزوج. نحن بانتظار حضور والدتي من الضفة الغربية وأخي الأكبر من الكويت وأختي من السعودية. أنا مولود في الضفة. لم أخرج منها إلا منذ أربع سنوات، أرضنا جميلة. جنات. أنا لا أنساها. أتمنى أن أعود إليها. لكنني غير منتظم في إحدى المنظمات. لي أصدقاء فيها. لذلك تهمتي بسيطة. سوف يفرج عني. الأرض يا أستاذ. الأرض غالية جداً. كلنا نهاجر نسافر إلى أمي. يبدو أن أمي تحبها أكثر منا. يبدو أن أمي تخاف أن تموت بعيدة عن أرض آبائها وأجدادها. نحن عندنا أمل بالعودة.

نهض عبد الحكيم من ضجعته على بطنه ونصفه الأسفل. اعتدل في جلسته أسند ظهره على الجدار، مد يديه إلى جيب (جلابيته) الرصاصية الداكنة يتلمس علبة الدخان والوقيد. اصطدم بعدم وجودهما. تذكر حرمانه من التدخين. استل يده يائساً مترجفاً من غيظ مضاعف. تابع تمثيل عملية التدخين. زفر زفرة طويلة، ثم تطلع صوب المنطقة التي يظن أن فيها أمه وأباه:

(وأنتما أيها العجوزان الطيبان، كيف حالكما؟ كيف شوقكما إلى الأرض المغمورة والأولاد المشردين؟!)

– عفواً أستاذ. لم تشرح لي لماذا لا يسمح لكم رئيس

دولتكم بالزواج؟

– يا أخي. إن رئيس دولتنا يريد أن يقطع نسلنا.

– إذن لا يتدخل بزواجك وحدك؟

– إن أربعة من أقاربي الشباب مثلي ينتظرون الفرصة المناسبة للزواج من قريباتهم خطيباتهم المنتظرات منذ سنوات. هؤلاء الشباب الأربعة اعتقلوا منذ شهرين، وعشرة مثلهم تواروا عن الأنظار خوفاً من الاعتقال.

– خير إن شاء الله. ما السبب. أنا لا أفهم بالسياسة، ولا أريد أن أفهم.

– أنت حر يا أخي. ولا أكتمك أنا نفسي لا أعرف السبب الحقيقي. هل هي قضية أراضينا المغمورة بالماء؟ هل هي محاولات الاغتيال المزعومة لحضرة الرئيس. أنا أعلم أن أقاربي شجعان. لكن ماذا يوصلهم إلى هذا الرئيس؟ ليسوا أهل سياسة، معظمهم فلاحون. بعضهم درس المرحلة الابتدائية، والقليل منهم درس المرحلة الإعدادية. وكثير منهم لم يدرس إلا عند شيخ القرية. الله يذكرك بالخير يا أبا عبد الرحمن. هل صحيح أنت اعتقلت؟ لم يرحموا شيبتك ووقارك ماذا يفعلون بكم في سجن تدمر؟

– نحن رئيسنا لا يتدخل بأمور الزواج.

– أنتم نسلكم يتضاعف رغم محاولات اليهود لقطع نسلكم.

– إذن تزوج يا أخي تزوج.

– هنا في السجن؟

يضحكان.

– لا يا أخي بعد هذا السجن. بعد أن يطلق سراحك إن

شاء الله.

– وإذا كنت مسجوناً في بلدي أيضاً؟

– أنا لا أفهم. لا أفهم. يجب أن تتزوج يعني يجب أن تتزوج. كل الناس يتزوجون ويتوالدون. فقراء، أغنياء لا يهم. ألا تسمع الزغاريد والطبول والزامير؟! وأقرباؤك الشباب.

– الفرسان الأقمار؟

– تزوجوا يا أخي. يجب أن تتزوجوا.

– أحكي لك حكاية كنت أحكيها لأصدقائي الذين كان يلحون علي مثل إلحاحك بضرورة الزواج. نزل رجل إلى سوق المدينة واشترى سمكاً. في طريقه إلى البيت سأله رجل بكم اشتريت السمك فأجابه. ثم لقيه رجل ثالث فأعاد عليه السؤال فأجابه بما أجاب الآخرين، وحين وصل إلى باب بيته كان صبره قد نفذ لكثرة ما سئل وأجاب عن ثمن السمك وقبل أن يفتح باب بيته ويدخله استوقفه رجل عابر وسأله بكم اشتريت السمك؟ فلم يتمالك صاحبنا إلا أن حمل حزمة السمك وضرب بها رأس هذا الرجل. رفع الرجل المضروب شكواه إلى القاضي. استدعى القاضي صاحب السمك، وسأله لماذا ضربت الرجل؟ أجاب: صلي على النبي. صلى القاضي على النبي عليه الصلاة والسلام. أعاد السؤال على صاحب السمك فأجابه: صلي على النبي. ولما تكررت إجابات المتهم بطلب الصلاة على النبي نفذ صبر القاضي وغضب، فقال له: إما أن تجيبني على أسئلتي بصراحة وإما أن أعاقبك. قال المتهم: يا سيدي القاضي أما أقول لك: صلي على النبي فتعاقبني، فكيف لو كنت صاحب السمك وسئلت مئة مرة عن ثمنه وأنت تجيب، فماذا

تفعل؟!

الزنزانة رقم (4)

لو استطعت الكتابة على الجدار لكتبت اسمي. لو امتلكت قلماً. آلة حادة لكتبت اسمي (عبد الوهاب الشعار) بجوار هذه الأسماء المحفورة. عمري خمس وثلاثون عاماً. لي زوجة وثلاثة أولاد. صبيان وبنت. أنا سوري من اللاذقية ولدت في حماة. جدي أصله من حلب. أعمل تاجراً. أشتري شعر الماعز وأبيعه. هل في ذلك غرابة؟ هكذا قلت للمحقق. نعم درست الهندسة الإلكترونية في الجامعة وأوشكت على التخرج، لكن زواجي المبكر، واستهواء التجارة كان السبب. هل في ذلك غرابة؟ كيف جئت إلى هنا؟ ومن أين أعرف حسان الربيعي؟ إنه صديق أخي الكبير وزميله في حلب. تعرفت إليه هناك. توطدت صداقتنا في سورية لقيته هنا، فدعاني إلى المبيت عنده، وهكذا كان حتى اعتقلت. آه ليتني لم أنم تلك الليلة. كنت مدعواً للنوم في بيت آخر. المهم زوجتي وأولادي ينتظرونني. ماذا تقول زوجتي الوحيدة الغريبة في ألمانيا؟

لو لم يعيدوا إلي نظارتي الطبية لجننت. في ليلة العرس لم أستطع التخلي عنها كيف هنا في السجن؟ هل صحيح أنا في السجن؟ في زنزانة منفردة؟

يا زوجتي الغالية الوفية، قد يكون من حسن حظك ألا تعلمي حتى الآن باعتقالي. لكن كيف يكون حالك حين يطول غيابي ولا خبر عني؟ كنت أتصل بك هاتفياً من كل بلدة أو عاصمة أزورها أو أسافر إليها، فماذا أفعل الآن؟

أرجوك لا تظني بي الظنون. أنا محجوز لا حيلة لي. قال

لي المحقق أجب على أسئلتنا نطلق سراحك خلال خمس دقائق. مضت خمسة أيام فلماذا لا تطلقون سراحي؟ إن لم تطلقوا سراحي فلتخبروا أهل زوجتي: أين أنا. اسمحوا لي أن أوكل محامياً عني. أنا بريء. بريء يا ناس! لا يجوز أن أرفع صوتي. هذه تعليمات السجن! لا يجوز أن أقرأ أن أكتب أن أستمع إلى الراديو. ولا يجوز أن أكون مع سجين آخر! هكذا مرة واحدة من باب الطائرة إلى أعماق السجن؟ هل في ذلك غرابة؟ نعم أنا أستغرب كل هذه المعاملة. إن كانت هنا آلة تسجيل أو تصنت فلتسجل احتجاجي. كان بودي أن أفتتح معملاً لغزل شعر الماعز في هذا البلد. لكن بعد هذه المعاملة ماذا أصنع؟

يا زوجتي العزيزة. لعلك تسخرين من حبي للوطن.
لقد حملتك مع أولادي إلى اللاذقية لتقيمي بين أهلي.
ليتعلم أولادي اللغة العربية والثقافة الإسلامية،
ولأسهم في عمارة بلدي. استدنت وجمعت الأصدقاء وأسسنا شركة وأقمنا معملاً ينفق على عشرات الأسر العمالية. شركة مساهمة من العمال وغير العمال. لست آسفاً على الرشاوي والاتاوات التي دفعناها للترخيص للمعمل، لكنني آسف على أن الحبل انقطع بنا في آخر مرحلة حين بدأت الجهود تثمر وبدأ العمال يتذوقون طعم الجهود المخلصة التي بذلوها. لقد خرجت من بلدتي الحبيبة مكرهاً خوف الاعتقال. تركتك أنت والأولاد. ألقيت نظرة على الشاطئ اللازوردي، على رمال الشاطئ في الطابيات حيث كنا نسبح ونصطاد الأسماك ألقيت نظرة على أشجار الصنوبر الممشوقة القد وعلى أدغال الأشجار من (الصبار) والزيزفون. كنت تعجبين بتين (الصبار) وكنت أقطفه لك وأقشره لأحميك من شوكه

الغزير. فمن يحميك الآن في غربتك في وحدتك؟ الله وحده يحميك ويحرسك؟ ألم يسهل لك الخروج من سورية؟

أنا أسألكم أيها المحققون. هل في بلاد العالم يعاملون المخلصين النشيطين مثل هذه المعاملة؟ هكذا قلت لهم. هل في بلاد العالم يلاحق الأطفال والزوجة بذنب الزوج؟ ماذا جنيت أنا؟ لم أحتكر ولا سرقت ولا غششت ولا ارتشيت، بل فتحت مشروعاً ينتفع به البلد والشعب. هكذا سوف أقول للمحققين أيضاً. لا بل الآن. هيا فلأقرع الباب. لا ليس الآن.

يا زوجتي العزيزة. تزوجنا في الغربة. كسبنا عيشنا في الغربة. رزقنا الله أولاداً في الغربة. وها أنا أنقطع عنك وتنقطعين عني. متى تنتهي هذه الغربة؟ متى يتكلم عبد الرحمن لغة أمه وأبيه بحرية بطلاقة؟ متى تسمع سمية حكايات جدها وجدتها وتتعلم منهما الصلاة وقراءة القرآن؟ متى يذهب محمود مع رفاقه مع أبناء عمه إلى الصنوبرات إلى شاطئ الطابيات يجمع الأصداف أو يرمي الشباك أو ينصب قضبان الصمغ للعصافير؟!

تخيلي زوجك حين كان فتى خالي البال يتجرد من كل ثيابه للسباحة. يقف على صخرة عالية من صخور الطابيات. يقفز نحو البحر. يطير في الهواء كالريشة، رأسه إلى الأسفل مشدوداً قليلاً إلى الوراء. صدره نافر. يداه مبسوطتان كجناحي طائر. ساقاه مجموعتان مقوستان إلى الأعلى.. حتى يخترق سطح الماء آه.. أين أنت يا لاذقيتي.. يا زوجتي. يا حريتي. أين أنا؟!

الزنزانة رقم (6)

– يا أخي مجاهد. تصور الفرق بيننا وبين هؤلاء الرأسماليين. لا هم لهم إلا نهب أموالنا وإنفاقها على الأعراس والملاهي والخمور والقمار. تصور يا أخي مجاهد. كنت أعود من الجامعة مساءً لأتناول العشاء وأنا بلا غداء حتى ذلك الوقت. تحضر لي والدتي رغيف خبز ثم تغيب. يطول غيابها بحجة البحث عن إدام: بصل. زيت. أي شيء آخر. هي تعلم أن لا وجود لشيء آخر غير الخبز. لكنها تهرب من مواجهة العيون. نعم نحن فقراء. ليس في ذلك عيب. لكن المؤلم أن غيرنا يملكون الملايين والقصور والأطعمة الفاخرة ونحن نبيت جياعاً.

تأمل مجاهد محدثه. قرأ في هزاله الشديد وعينيه الغائرتين ولهجته الصادقة ونبرات حروفه الملتهبة.. قصص الفقر والمعاناة شاخصة.

– قد تعجب كيف استطعت متابعة دراستي الجامعية في العلوم السياسية وأنا بهذا الفقر. لكن بوسعك أن تستنتج ذلك على حساب الطعام واللباس ونفقات الأعياد والمناسبات التي لا بد منها لأفراد الأسرة. وأبناء الفقراء كثيرون. العيد يا أخي للأغنياء. العرس للأغنياء. كل شيء للرأسماليين وليس لنا إلا الفقر والسجن.

تهدج صوت سليم. خيل لمجاهد أن حبات الدمع تدحرجت غزيرة من تلك الحفر الغائرة التي لا توحي بالنداوة.

– سوف أتزوج يوماً. لكن متى. بعد أن أمضي مدة حكمي خمسة عشر عاماً أو حين تقوم ثورتنا. صحيح أن عدد المنتظمين في حزبنا قليل. بعضهم معتقل. بعضهم تخلى عن التنظيم. لكننا نسعى على محورين:

المحور الأول: إيجاد القاعدة الشعبية العريضة.

المحور الثاني إيجاد النخبة الثورية التي تقود تلك القاعدة الشعبية. أما الحصول على السلاح في الوقت اللازم فما أسهله!

تغيرت لهجة سليم. تألقت عيناه. زادت حركة يديه. تفرس مجاهد في وجهه الشاحب تحت ضوء المصباح الشحيح. وجده قطعاً عظمية تتحرك بآلية متماسكة. لم يشأ أن يقطع حديثه.

– في ذلك الوقت تقوم الانتفاضة الشعبية وتعلق المشانق في ساحة الجامع الكبير وسط العاصمة.

لم يستطع مجاهد الاستمرار في السكوت:

– إذا انتصرتم فماذا تصنعون بي؟

– سوف أقترب منك أقبلك قبلة الوداع قبل أن ترفع إلى المشنقة.

يضحكان، ويتصافحان ضاربين كفاً بكف.

الزنزانة رقم (7)

– أما أنا فقصة حياتي طريفة وقصة زواجي أطرف.

قال ذلك إبراهيم ماضي. شاب في الخامسة والعشرين من عمره. نحيل غير هزيل. يميل إلى الطول. أسمر البشرة. شديد سواد الشعر والعينين. قسمات وجهه تنم عن براءة وحلاوة. بارع في محاكاة اللهجات المحلية. لكنه لا يستطيع أن يخفي بقية من لكنة تركمانية تظهر في بطء حديثه النسبي، أو في نطق بعض الكلمات على أحيان متباعدة.

نظر إلى جهة مدينة (الدارة) يتذكر زوجته وطفلته الوحيدة وقال:

– أنا من أصل تركماني. زوجتي أبوها عربي بدوي.

أمها شركسية. تابعت دراستي في المرحلتين الإعدادية والثانوية بصعوبة، لأن والدي فقير تزوج بعد أمي زوجة أخرى وصار لها عدد من الأولاد. تكاليف العيش بدأت بالارتفاع. أساتذتي وإخواني في التنظيم ساعدوني على متابعة الدراسة. صحيح أن الحكومة أممت المعامل والشركات. زعمت أنها وزعت الأرض على الفلاحين، لكن النتيجة أننا لم نستفد شيئاً. ضاقت بنا سبل العيش أكثر. استطعت أن أنجح في مسابقة المعهد المتوسط للتمريض. تخرجت. لم يكن راتبي كافياً لتأسيس بيت أو زواج. صندوق الجماعة للزواج تكفل بي. خلال فترة وجيزة رشحت لي الجماعة فتاة طالبة جامعية. وافقت على اختيارها. خطبوها لي. كتبوا كتابها. قاموا بكل إجراءات الزفاف والزواج. انتقلت إلى دمشق بسبب الوظيفة. تم تأمين عمل لي إضافي في الإذاعة السورية: مترجم عن اللغة التركية وإليها. زوجتي.. تدرس الأدب العربي. كاتبة قصصية لها محاولات شعرية. أعانتني في الترجمة. تفوقت في عملي. المنافسون الشرفاء، أقصد المرتزقة حاصروني.

– كيف؟

انتبه إبراهيم إلى أنه يحدث شريكاً له في الزنزانة. رجل في الثلاثين من عمره. طويل القامة. عريض المنكبين. أبيض البشرة. كث الشعر. شعره كستنائي قد استطال على رأسه حتى حاذى الكتفين، وتدلى من وجهه ولحيته حتى أشبه الجدائل على صدره الضخم. عيناه زرقاوان فيهما جحوظ وهمود. مضطجع على قفاه. يداه تحت رأسه. حذاؤه في رجليه. وضع إحداهما فوق الأخرى. غير مبال بمن معه في الزنزانة. كثير

التدخين؟.

– مرة قالوا للمديرة المشرفة على القسم... أنا غير حزبي. مرة أخرى قالوا لها: تركماني. المديرة تخبرني دوماً بما يقولون.

– كانت تحميك إذن؟

– لا. ليس دائماً.

– كم عمرها؟

– مثل أمي.

– وإن يكن. كان عليك أن تغازلها. هل غازلتها؟

– أنا لا أغازل بنات الناس.

– الناس يرغبون في أن تغازل بناتهم.

– ليس كل الناس!

– البنات يرغبن بأن تغازلهن.

– ليس كل البنات!

– هذه المرأة ربما ترغب بأن تغازلها.

– أنا لا أرغب!

– لماذا لا ترغب؟

– عندي زوجة أحبها وتحبني.

– وإن يكن!

– هل أنت متزوج؟

– لا.

– لماذا؟

– ما حاجتي إلى الزواج مادمت أتمتع بأكثر من امرأة، ولا أتحمل مسؤولية بيت وأولاد.

– هل كل النساء توافقك على هذا؟

– لا.

– هل أهلك يوافقونك؟

– لا.

– أنت. لباسك هذا. قميص طويل مزركش كقمصان النساء. بنطلون ضيق. شعر مسترسل كالوحوش. هل يرضى الناس عن مظهرك؟

– لا يهم. أنا أرضى.

– كيف تحاكمني إلى الناس في أمور؟ وتضرب أنت برأي الناس عرض الحائط في أمور أخرى؟

– لا يهم.

– أنت متناقض!

– لا يهم.

– هل ترضى أن أغازل أختك؟

– غازل أمي إذا استطعت.

اعتدل إبراهيم في جلسته، شد نصفه العلوي إلى الأعلى. تقلصت عضلات وجهه. كاد يصفع الرجل الممدد. صرف النظر عن الضرب باليد.

– إذا كانت أمك على شكلك فأنا لا أغازلها.

– أمي أجمل مني بكثير.

– أنت نذل.

ضحك الرجل الممدد. قذف عقب سيجارته جهة الباب. أخرج سيجارة أخرى.

– لا يهم.

– إذا كان هذا لا يهمك فلنغير الموضوع.

– غير.

استرخى إبراهيم قليلاً، فيما استمر الرجل الممدد على حاله لا يتزحزح.

– أنت لماذا اعتقلت؟

– كنت ذاهباً إلى سورية. ردتني السلطات السورية

على الحدود. أرادت سلطات بلادي أن تعرف السبب. جئت إلى هنا.

– ماذا تريد أن تفعل في سورية؟

– الفصل صيف. قلت أستمتع بالاصطياف. أسبح أتجول. بالمناسبة يقال: إن أصلنا من منطقة جبلية في الساحل السوري. ويقال إن الحريات هناك لا توصف.

– أي حريات تعني؟

– أشرب. أرقص. أغني. أنام. آكل. أخلع. ألبس...

– هل هذا هو كل ما تهتم به في سورية؟

– وفي الحياة أيضاً.

– وهل هذا كل ما تهتم به أمك؟

– نعم.

– تردد إبراهيم ثم قال:

– أنت طالع لأمك.

– صدقت.

صمت إبراهيم. صمت الرجل الممدد. طال صمتهما. لم يكن الصمت طبيعياً لدى أحدهما في الأقل. كل شيء ساكن في الزنزانة إلا مخروط الدخان ودواماته.

أخيراً تكلم الرجل الممدد، كما هو، لم يغير من حاله أدنى تغيير:

– أنت يا صديقي تعقد الحياة على نفسك.

– ....

– أنت شاب جميل قوي محظوظ لماذا تخلق لنفسك المشكلات؟

– ...

– أنت ممرض. مساعد طبي مختص بالتحليل. ناجح في عملك يثق بك الأطباء. يحبك الزملاء. لكنك تحمل

السلم بالعرض! الطبيب الفلاني! يتقيد بالدوام. الطبيب الفلاني يتعمد تحويل المرضى من المستشفى الحكومي إلى عيادته الخاصة. الممرض الفلاني يرتشي. يقبض ثمن التحاليل المجانية خلافاً للقانون. الممرضة الفلانية طائفية. مجموعة من الأطباء والممرضين والممرضات شكلوا شبكة متورطة في نهب الأدوية المجانية وبيعها في السوق السوداء. فوق ذلك تضع الذنب كله على الحكومة أولاً. من أنت يا إبراهيم حتى تحاكم الناس؟

لم يجد إبراهيم بداً من الكلام.

– أنت تعرف الحدود يا محترم!؟

– لا يهم.

– من أين تعلم عني هذه المعلومات؟!

– البارحة بعد رجوعك من التحقيق أقلقتني طوال الليل وأنت تتكلم في النوم. هذه القصة كررت مرات: الطبيب. الممرضة. الحكومة. قلت لك: غازل مديرة القسم في الإذاعة فلم تقبل. فهل تقبل أن أقول لك: غازل الممرضات والممرضين والأطباء وزوجاتهم. غازل الحكومة نعم الحكومة. غازل أمك.

– بل أمك!

– قلت لك: أمي من أول مرة فلم تقبل... إن كنت تصنفني برجوازياً أو شيوعياً فأنت مخطئ. كلهم كذابون.

لم يجبه إبراهيم بشيء. اضطجع على شقه الأيمن. أدار له ظهره. اتجه نحو (الدارة) حيث ترك زوجته وطفلته الوحيدة.

(أنا أصنفك حيواناً لا يفقه من الحياة غير الجنس. لو

كنت مخصياً أو عنيناً ماذا تفعل بنفسك؟ أما أنت يا زوجتي العزيزة فليس لي عندك وصية إلا حبيبتي نجاح. أين أنت يا صغيرتي الملائكية. جديلة شعرك الأسود تساوي عندي الدنيا. ابتسمي. ابتسمي. خذي لعبتك لا تريدين اللعبة. تريدين الكتاب. خذيه لا تمزقيه. عمك عبد الحكيم يراقبنا. خذي هذه الهدية. أحضرها لك عمك فارس: حبات ملبس: شكولاته. سيارة صغيرة. ما أحلاها! يا نسيم الصباح لا تجرح خدي نجاح الناعمين. أم تراها نائمة تحلم؟ يا أولاد الجيران لا تسألوا عن نجاح إنها لم تستيقظ بعد. خدودها تفاح شامي. شفتاها فستق حلبي. شعرها مخمل أسود. نامي يا حبيبتي نامي. ليس عندك مدرسة ولا روضة ولا عمل. نامي ودعيني أنام بجوارك ما أطيب رائحتك وأرق أنفاسك تنفسي. تنفسي هواء الحرية. لقد أنجاك الله وأمك من سكاكين الطغاة. لو قتلوك ماذا كنت أفعل بنفسي؟ يقول لي الوغد: غازل أمي. من أين جاءت به أمه لا أدري! أما أنت يا حبيبتي يا فلذة كبدي فجزء مني من عيني من روحي. يقول لي النذل: غازل الممرضات؟ من أين لنساء الأرض أن تلد مثلك يا سنونوتي الغالية. ابتسمي. أي. ابتسمي. اسخري منه. لا يحبك لا يحب أن يكون له ولد ولا بنت. ما أدري إن كانت له أم حقيقة. ما أعذب ضحكتك العالية. لوحي بيديك بذراعيك، هكذا كالطائر كالطيارة كأغصان الأشجار مع خطرات النسيم. غني معي:

أنت الكرةْ كالسكرةْ
هذي يدي هيا اصعدي
في الملعبِ
أنت الكرةْ...........)

الزنزانة رقم (8)

أحس عابد الشامي بأن موجة جديدة من البكاء الصامت بدأت تغزو شريكه في الزنزانة عمر سمارة، فمد يده إلى صندوق المناديل الورقية، وقدمه له كي يتناول ما يمسح به دموعه. ثم قال وهو متكئ على كفه وذراعه مضطجعاً:

– ما رأيك بحكاية؟

– تفضل.

اعتدل عمر في جلسته احتراماً للرجل في الذي في عمر أبيه، أسند ظهره إلى جدار الزنزانة. أخذ يمسح دموعه بهدوء.

– يروي التاريخ أن الحجاج بن يوسف الثقفي أحد ولاة الخليفة عبد الملك بن مروان... تزوج امرأة اسمها هند. ويبدو أن هنداً هذه لم تكن تحبه. وقفت يوماً تتأمل حسنها أمام المرآة، وأنشدت تقول:

وما هندُ إلى مهرةٌ عربيةٌ سليلةُ أفراسٍ تحلَّلها بغلُ!

فإن ولدتْ مهراً، فلله درُّها وإن ولدتْ بغلاً، فجاء به بغلُ

وكان الحجاج آتياً عندئذ من وراء حجاب، وصك أذنيه ما سمعه من هند، فقال غاضباً: "يا هند! لقد كنتِ فبنتِ!" وطلقها. وسرعان ما أجابته: "لقد كنا فما فرحنا، وبِنّا فما ندمنا" ويصل الأمر إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، فيعجب من فصاحة هند، ويخطبها إلى نفسه. وتقبل هند، إلا أنها تشترط أن يقود الحجاج هودجها من بيتها إلى قصر الخليفة. ويقبل عبد الملك، ويسير الحجاج بالهودج، ومن فوقه هند التي ما كاد

الطريق ينتصف حتى تلقي أمام الحجاج بدينار من ذهب ثم تصيح: "يا جمَّال! لقد سقط مني درهم" فتناوله الحجاج من الأرض قائلاً: "إنه ليس درهماً، ولكنه دينارا!"

فتجيبه هند في تشف: "الحمد لله الذي أبدل بدرهمي ديناراً!" ويبتلع الحجاج على مضض منه تلك الإجابة القاتلة.. إنها زوجة أمير المؤمنين!

ابتسم عمر فابتسم له عابد الذي يكتم اسمه الحقيقي.

– أستاذ جميل. هل هذه القصة حقيقية؟

– أيا كانت صحة هذه القصة، فإن لها معانيها.

– أوافقك على أهميتها. إن صحت فهي تدل على قوة شخصية هذه المرأة هند. كما تدل على المكان الرفيع الذي احتلته المرأة في ذلك الزمن.

– وإن لم تصح؟

– فإنها تدل على انتقام الناس أو الرواة من هذه الطاغية حين سلطوا عليه –ولو في القصص – امرأة تذله وتنتقم منه قبل طلاقها وبعد طلاقها. على حين عجز الرجال عن تأديبه.

جلس عابد قبالة شريكه. أبدى اهتماماً بجدية النقاش الذي أثاره عمر. أضاف:

– التاريخ حدثنا عن رجال أفذاذ تصدوا لهذه الطاغية. إنهم علماء.

– تقصد سيعد بن جبير؟

– وغيره.

– لا أعلم غيره.

– أعذرك وبالمناسبة هل تعلم أنه مولى حبشي الأصل. وأن الحجاج لما سأله عن اسمه. قال: سعيد بن

جبير. قال له: بل شقي بن كسير! فأجابه: إن أمي التي سمتني أعلم منك باسمي. ثم قتله. رحمة الله عليه.

– أستاذ جميل أنا أتساءل: إذا كان في زماننا فتيات لا يستطعن الجهر بآرائهن، فهل يمكنني أن أصدق وجود حرية للمرأة في الماضي؟!

– أي نوع من الحرية تعني؟

– حرية في اختيار زوج. حرية سياسية.

– إذا كنت تعني الحرية السياسية أو الرأي السياسي فالسيدة عائشة رضي الله عنها تقود جيشاً. وإذا كنت تعني حرية اختيار الزوج، فقد جاءت فتاة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أبي زوجني ابن أخيه، ليرفع به خسيسته، فجعل الأمر إليها (أي إقرار الزواج أو رفضه)، فقالت: قد أجزت أبي، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء.

– ...

– جاء في كتاب الأذكياء لابن الجوزي أنه كان هناك رجل له ابنة شابة، وكان له ابن أخ يهواها وتهواه، فمكثا كذلك دهراً، ثم إن الجارية خطبها بعض الأشراف، فأرغب في المهر (أي زاد به كثيراً) فوافق أبو الجارية. واجتمع القوم للخطبة فقالت الجارية لأمها: يا أماه ما يمنع أبي أن يزوجني من ابن عمي؟! قالت: أمر كان مقضيا. قالت: والله إني حامل فاكتمي إن شئت أو بوحي! فأرسلت الأم إلى الأب فأخبرته الخبر. فقال: اكتمي هذا الأمر. ثم خرج إلى القوم فقال: يا هؤلاء! إني كنت أجبتكم، وأنه قد حدث أمر رجوت أن يكون فيه الأجر، وأنا أشهدكم أني قد زوجت ابنتي فلانة من ابن أخي فلان. فلما انقضى ذلك، قال أبوها: أدخلوه

عليها، فقالت الجارية: هي بالرحمن كافرة إن دخل عليها من سنة أو تبين حملها. قال: فما دخل عليها إلا بعد عام. فعلم أبوها أنها احتالت عليه!

– أستاذ جميل. أشكرك على تسليتي بهذه الأخبار التي تشغلني عن تذكر التحقيق الذي دمرني، وحملني على ما أكره من الاعترافات على نفسي ورفاقي. وأعترف لك بأن زادي من الثقافة العربية والإسلامية قليل، فلو لم تخبرني بأن هناك سورة في القرآن اسمها (النساء)...

– من أطول سور القرآن...

– لما علمت.. لكن ألا ترى أن كل ما تتحدث به يدخل في باب التاريخ. أشياء مضت. أشياء لم يعد لها أثر في حياتنا.

وطن عابد على نفسه على ضبط أعصابه:

– أشياء مضت لا بأس. أما إنها لا أثر لها في حياتنا فهذا غير صحيح.

– خذ قصة ابنة العم التي اختارت ابن عمها: أنا أعاني من مثل هذه الواقعة. أنا أحب ابنة عمي، وهي تحبني لكن أهلها الأغنياء يرفضون أن يزوجوني منها لأنني فقير.

– هل تظن أن تصرف أهلها إسلامي؟

– كيف تقول: إن الإسلام أو الماضي ما زال يؤثر في حياتنا؟

– قبل أن أجيبك بدقة على هذا السؤال المهم أحب أن أوضح مفارقة يقع فيها الكثير من الناس وبعض المفكرين. فهناك من يحمل على الإسلام بناء على ما يرونه من مفاسد وانحرافات المسلمين المعاصرين أو

المحسوبين على الإسلام بالاسم. وهناك من يهاجم الإسلام لأنه انقطع تاريخياً واجتماعياً، ولم يعد له دور واضح. بل يزعم أن الإسلام قد استنفد أغراضه!

– لندخل في الموضوع. أين الإسلام الواقعي الاجتماعي؟

– وأين المرأة المسلمة بالذات في حياتنا؟

– نعم.

ابتسم عابد ابتسامة عريضة. صمت استعداداً للكلام. جذب حزمة من المناديل الورقية يعالج بها زكامه المزمن. ثم قال:

– مع ذلك قبل الدخول في الموضوع أحب أن أعترف لك بأن المحققين عجزوا طوال هذه الأيام عن استجراري للكلام في السياسة. أنت استطعت الآن أن تجرني إليها.

ابتسم عمر لهذا الإطراء. تحفز للسماع.

– ما رأيك إذا بادرت مجموعة ضخمة من النساء المقبلات على الزواج إلى إسقاط المهور أو تخفيضها لدرجة أصبحت معها رمزية.

– ....

– ما رأيك إذا خرجت النساء في تظاهرات ضخمة تندد باستبداد الحكومة، وتطالب بتغيير الأوضاع العامة، وبالإفراج عن المعتقلين، معتقلي الرأي... وبإطلاق الحريات السياسية..؟

ما رأيك إذا اصطدمت هذه التظاهرات النسائية بقوات السلطة، واعتقل عدد من المتظاهرات.

– ...

– ما رأيك إذا حملت المرأة السلاح كما حمله الرجل، واستشهد عدد من النساء في القضايا العامة كما

استشهد الرجال؟!

– ...

– هل سمعت بالشهيدات غنية حمدو وشفاء جولاق وخديجة عزت آغا؟

– كنت أظنك سوف تحدثني عن الحركة النسوية في أوروبا الغربية. أو في بعض الدول النامية التي تسهم فيها النساء بالثورات التحررية الوطنية.

– أنا أحدثك عن نساء وفتيات سوريات مسلمات.

– عضوات في تنظيم سياسي؟

– عضوات في تنظيم إسلامي.

– هذا عجيب فعلاً. وإن كان لا يسرّني، لكنه ينتزع إعجابي. ابتسم عابد، حرك يده اليمنى طاوياً بعض أصابعه في علامة استفهام ودية:

– لماذا لا يسرك؟

– إن منطلق هذا التحرك النسوي غير ماركسي.

– فقط؟!

– وهو موجه ضد حكومة وطنية تقدمية.

– أما إنه غير ماركسي، فهذا صحيح. وعلى كل ومن باب المجاملة أقول:

صرح عدد من المفكرين الاشتراكيين الماركسيين مثل الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي قبل إسلامه: أن طريق الاشتراكية ليس بالضرورة وحيداً، وأن بوسع المسلم أن تكون له اشتراكيته عن غير طريق ماركس. أما وطنية الحكومة المزعومة وتقدميتها فيقررهما الشعب السوري أولاً. وهل يكفيك أن تعلم أن المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري بقيادة رياض الترك قد فضح هذه الحكومة، وأدان ممارستها من

منظور ماركسي؟!

– هل الرفيق رياض فعل هذا؟

– هل تجهل أم تتجاهل؟ إن عينيه على حافة العمى من شدة التعذيب النازل به في سجون هذه الحكومة الوطنية التقدمية!

– هذا خلاف تكتيكي.

– هل يسوغ الخلاف التكتيكي مصادرة الرأي والحريات والتصنيفات الجسدية. إن الخلاف استراتيجي يا سيد سمارة. لا تتجاهل.

– كنت تتحدث عن مبادرات نسوية.

– قل نهضة نسوية.

– لا تسمى المبادرات الفردية حركة أو نهضة ما لم تكسب بعداً اجتماعياً واستمراراً زمنياً.

– ليس ما أحدثك عنه مجرد مبادرات فردية. مع ذلك أسألك كم استمرت (كومونة باريس)؟!

– إنها جزء من الفكر والحركة الاشتراكية التي سبقتها والتي لحقتها.

– ومن قال إن حركتنا النسوية ليست جزءاً من الفكر والحركة الإسلامية التي سبقتها والتي سوف تستمر بها وبعدها؟!

– أنت إذن عضو قيادي في هذه الحركة الإسلامية؟!

– هل أنت عنصر مخابرات تستدرجني! إن ما أتحدث عنه ليس سراً يحتفظ به قياديون. إن المعنيين بشؤون الفكر والاجتماع والسياسة في هذه المنطقة يعلمونها.

– على كل حال. الفكر في الكتب. والتظاهرة في الشارع. ثم ماذا؟ تزول المثيرات فتزول معها ردود

الفعل.

– إن الظاهرة أعمق يا سيد سمارة. إنها كلفت تربية أجيال من قبل، وتقديم شهداء وتضحيات ومناضلين ومناضلات على حد تعبيرك، فضلاً عن آلاف النشرات ومئات الكتب والدراسات.

– أدب. أدب. هل تفاعلت هذه المكونات في الوجدان الشعبي الجماعي وتحولت إلى أناشيد. أغان. قصص. فنون؟

– نعم بالتأكيد. هل تحب أن تسمع؟

سكت السجينان قليلاً. بدأ عابد يدندن ممهداً للغناء. عمر سمارة كان مشدوهاً بما آل إليه الحوار. معلومات جديدة عن حركة نسوية. رجل مسن وقور متدين يغني.

– (أين يغني؟ في السجن. لمن يغني؟ لي أنا الشيوعي الماركسي؟)

وأخيراً أنشد عابد بصوت غير عال، مع أداء غنائي:

"أختاه.. دقّي القيدَ، وارميهِ بوجهِ الجاهليةْ"
"ما عدتِ خادمةً، ولستِ برغمِ من جحدوا.. ضَحيّة"
"شدّي يديكِ على الزنادِ، وثبتيهِ يا أخيّهْ"
"وتعلَّمي ضمدَ الجراحِ، فربما كنتِ الضحية"
"وخذي جمالكِ من لظى البارودِ في الساحِ العتيّه"
"لا تطلُبي –يا أختنا– غيرَ البطولة، يا أبيّه"
"فالثورةُ انطلقتْ، وأنتِ مع الرجال، بهم قويّه"
"الماسُ ولى عهده، فتزيني بالبندقية"

– طيب. طيب. هذا شعر. هذا فن ثوري. إنه يمجد الحرية. يمجد البطولة، يدعو للتقدم ونبذ التخلف. يعطي الجمال بعداً جديداً. هل هناك قيم أخرى مجدها هذا

الأدب؟

يبتسم عابد. يفتح ذراعيه متظاهراً بالاعتذار، أو معتذراً عن ضعف إنشاده:

– لعلك تحضني على مزيد من الغناء على الرغم من تواضع صوتي وغنائي.

– بالحقيقة أنا مشغول بمضمون هذه الأبيات. لكنني أعترف لك بأنك فاجأتني بأمور كثيرة جداً. منها جمال صوتك وقدرتك الفائقة في الأداء.. أقول هذا من غير مجاملة.

– إن كنت عنصر مخابرات تستدرجني فأنا لم أعد أبالي.

يضحكان.

– أسعفني بغنائك. أرجوك نوبة البكاء بدأت تجتاحني. غناؤك العذب وأشعارك الثورية...

– ومناديلي الورقية.. (مبتسماً)

– قادرة على استبعاد الحقيقة ومخلفاته السود في نفسي.

عاد عابد إلى الدندنة. أخذ ينقّر بأصابع يده اليمنى على قفا أصابع اليد اليسرى المغلقة. بعد قليل بسط يده اليسرى وصار يوقّع عليها براحة كفه اليمنى. ثم أنشد بصوت غير عال:

"يا موطني. اليومَ عيني لا تُطيقْ رؤى الحريرِ
"إني نسجتُ ملابسَ الميدان من لهبِ السعيرِ
"من تِبْرِ أرضي، من رُواء جبالِها عند الهجيرِ
"حتى تروق بصحبةِ الرشاش في دربِ المصيرِ
"ما عاد مرآه يباغتني، فقد أمسى سميري
"أطعمتُه، فانهال مثل الرعدِ، مضطرمَ الزئيرِ

"اليوم أصنعُ من عبيرِ رصاصهِ أغلى عطوري

"أمضي به فوق النجود الشم.. للنصر الكبير"

استعاد عمر اللحن، ردد بعد أن فرغ عابد من الغناء:

– أمضي به فوق النجود الشم.. للنصر الكبير.

– يسرني أنك استمتعت بهذا الغناء.

– ويشرفني أنك غنيت لي حتى تخفف عني أحزاني وآلامي، في القصيدة الأولى سمعنا صوت الرجل يدعو المرأة إلى التحرر والثورة. في القصيدة الثانية سمعنا صوت المرأة يؤكد المعاني والقيم السابقة، وتلونها بلون وطني. حب الوطن: يا موطني. من تبر أرضي. من وراء جبالها. فوق النجود الشم...

– بالله عليك أيهما أكثر تقدمية ووطنية: أصحاب هذا الشعر أم الطاغية الذي باع الجولان، واضطهد المقاومة الفلسطينية، وكبت الحريات العامة، وعطلها بعدم رفع حالة الطوارئ طوال مدة حكمه.. وفوق ذلك يجدد للقوات الدولية على الجولان، ويمعن بطشاً وتنكيلاً بالأصوات الحرة الشريفة وبالمنظمات الشعبية الحقيقة؟!

– لكنه حليف للقوى الوطنية التقدمية.

– هذا وهم أو سقوط في الخدعة.

– ...

– إنه أولاً نظام غير (ديموقراطي) ولا شعبي بأي تعريف من هذه التعريفات السياسية. وهو ثانياً يضطهد القوى التي تسميها وطنية وتقدمية، أو يحجمها لصالحه. وهو ثالثاً يعادي الشعب والحركات الشعبية الحقيقية. وأخص بالذكر التيار الشعبي الإسلامي.

– تقصد الرجعية والثورة المضادة.

– هذه طفولة يسارية: أن تؤخذ بالمصطلحات، وتعمى عن تحليل الواقع الملموس. أن تنقل الأحكام والتجارب من أمم إلى أمم أخرى بشكل حرفي. لم يكن الدين الإسلامي في يوم من الأيام ضد التحرر والتقدم، بل العكس. ما دام للإسلام الدور الأكبر في تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي فلتعترفوا بذلك وإذا كان الإسلام من وراء الثورات الوطنية التحررية في العالم الإسلامي فلتعترفوا بذلك إذا كان الإسلام يحقق العدل أو ما تسمونه الاشتراكية، وإذا كان يبني الحضارة أو هو الحضارة، فلتعترفوا بذلك. اعترافاً بالحق.. وبالواقع، وضمانة لكم من العزلة الشعبية القاتلة. إذا كنتم تسمون الدولة التي تحارب التيار الشعبي الإسلامي دولة وطنية تقدمية لمجرد نهوضها بهذه الحرب، فأنتم ترتكبون أخطاء مزدوجة. كيف كان مصير الحريات والتقدم في أندونيسيا بعد أن قمع سوكارنو التيار الشعبي الإسلامي؟ إن الأوضاع آلت إلى سحق التيار الاشتراكي بل الشيوعي بالذات، ثم الانحياز إلى المعسكر الغربي الأمريكي. كيف كان مصير الحريات والتقدم بعد سحق التيار الإسلامي الشعبي في مصر طوال حكم عبد الناصر؟ هل يختلف كثيراً عن تجربة أندونيسيا؟! وباكستان؟!

– من حسن حظك أنك تحدثني بهذه الأفكار وأنا في أشد حالات الانهيار.

– وهل تظنني في أشد حالات الانتصار؟ ألست مطارداً مشرداً؟ ألست سجيناً مثلك؟ أم تراني على رأس قمة السلطة؟!

– أنت على كل حال لم تزل متماسكاً. أعني لم تعترف بشيء.

– هل أعترف بشيء لم أفعله؟

– هذه قلها لغيري.

يضحكان. مد عمر سمارة يده إلى صندق المناديل الذي يمتلكه عابد الشامي، اكتشف عمر أنه يمد يده على غير ما كان يفعل في المرات السابقة. إن عينيه لا تدمعان. إن موجة البكاء غير قادمة. إنه ليس بحاجة إلى المنديل في هذه اللحظة. على الرغم من ذلك لم يرجع يده فارغة.

الزنزانة رقم (10)

يعلم حسان الربيعي من نفسه أن حاسة الشم لديه قوية. أما أن تكون حاسة السمع لديه أيضاً قوية فهذه مفاجأة له.

أصغى طويلاً إلى أصوات المراكب وابتهاجات الأعراس التي أثارت فيه مزيجاً متنوعاً من الأحاسيس والذكريات، بعضها سار وبعضها غير ذلك، بعضها واضح وبعضها باهت أو غامض.

سبق لحسان أن روض نفسه على التحكم بأعصابه ومشاعره في السجن، يعينه على ذلك المحاولات المتعددة التي مارسها في هذا السجن وفي سجن عام 967، كما يعينه على ذلك الراحة البدنية الناشئة عن فترات النوم الطويلة نسبياً، فهو إن لم ينم قبل منتصف الليل فإنه يستغرق في نوم عميق بعد صلاة الصبح حتى الظهيرة أحياناً، ومن بعد صلاة العصر حتى المساء غالباً.

إنه الآن صاحٍ، صافي الذهن، ممسك بخيوط أعصابه

وأحاسيسه، أو هكذا يظن.

– إن خير ما أتسلى به الآن هو ذكريات زواجي، أو ما يسمونه حياتي العاطفية. تزوجت مبكراً. هكذا قالوا. بعد تخرجي في كلية الآداب، في الصيف الذي سبق الدوام في الدبلوم العامة (كلية التربية)، لم يكن مقدراً لي أن أتزوج من بنات بلدي ولا من أقاربي. يعللون ذلك بأنني أحببت زميلة جامعية كما يفعل كثير من طلاب الجامعة فتزوجتها. والحقيقة أني أستغرب لماذا لم أهتم بالزواج من إحدى زميلاتي في قسم اللغة العربية. كان نصيبي عند طالبة في معهد الطبابة والتمريض.

أذكر حينما خضنا معركة الانتخابات الطلابية في الصف الأخير من كلية الآداب، وكنت أحد المرشحين، اقتضاني ذلك أن أتداول مع زميلتين سمعتهما تتحدثان بالقرب مني في ساحة الجامعة الخارجية. سلمت عليهما. سألتهما عن آراء الطالبات في اختيار المرشحين. كانت الطالبتان محتشمتين ترتديان حجاباً شرعياً طبيعياً. استمر الحوار والنقاش ونحن واقفون وسط الباحة نصف ساعة. بعد ذلك انصرف كل منا في سبيله بعد الاتفاق على ترتيبات الانتخابات. بعد انصرافي من هذا اللقاء فوجئت بأحد إخواني الأعزاء يعترضني. يسلم علي. يسألني: فيم كنتم تتحدثون أنت ونديمة وحسانة؟ قلت: في شؤون الانتخابات. قال: نصف ساعة وأكثر تتحدثون بالانتخابات؟!

أنا نفسي مازلت أتساءل: لماذا لم أتحدث إلا عن الانتخابات، كانت كل من الزميلتين تتمتع بمواصفات زوجة لائقة. اكتشفت أن صديقي المذكور قد وضع عينه

على إحداهما.

في مرحلة الدراسة الإعدادية مرحلة المراهقة أحببت فتاة شقراء جميلة وإن كان لون بشرتها مشوباً بصفرة. لعل ذلك الاصفرار الخفيف كان سبباً من أسباب الهيام. كان ذلك –كما يقولون– الحب الأول. إنه الحب الذي أيقظ وجداني وعقلي. حرك فيّ موهبة الشعر وما استتبعها من قراءة وكتابة ومراسلة. ما كنت أظنني يوماً سوف أتخلى عنها وأنساها، هي لم تكن تدري بي ولا بحالي شيئاً. كانت هناك حواجز وعقبات تحول بيننا. إنها من دين غير ديني، على الرغم من ذلك حين أصادفها في طريق، أو أتعمد رؤيتها أحس بالدنيا كلها من حولي تضطرب وتهتز وأحس نبضات قلبي تدق صدري، وقد تهتز مفاصلي. تبرد حبات العرق على وجهي وأطرافي، لا أستطيع إدامة نظري إليها، حين قرأت بيتاً من الشعر يصور حالتي حفظته لتوه لأنه يذكرني بتلك الأيام السالفة.

وأني لتعروني لذكراك هزةٌ كما انتفضَ العصفورُ بلّله القطرُ

آه... تذكرت ذلك اليوم الذي كان فيه والدها يتحدث معنا، كنا مجموعة من الفتيان المراهقين، قال له أحد أصدقائي: ما رأيك بنا يا أبا جورج؟

قال: عبده جار، سالم صديق، حسان حبيب. ثم نظر إلي وابتسم. فوجئت بوصفي (حبيب). أعلم أن والدها يحب المزاح، وهو رجل حنكته الأيام، لكن لم أتوقع مثل هذه الصراحة، هل تراه اطلع على أشعاري وتحرشاتي؟ هل يعرض بي أم يتعرض لي؟! قضيت أياماً وأنا في دوام التساؤل والحيرة.

بعد سنوات دخلت شقرائي في الجامعة مثلي، التحقتْ بقسم اللغة الإنكليزية، لقيتها جالسة في نادي الطلاب مع بعض زميلاتها وزميل، كان يوماً يدرسنا اللغة الإنكليزية، أحسست بأنني لم أعد عصفوراً، لكن آثار الماضي لم تكن صفراً، صرفت النظر عنها، طلبت من أهلي الزواج من (قمر) إحدى قريباتي. الأطراف ذات العلاقة كلها موافقة، محبذة، لكن الالتباس والحساسيات في المرصاد، رفض والدي في البداية ظناً منه أن زوجته الجديدة غير موافقة، لما اكتشف أنها موافقة كنت أنا وأمي وأخواتي أصبحنا غير موافقين!! هكذا ينقطع نصيب ويتصل آخر.

قامت زوجتي بالزيارة الأولى لأهل (قمر)

استقبلتها (قمر) بترحاب كبير، قطفت لها الأزهار، قالت لأمها: أنا أحببت زوجة حسان يا أمي، حدجتها أمها بنظرة ثابتة تلومها على ما فرط منها، هكذا نظرة واحدة بلا كلام!

في بيت أهل زوجتي بحلب رقصت (قمر) مع من رقصن ابتهاجاً بكتابي. غنت أغنية تقول فيها: (بس ارفع ايدك والله بريدك وسلّمْ سلام الأحباب. بس ارفع إيدك). تغامزت أختاي. مالت إحداهما على إذن خطيبتي الحلبية وهمست: كان أخي حسان يرغب بالزواج من قريبتنا قمر!

تزوجت (قمر)، ورزقها الله بنين وبنات. ولعلها الآن أسعد حالاً من زوجتي الصابرة المحتسبة سعاد. ما أظن أن قريبتي مهيئة للابتلاء بقدر زوجتي أم مجاهد.

كانت أم مجاهد الزوجة الوحيدة من بين زوجات المعتقلين التي استطاعت أن تحصل على إذن بزيارتي

في سجن المخابرات العسكرية عام 1967. كانت صلبة متماسكة. لكن في زيارتها الثانية لي.. لم يسمحوا لها بالاقتراب، وكنت نقلت إلى سجن آخر في جوار قيادة المنطقة الشمالية، وهو أشد ظلماً ووحشة. في تلك الزيارة لم تتمالك من أن تبكي وتجهش بالبكاء. يا رب ما حالها الآن؟!

لا يجوز لي أن أسمح للذكريات أن تتداعى على هواها. يجب أن أختار الذكريات المبهجة وحدها. أما يكفيني ما أنا فيه؟

ها أنذا؟ أتذكر يا سعاد تجلسين معي سافرة لأول مرة كتب بها (الكتاب) في بيت أهلك أقول: لماذا أحضرت معها أولاد أخيها الخمسة: بسام ومحمد وفاطمة وخالد وزهير؟ كنت سعيداً ومنغصاً في وقت واحد. هل تذكرين قصيدة لأحمد شوقي يغنيها محمد عبد الوهاب. إنهم أولاد لا يفهمون علي. هل تذكرين ما قاله الشاعر في تلك القصيدة:

وتعطلتْ لغةُ الكلام وخاطبتْ عينيَّ في لغةِ الهوى عيناكِا

ضحكت يومها، وبرقت عيناك يا سعاد بفرح عميق. هكذا يعجبك إذن سلام وكلام وشعر بحضور الحراس. سامحك الله. الآن الحراس موجودون لكن لا سلام ولا كلام.

كلما سمعتِ هذا البيت من الشعر في الإذاعة أو على لساني أراكِ تضحكين بسرور وتبرق عيناك بألق جديد لا يقل عن لقائنا الأول بعد كتب (الكتاب)

هل تذكرين الاستعدادات عند أهلك يا سعاد لكتب (الكتاب). سوف يحضر والدي وأعمامك الكثر وأخوالك كنت عائداً من الجامعة. كان (الطقم) الذي ألبسه غير

جديد. تطوعتِ لغسله وكيه وستر حالي أمام أعمامك وأخوالك وزوجاتهم وأولادهم. القصة نفسها ليلة الزفاف. لم تكن لدي (كرافات) ربطة عنق. حاولت استعارة واحدة من صهري الذي لم يكن يملك غيرها وهو حريص في حفل عام أن يلبسها أيضاً!!

يتحدث الناس عن ليلة الزفاف ويصفونها بأنها أبهج أيام حياتهم: أنا لم تكن أبهج أيام حياتي ليلة الزفاف. بل كاد العرس ينقلب إلى عكسه. حين يطلب أهلي الاستعجال بنقل العروس إلى بلدنا يعترض أهلها، وحين يوافق أهلها يطلب أهلي الاستمهال. كل منهما ينظر إلى مصالحه الضيقة بصرف النظر عن رأي العروسين أو مصلحتهما.

يوم طلبت من والدي المهر المتفق عليه لأسلمه لأهل العروس اعتذر عن تقديمه كاملاً. نقص منه ألف ليرة. كل الناس ينقصون يا ابني. نعم كل الناس ينقصون يا حسان. قال صهري كاتب الاستدعاءات. لكني أنا غير الناس. أنا لا أقبل الإخلاف في الوعد. هل تقبلين يا امرأة عمي أن أكتب لكم (كمبيالة) بالمبلغ الناقص؟ أحمد الله أنني سددت الدين يوم قبضت الرواتب المتجمعة أول مرة بعد تعييني مدرساً للغة العربية في شمال حلب.

هكذا بدأنا زواجنا يا سعاد شابين مفلسين. ننام على (تخت) حديدي ونستخدم نافذة بيتنا المستأجر خزانة لكتبي. يوم تزوجت زاد راتبي خمساً وعشرين ليرة سورية فأصبح "175" مئة وخمساً وسبعين، ندفع نصفه إيجاراً للبيت في حي الزهراء بدمشق. مع ذلك كنا سعيدين. مثل هذا المبلغ اليوم لا يكفي لشراء ربع

تنكة زيت زيتون في دمشق.

أذكر الآن يا سعاد شكواك في ذلك الوقت للدكتور سعيد حين اشتريت الجزء الأول من تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان. في السنوات الأخيرة صارت لنا دار وصارت لي مكتبة ضخمة لها باب خاص إلى الخارج. لم تعودي تغضبين مني كثيراً حين أتسلل من ذلك الباب، وأدخل الكتب الجديدة بالجملة مثل المجلدات (صبح الأعشى) ومعجم (ألفاظ الحديث الشريف)... أين هي الآن هذه الكتب. أين هي المكتبة؟ واأسفاه.. ما هذا؟ عدنا إلى الأحزان؟!

أذكر يا سعاد حين سافرنا أنا وأنت في أيام العرس الأولى إلى صديقتك في جبلة نريد الانفراد من بين أهلنا، فإذا صهري وأحد أولاد عمي يلحق بنا إلى هناك ليهنئنانا بالزواج!

وأذكر يا سعاد سفرنا الأول من دمشق إلى الساحل السوري، وجلوسنا منفردين على الشاطئ الجبلي تجاه البحر في وقت الأصيل، وميناء طرطوس الجديد أمامنا، ونحن نأكل اللوز الأخضر مستمتعين، كما أذكر العتاب الذي أبداه أهلي لأننا جئنا إلى اللاذقية ولم نزرهم.

كيف لا أذكر نزهاتنا في شوارع دمشق ومناطق الاصطياف فيها؟

هل تذكرين رحلتنا إلى (الزبداني) و(بقين) و (مضايا) و (أبي زاد) مع أختك خديجة وصديقتها فطينة.

كنت في ذلك الصيف أعمل في إحدى دور النشر الدمشقية. استأذنت من صاحبها بالتغيب عن العمل للخروج معكم. قال: هل تزوجت يا حسان! قلت: بين بين. قال: لا. إما زواج وإما زنى. ليس في الإسلام بين بين أو

توسط في هذا الأمر. فضحكنا. وشرحت له أن عقد الزواج تم. لكن الزفاف لم يتم.

يوماً مشينا من (بلودان) إلى (أبي زاد) على الأقدام، وتجولنا في حقول التفاح والجوز واللوز. نأكل مما نلتقطه على الأرض، ونتحدث عن الماضي والحاضر والمستقبل بسرور. أنا وأنت على حدة. وأختك وصديقتها على حدة.

في اليوم التالي نزلنا من (بلودان) إلى (بقين) أيضاً سيراً على الأقدام. صديقة أختك تعبت من المشي، لأن كعب حذائها النسائي مرتفع، فخلعت الحذاء وسارت حافية. هل تذكرين الجبسة التي حملناها معظم الطريق، ثم أكلناها على الطريق العام؟ آه ما أعذب الحرية. الهواء الطلق. قمم الجبال المتوغلة في الضباب والسحاب. الأودية المخضوضرة. السهول المكتسبة أثواباً متنوعة. قفزات العصافير. زقزقة البلابل والشحارير. المياه العذبة الباردة.

تذكرت يوم خرجت معك بعد كتب (الكتاب) إلى عين الخضراء. طلبنا طعام الغداء في المقهى. كان الطعام شهياً والمكان جميلاً، لكنك لم تأكلي ما كنت أتوقعه برغم الإلحاح. تساءلت: هل تحاول التوفير علي أم هي غير جائعة حقاً؟!

هل تذكرين نزهتنا في آخر خط المهاجرين بدمشق مساء. نتناول (تين الصبار) أو الجوز الأخضر في المقاهي العالية. أذكر مرة بعد صعودنا مسافة طويلة في الطريق المرتفع أنك توقفت تلتقطين أنفاسك قلت: إنني حامل في الشهر السابع. ما كان يحسن بنا أن نسير كل هذه المسافة وفي طريق شديد الانحدار. قلت

لك: كان عليك أن تنتبهي منذ البداية. أنا جاهل في هذه الأمور. ضحكت وعدنا كأن شيئاً لم يكن.

هل تذكرين نزهة مماثلة حين كنا نزور أهلي في جسر الشغور. ذهبنا معهم إلى (قسطل الشيخ نوري) على طريق اللاذقية. في صباح اليوم التالي قررنا أنا وأنت الخروج بنزهة من هناك إلى قرية (العيدو) الكائنة في رأس الجبل. حاولت أمي –رحمها الله– مصاحبتنا فتملصنا منها. مشينا ومشينا وأنت مسرورة نتسلق مرتفعاً ونهبط منخفضاً. نسيم الضحى مشوب بلذعات الشمس الصيفية وبرذاذ الندى المتناثر هنا وهناك وبين الحين والآخر تنفحنا الشجيرات الكثيفة بعبيرها حين نحتك بها أو حين يجفل طائر، فينطلق من أدغالها مصفقاً بجناحين مضمخين بعبير الآس أو الزعتر.. حتى وصلنا إلى (عين) القرية تحت شجرة (الدلب) العملاقة. ذوائبها العالية تشمخ في السماء تنافس قمة الجبل الصخرية، وأغصانها الجانبية تمتد في الجهات الأربع مثل خيمة عربية ضخمة، تسمح للنسيم العليل بالمرور، ولا تسمح لأشعة الشمس بالعبور. الوادي أمامنا ممتد وقمم الجبال المحاذية للحدود السورية –التركية خلف الوادي تحضن القرى الحدودية بتناسق عجيب. حينذاك لم نجد ما نسد به جوعنا غير شراء كمية من الجوز الأخضر والتمتع بآكلها بعد نزع قشرتها الخضراء، وكسر قشرتها الخشبية جوزة جوزة.

آه.. أين أنت يا زوجتي الغالية !

< **خطوات في الليل(6) رواية**

خطوات في الليل(6)



محمد الحسناوي *
shasansh@hotmail.com

اعتدل حسان في جلسته بعد أن كان مضطجعاً. مدَّ ذراعيه أمامه. كفاه مقبوضتان كأنه يضع آلة التسجيل على الأرض، مدَّ يده اليمنى إلى مكان في الجدار الأيمن، وكأنه يضع سلك الآلة في مأخذ التيار الكهربائي. ثم مدّ يده اليسرى إلى جهة قرب الجدار الأيسر، كأنه يختار شريط كاسيت بعينه. قرأ عنوانه: (وقائع اللقاء الذي عقدته الجبهة مع الكتاب والصحفيين على مدرج الجامعة.) ضغط حسان على مفتاح العمل في الآلة بعد أن وضع الشريط في مكانه. سمع صوت لغط وضجيج جمهور في بداية اللقاء. نظر حسان صوب باب الزنزانة. لم ير بقعة الضوء التي ألقاها شعاع الشمس من النافذة الخلفية، وقد انطبعت على الباب الحديدي الأصفر، بل رأى مدرج جامعة دمشق. على المنصة الرئيسية في صدر القاعة جلس أربعة أعضاء من قيادة الجبهة، وفي مقدمتهم محمود الأيوبي أمام الميكرفون الرئيسي يتحدث في كلمة افتتاحية.

القاعة تغص مقاعدها الأمامية بأعضاء اتحاد الكتاب واتحاد الصحفيين. أما المقاعد الخلفية فقد احتلها عدد كبير من مدرسي الجامعة وطلابها الفضوليين الذين استطاعوا الاحتيال على رجال الأمن والحراس

المدججين بالسلاح المرابطين على أبواب المدرج ونوافذه الواسعة المتعددة. بقية الطلاب والطالبات والممرضات ازدحموا يتطلعون من وراء النوافذ عبر الألواح الزجاجية والستائر الشفافة.

لم يصغ حسان إلى حديث الأيوبي عن حرية الكلمة وشرف الكلمة ومسؤولية الأدباء والمفكرين والصحفيين في حمل الكلمة أمانة غالية، بل كاد يضحك بصوت عال لما استشهد الأيوبي بادعاءات السلطة عن الضمانات التي تعطيها للحريات وفي مقدمتها حرية الكلمة، إنه تعمد النظر إلى وجوه المستمعين وابتساماتهم الساخرة. أخيراً جاء دور الكلام للأدباء والصحفيين. نهض رجل في العقد الرابع من عمره لم يلبس حلة رسمية. لباسه مؤلف من معطف جلدي أسود ذي فراء تجاري يغطي نصفه الأعلى، مفتوح الصدر عن قميص أخضر داكن. أما بنطاله الأعفر فلا يكاد يستوعب جسم صاحبه لشدة ما تعرض للغسل والكي. على عينيه نظارة طبية، إطارها أسود، وزجاجها سميك شعره أسود، لكن الشيب قد بدأ يثبت وجوده وعلى الأخص في الصدغين. وجهه أبيض في غير نضارة ولا وسامة. شفتاه رقيقتان لونهما ناصل. حين تكلم أمام الميكرفون المخصص للجمهور على يمين الميكرفون الأول ظهرت أسنانه المصفرة من إدمان التدخين. السيجارة في يده قد بلغت نهايتها ولم يتخل عنها. سأل الأيوبي:

– الاسم من فضلك؟

أجاب عدد من أفراد الجمهور:

– عادل محمود.

كان عادل محمود قد قطع شوطاً كبيراً في عرض أفكاره بصوت فخيم ولهجة رصينة ولغة طيعة متدفقة. كان الجمهور مصغياً يتلقف الكلام كلام الرجل باهتمام وتعاطف واضحين. حتى قال:

– إذا لخصنا القضية الوطنية إلى أراض محتلة وإلى قضية فلسطين منشوف أنه على مستوى الأراضي ما استرجعنا أراضي في الجبهة من الناحية العسكرية... وعلى مستوى القضية الفلسطينية: الكل بيعرفوا أن الفلسطينيين أكلوا ضربة بلبنان بمساعدة أو تغاضي القوات السورية.

علت همهمة في وسط القاعة: نظر بعض المستمعين إلى بعض معجبين مؤيدين. تابع عادل:

– بالنسبة إلى القضية الاجتماعية، فإنها تبدأ بقضية الخبز وتنتهي بمشكلة الحرية، فلا مشكلة الخبز انحلت، ولا مشكلة الحرية انحلت، ولا ما بينهما انحل.

(فكر حسان الربيعي: هذه الفقرة تلزمني لاستشهد بها للطليب الأحمر.)

بالنسبة إلى الوحدة العربية منشوف أنه أخفقت في ثلاث محاولات لإقامة وحدات عربية.

دوت القاعة بتصفيق التأييد والاستحسان. فيما كان يمشي عادل محمود عائداً إلى مكانه تعالى عدد من الأيدي تلوح له من بعيد بقبضات التأييد والشكر على جرأته وصراحته. ارتفع لغط الجمهور: اختلطت الأصوات. باتت تشبه الهدير في مرجل محكم الإغلاق.

نظر حسان إلى المتكلم الجديد أمام الميكرفون. خيل له أنه يعرفه من قبل. شاب في الثلاثين من

عمره. نحيل يميل إلى القصر. ملامح وجهه تقول بصراحة متناهية: أنا فلسطيني. البشرة السمراء. الشعر الأسود والعينان السوداوان غير الواسعتين. القوة في تعابير الوجه المحددة القسمات. الصوت الحاد المرتجف لا من البرد، بل ربما من الخوف والانفعال.

– هناك موقفان هامان وتاريخيان للجبهة الوطنية التقدمية. الأول: هو التوقيع على وقف إطلاق النار في حرب تشرين. والثاني: هو مباركة ذبح الفلسطينيين في لبنان.

ضجت القاعة بعاصفة مختلطة من التصفيق وقهقهة الضحكات.. اهتم المستمعون بمعرفة اسم المتكلم. (أحمد دحبور). (الشاعر الفلسطيني. نعم أحمد دحبور). (يبدو أنه ما أخزى الشيطان.) (لكيابا رايحه ورايحه. ايش بقي.)!! مال أحد الأدباء على جاره هامساً:

يا داميَ العينين والكفين إن الليل زائلْ

لا غرفةُ التوقيف باقية ولا زرد السلاسلْ

اقترب منهما أديب ثالث من خلفهما يسمع الهمس. قال الثاني مجيباً:

نيرونُ ماتَ. ولم تمتْ روما بعينيها تقاتلْ

وحبوبُ سنبلةٍ تجفُّ، ستملأً الوادي سنابلْ

قال الثالث:

– أنا صحفي لبناني اطمئنا

التقت عيون الثلاثة. ضحكوا.

– أنا ميشيل كيلو.

(قال المتحدث الجديد على الميكرفون.)

– هذا ليس ميشيل كيلو. هذا ميشيل طن! (قال أحد أعضاء الجبهة المتصدرين على المنصة الرئيسية هامساً

في أذن عضو آخر. العضو الآخر لم يستجب للنكتة. لعله اعتبرها نيلاً من مواطن مثقف، تابع المواطن:

– الجبهة الوطنية غير موجودة. المؤامرة أننا في هذا البلد لا دور للشعب وأن الحريات قد خنقت عن عمد.

علت همهمات. تابع.

– إننا دخلنا لعبة التسوية مع السادات.

تصفيق في المدرج.

اتفاق استراتيجي مع السادات. دافعنا عنه كثيراً. أنا أذكر أحاديث المسؤولين في (اتحاد الصحافة) يتحدثون عن حلف استراتيجي مع السادات. ثم مرة واحدة نجد أن السادات ذهب مع الأمريكان ومع الإسرائيليين، فقلبت موازين القوى في المنطقة. هذه مسألة لا يمكن التجاوز عنها بشعار إسقاط (كامب ديفيد). لا يعني أن مقاومة كامب ديفيد في الإذاعة هي مقاومة كامب ديفيد في الواقع.

قال أحد أعضاء الجبهة في نفسه: (هذا الكلب يقول الجبهة الوطنية غير موجودة. أنا وأمثالي ماذا نصنع هنا؟ لا بد له من تأديب من علاج. ليرسل إلى تدمر. ليدخل أحد معسكرات (تحضير الصحراء). ليخضع إلى قانون (التطهير الوطني) الذي يطبق على معتقلي الإخوان المسلمين وإن لم يكن ميشيل من الإخوان المسلمين).

اقترب الجندي الطويل النحيل من زميله القصير السمين. كانا يحرسان الباب الجانبي الأيمن مدججين بالسلاح. كانت خوذتاهما بيديهما اليسروين. يدهما اليمينان تمسكان بحزام البندقية الروسية. قال الطويل فيما يشبه الهمس:

– قال الجبهة التقدمية غير موجودة. قال؟!

ابتسم السمين واضعاً كفه اليمنى على كرشه الضخمة.

– ألم يقل الدحبور إن الجبهة موجودة، والدليل على ذلك أنها وقعت على وقف إطلاق النار في حرب تشرين، وباركت ذبح الفلسطينيين في لبنان؟

– قال الجبهة الوطنية غير موجودة. قال؟!

وصل ميشيل كيلو إلى قرب الجنديين. خاطبه القصير:

– تفضل أستاذ ميشيل . تفضل استرح هنا. أبوس عينك على هذا الكلام.

– أنت حلبي؟

– نعم من حي الكلاسة. وهذا أبو ميخائيل من سوق الأحد.

– أهلاً بكم.

كان هناك شبه كبير بين ميشل كيلو وبين الجندي القصير السمين، لا في القصر والسمن، بل في صلعة الرأس ولون البشرة الحنطي وقصر الرقبة. صار كل منهما يطيل النظر في الآخر، كأنه ينظر إلى نفسه في مرآة. وبين الحين والآخر يبتسمان. كأنهما يكتشفان نفسيهما لأول مرة. حتى أفراد الجمهور القريبون منهما استرعاهم هذا الشبه فصاروا يتغامزون ويتندرون.

وقف في وسط القاعة شاب يطلب الدور للكلام. سمح له. مشى إلى المنصة. وقف أمام الميكرفون. متوسط الطول. أسمر البشرة. أسود الشعر. عيناه سوداوان. ملامحه وقامته تشبهان الشاعر الفلسطيني محمود

درويش... إنه الشاعر ممدوح عدوان.

– إن النظام بعيد عن الناس. وإن سبب ذلك هو الكذب.

صفق الجمهور. توقف المتكلم قليلاً، ويده اليمنى في الهواء توحي بالبعد الشاسع. بعد وقف التصفيق قال:

– لا أحد يصدق بياناً عن معركة بعدد الشهداء، ولا يصدق حتى درجات الحرارة القصوى والدنيا في نشرة الأحوال الجوية في الإذاعة.

موجة ضحك وشيء من تصفيق منقطع هنا وهناك.

– أنا أشتغل في إعلام أخجل منه لأنه يكذب في كل شيء، حتى في إخفاء الكوليرا. لماذا يكذب النظام؟ الكذب مرده إلى الخوف من الآخرين والسلطات التي تكذب هي سلطات تخاف الشعب أن يراها على حقيقتها.

صفق الجمهور بشدة تصفيقاً مستمراً.

– ما حد يحكي عن سرايا الدفاع وعن الوجه الطائفي للسلطة.

تصفيق تشجيعي.

– وعن الممارسة الطائفية لبعض عناصر النظام. أنتم تعرفون أن الناس تحكي عليها همس ووشوشة. المأزق الطائفي بده مواجهة هيك (أشار بيده اليمنى مبسوطة بشكل عمودي ممتدة إلى الأمام توحي بالصراحة والاستقامة) بده الواحد يحكي هيك (كرر حركة يده اليمنى مؤكداً ضرورة المواجهة والصراحة).

عاد إلى مقعده وتناول سيجارة من علبة سجائره ونفث الدخان بشدة في الهواء.

قال أحد المستمعين لجاره:

– هل تعلم من أين جاءته هذه الجرأة؟

– من أين؟

– إنه من أهل البيت.

– بيت السلطة؟

– نعم. بل من عظام الرقبة أيضاً.

– تعني الطائفة؟

– نعم.

– أنا أخالفك هذه المرة. إن ارتفاع صوت الطائفة لأول مرة أمر مهم. إن السلطة تخشاه أكثر من معارضة الإخوان المسلمين.

– ربما!!

– بل إنها بداية النهاية. صدقني.

– إذا لم تكن الخطة كلها مرسومة لامتصاص النقمة.

– ما أظن هذا اللقاء يمتص نقمة حتى لو كان مرسوماً له ذلك ألا ترى أن حبل الانضباط انفلت؟ انظر إلى ذلك الجبهوي كيف يعض على شفتيه ويضغط براحته المتشنجة على صدغه.

– انظر بقية الأعضاء يتصببون عرقاً. بعضهم حل ربطة عنقه.

– الأيوبي حسب حسابه. لم يضع ربطة عنق أصلاً.

(ضحكا)

– إنها تنتظره على خشبة في ساحة المرجة.

– على يد الإخوان المسلمين؟

– بل على يد سيادة الرئيس الأب الرحيم.

(يضحكان. ثم يقطعان الضحكات فجأة خشية أن يلفتا الأنظار.)

– قلت لك مئة مرة: لا تضحك أمام الغرباء.

– قلت لك مئة مرة: لا تسخر من ابن الشعب.

(يضحكان).

وقف أمام الميكرفون الأديب علي المصري. بدا كأن الجمهور كله يعرفه من قبل، أو أن من لم يكن يعرفه من قبل سرت فيه عدوى الحب والإعجاب بهذا الأديب الساخر. وقفته تصطنع الجد الزائد، على حين كان فمه يحبس ضحكة. رفع ذراعه اليمنى. كور قبضة كفه كما يفعل الكتاب، لكنها الآن توحي ببداية حديث محدد، الجمهور يقاطعه تودداً وممازحة. توارى لون بشرته الأبيض ليحل محله بشرة حمراء. شعره الأشقر صار يلمع بإشراق نتيجة انعكاس الضوء الكهربائي على حبيبات العرق الغزيرة. لباسه بسيط جداً أشبه بلباس صيفي لولا الكنزة التي تغطي نصفه الأعلى ورقبته حتى أذنيه وأسفل ذقنه. الكنزة أيضاً شقراء زاهية على بنطال أسود يكاد يحجب الحذاء. بنية جسمه توحي أن عمره في العقد الرابع، أما تجاعيد وجهه في الجبهة العريضة وحول الفم فتوحي بأنه هرم.

نهض عدد من أفراد الجمهور يطلب من الآخرين الصمت لسماع كلام الأديب. بدا واضحاً أن الجمهور هو سيد اللقاء. يصمت حين يريد. يتكلم يضحك حين يريد. يعلق على كلمات الخطباء كما يريد. أخيراً تكلم علي المصري:

– استوقفتني عند الصباح أم العيال وراء غسالة (فريسكو) ترجوني أن لا أتكلم.

(الصمت خيم على القاعة كلها. سواء القاعدون

والواقفون من كان داخل القاعة أم من كان يتلصص من وراء الزجاج والستائر.)

– فقلت لها: رجاؤك مقبول إنما أريد أن أنقل آراءكِ. فقالت: دعك من هذا، فالكلمة فقدت شرفها.. فقلت لها: دعيني أنقل مشاعركم، أدافع عن حسام ووسام وهمام. قالت: لا يمكنك الدفاع عنهم، لأنك لا تملك في هذا البلد شيئاً. قلت لها: بل سأتكلم. قالت: تذكر أن من ستتكلم عنهم سيعودون في التاكسي (280اس) وستعود أنت بالباص. فقلت لها: فليكن لن أتخلى عن مسؤوليتي. قالت: إنك لست مسؤولاً حتى عن نفسك، لأنك بالرغم من كتبك الثمانية يأتي أحدهم من أسفل الأقبية ويسألك: من أنت؟ فبماذا تجيب؟ قلت لها القصة التالية: سافرت في السنة الماضية إلى أوروبا، وقضيت ثلاثة أشهر على باب الهجرة والجوازات. نودي: علي المصري، فرفعت يدي، فقال بالحرف الواحد: (يا خرى. صار النا ساعتين منادي عليك) وقذف لي بالجواز من فوق رؤوس الجماهير.

لما وصلت إلى مطار لندن. قدمت جواز سفري للموظف المختص؛ تأمل الموظف جوازي قائلاً: هل أنت عضو في اتحاد الكتاب. قلت: نعم. نادى الموظف شرطياً وسلمه جوازي مشيراً إلي. قلت: الآن علقنا. اقترب مني الشرطي، وسألني: هل لك أمتعة. قلت: نعم. أشار إلي أن اتبعني. تبعته حتى استلم أمتعتي وحملها، وقال: اتبعني من فضلك فتبعته إلى خارج المبنى، حيث استوقف سيارة أجرة، وضع أمتعتي فيها، ثم فتح لي الباب الخلفي، وأدى لي التحية قائلاً: نحن نرحب بعضو اتحد الكتاب. لم أكد أصدق ما رأيت وما سمعت. لكن

هذا ما حصل معي. لا جدوى من الكلام، لأن أرخص شيء الإنسان والكلمة.

ضجت القاعة بتصفيق حاد مستمر. لم يتمالك حسان إلا أن صفق هو أيضاً. ولما هدأت موجة التصفيق أعاد الشريط قليلاً يستعيد سماع القسم الأخير منه.

ارتوى من هذا الشريط حسان الربيعي. خطر له موضوع الخطاب الذي ألقاه شقيق الرئيس السوري في المؤتمر القطري السابع في نهاية عام 979 وبداية عام 980 لما فيه من مناقضة كبيرة لكلمات الأدباء والصحفيين وحقوق الإنسان. مد يده إلى رف الأشرطة بحثاً عن شريط بهذا العنوان. لم يعثر عليه. تذكر أن نص الخطاب قد وصله خطياً وليس على شريط كاسيت. ثم تذكر أن بقعة الشمس قد انتقلت من جهة الباب إلى طرف الجدار الأيمن. هذا يعني أن موعد طعام الغداء قد حان وانقضى. كيف حصل التأخير؟! جرب أن يأمر ويطاع. تعال يا طعام الغداء ولتكن رزاً وفولاً أخضر مع لبن. انفتح باب الزنزانة فوراً. جاء طعام الغداء. كان رزاً وبازلاء مع سلطة خضروات.

الليلة الثامنة

مساء يوم الأربعاء 11 حزيران 1980

(في حلم أنا أم يقظة؟ ما أدري!)

كل ما يتذكره حسان الربيعي أنه استطاع أن ينام بعد منتصف الليل. كان معتقلاً في سجن خارج بلاده، وها هو ذا الآن يجد نفسه في زنزانة جماعية واقعة في سجن الحلبوني وسط العاصمة دمشق. كان وحيداً فأصبح وسط جماعة كبيرة. كان بعيداً فصار وسط بلاده. لكن كيف حدث هذا مرة واحدة وخلال

لحظات؟!

لم يشأ حسان أن يجهد نفسه بالتعليل لأنه صادف في حياته غرائب كثيرة. وطن نفسه على الصبر والتأمل ريثما تتضح الأمور، فلا يهدر شيئاً من راحته وأعصابه بلا طائل.

لكن المفاجأة كانت أكبر من المتوقع. إن هذه الزنزانة التي حشر فيها ثلاثون سجيناً في أقل تقدير، كانت تضم فيمن تضم زملاء حسان الذين اعتقلوا معه صباح اليوم الخامس من شهر حزيران: الشعار والشامي وماضي والسيد وابنه مجاهد. وفوق ذلك كانت تضم أيضاً الشهداء الخمسة عشر الذين أعدموا منذ عام في سجن القلعة: الطبيب حسين خلوف، والطبيب مصطفى الأعوج، والأخوين مهدي وعمر علواني، والطالب عصام عقلة، المهندس عبد العزيز سيخ، والموظف مصطفى حمشو، والشقيقين مروان ومجاهد دباح البقر والخضري عبد الرزاق فاعور، والطالب خالد علواني، ومسعف الشيخ إبراهيم، وصفوان عدي، والموظف محمد سعيد الحمش، والجندي حسن سلامة، وآخرين لم يعرف أسماءهم، على أن ملامحهم ولهجتهم تدل على أنهم جميعاً سوريون. كان الشهداء أحياء يلبسون ألبسة بيضاء. الجلابيب والقبعات والأحذية الخفيفة اللطيفة. أما الآخرون فيلبسون الألبسة المدنية المعتادة، كأنهم على رأس عملهم في الحياة اليومية. كلهم كانوا يقظين بعد منتصف الليل، يتبادلون الأحاديث الودية جماعات جماعات. يتأهبون لسفر. ولم يكن لديهم أمتعة تستحق الإعداد.

أرهف حسان سمعه، فأحس بخرير بردى تحت أبنية المنطقة. تنفس بعمق، فشم عبير الياسمين الدمشقي يملأ الأرجاء. (لم يعد لدي شك بأنني الآن في دمشق. ما الذي جاء بي؟ ماذا يراد لي؟ وهؤلاء الشهداء كيف انبعثوا من قبورهم؟ هل كان إعدامهم مجرد لعبة إعلامية؟!).

نودي على نزلاء الزنزانة بأسمائهم، وقسموهم إلى مجموعتين. كل مجموعة في سيارة (باص) عسكرية. تسير أمامهم سيارة جيب عسكرية، وخلفهم سيارتا جيب عسكريتان. تحرك الموكب شمالاً لا يدرون إلى أين!

كانت إحدى السيارتين الخاصتين بالمعتقلين تضم مجموعة الشهداء ليس بينهم إلا حسان الربيعي. أما السيارة الثانية فكانت لبقية المعتقلين.

على الرغم من وجود القيود في أيدي المعتقلين وكثافة الحراس المدججين بالسلاح في مقدمة المقاعد ومؤخرة المقاعد وبين المعتقلين، تجرأ حسان الربيعي على التحدث مع جاره الذي كان يظنه قد استشهد.

– ألست الأخ عبد العزيز سيخ؟

– نعم. وأنت أستاذي أبو مجاهد؟

– هل تذكر لما عاتبتني على انقطاع التنظيم عنك مدة عام كامل بسبب انتقالك من المرحلة الثانوية إلى المرحلة الجامعية عام 1974؟

– وأذكر أنك دعوتني إلى العمل معكم في جهاز الإعلام على الرغم من أن شهادتي كانت في الفرع العلمي.

– لكنك كنت متفوقاً في الجانب الأدبي مثل تفوقك العلمي والحركي.

– الخير فيما اختاره الله.

– هل صحيح أنك استشهدت؟

اكتفى عبد العزيز بالابتسام. وهو في العادة كثير الابتسام ذو لحية لطيفة صهباء جميلة. كان حسان في طرف المقعد الثالث على اليمين من ناحية وسط السيارة، فمال على جانبه الأيسر بنصف استدارة ليكلم الدكتور حسين مخلوف، وهو يبتسم:

– السلام عليكم.

– وعليكم السلام. (ابتسم وأشرق نور المودة في محياه).

– بعد زمان يا أبا علي؟

– أي والله بعد زمان يا أبا مجاهد.

– هل تذكر لقاءاتنا في حلب: في الأنصاري وباب جنين والسبيل؟!

– كيف لا؟ وهل تذكر أنت ليالينا في حماة: في حي الشريعة والزنبقي والبارودية؟!

– هل تذكر كلمتك: إن لغة الرصاص هي التي تجدي وحدها اليوم.

– وأذكر كلمتك أيضاً: إن الكلمة المجاهدة أخت الطلقة الثائرة ولا تغني إحداهما عن الأخرى.

كانت شمس الصباح تلقي شباكها الذهبية على أهداب مدينة دمشق الناعسة فيما كان موكب السيارات يغادر الضواحي الشمالية للعاصمة على طريق (دمشق –حلب).

أعطيت التعاليم بالتزام الصمت وعدم الكلام أو

التحرك أسدلت ستائر النوافذ السود الكثيفة، فحجب ضوء الشمس الباهر، ومنع المعتقلون من التطلع إلى السيارات العابرة أو معالم الطريق. طلب إليهم الاستماع لحصة توعية تلقى عليهم من خلال جهاز (فيديو) في صدر السيارة.

ظهر على شاشة التلفزيون رجل معروف جداً، لكن حسان لم يستطع تذكر اسمه. لم يجرؤ أن يسأل جيرانه عنه. نطق هذا الرجل وهو يخطب في قاعة مكتظة بالرجال بالألبسة المدنية والعسكرية:

– أيها الرفاق. يجيء مؤتمرنا القطري السابع في ظروف إقليمية ودولية بالغة الدقة وبالغة التعقيد، مما يقضي بالضرورة أن تكون النظرة المتبصرة المحللة فيه على أعلى مستوى من الموضوعية والأمانة التاريخية...

(هل جرى تطور نوعي في أجهزة المخابرات السورية، فأقلعت عن التعذيب الجسدي والنفسي، ولجأت إلى وسائل الإقناع العصري؟ أشك في ذلك سوف نرى)

– إني أحذركم من الخطر القادم سيلاً جارفاً يتجاوز في تدميره الكثير من السدود الهرمة الموضوعة في أمتنا... فأنتم الآن وأمتنا العربية معكم أمام حضارة متقدمة جداً تدق أبوابكم الأولى..

(إن الحلة السوداء والقميص الأبيض وربطة العنق الأنيقة والوجه الحليق، كل هذه المظاهر لا تعني تحضراً ولا تمدناً. أنا أعرف هذا المتكلم أبعد ما يكون عن الحضارة والوعي الحضاري، فمن أين له هذا التشدق؟)

أحس الخطيب بخواطر حسان المعارضة، ضغط على زر

بجواره. أشار بإصبعه إلى حسان عبر (الشاشة)، فتحرك أحد الحرس من خلف حسان، وضربه بالسوط ثلاث ضربات موجعات. كف حسان عن الانتقاد في ذهنه!

– إن كل الذي أنجزناه لا يقف وحده قبالة الطغيان القادم. لقد أنجزنا أقل من المطلوب للمجابهة، بخطأ أكثر من المتوقع. لنكن صريحين، ولنملك دوماً شجاعة الحقيقية وعصبية العروبة. لسنا بدعاً من الأمم. إن لنا نظريتنا التي نتعصب لها. ليكن الولاء أولاً وأخيراً للحزب. ولتسقط إلى الأبد كل الولاءات الأخرى.

صفق الجمهور المستمعين في الشاشة. لم يصفق المعتقلون في السيارة. هوت السياط على المعتقلين تلزمهم بالتصفيق. لم يصفق أحد. اشتد ضرب السياط عاد الخطيب إلى الكلام. توقف ضرب السياط.

– لقد انتصرت ألمانيا بتعصبها للعقل الألماني وللإنسان الألماني وللشعب الألماني. ستالين –أيها الرفاق– أنهى عشرة ملايين إنسان في سبيل الثورة الشيوعية واضعاً في حسابه أمراً فقط هو التعصب للحزب ولنظرية الحزب، ولو أن لينين كان في موقع وظروف وزمان ستالين لفعل مثله. فالأمم التي تريد أن تعيش أو أن تبقى تحتاج إلى رجل متعصب وإلى نظرية متعصبة. فلم لا يكون تعصبنا للحزب وللحزب وحده؟

صفق جمهور المستمعين في الشاشة. لم يصفق المعتقلون في السيارة. هوت السياط تلزمهم بالتصفيق. لم يستجب أحد.

– نعم أيها الرفاق. إن زمام الأمور يكاد يفلت من

يدي رجال الأمن والنظام.

أولاً – ضعفت ثقة الحزب بالحكم، وسقطت هيبة القيادة لديه، وأصبح قلقاً من الداخل.

ثانياً – فقد المواطن العادي (الحيادي) شعرة الثقة بينه وبين النظام. فمطلق مواطن عادي يعلق بعد أي حادثة اغتيال قائلاً: وبالطبع ألقي القبض على القتيل وفر القاتل. أضف إلى ذلك كله ما يولده لدى المواطن منظر رجل الأمن المتفاخر والمتعالي من نفور وسخط داخليين.

تمهل موكب السيارات لتخرج من خط (دمشق –حلب)، وتنعطف شرقاً على طريق (دمشق –تدمر). اختلس المعتقلون النظر من خلال الستائر الكثيفة، وقرأو الشاخصة على جانب الطريق: (القريتين. تدمر)

انهمرت عليهم سياط الرجال المسلحين. لم يبالوا بها على الرغم من شدتها وتتابعها.

ما إن دخل موكب السيارات طريق (تدمر) حتى بدأت الأمور تتطور وتتفاقم. فسيارة (الباص) لم تعد سيارة عادية بل تحولت إلى مخلوق يزحف بلا دواليب ولا صوت، كما يزحف التمساح العملاق. أما الرجال المسلحون لابسو الألبسة العسكرية المبرقعة فقد انقلبوا إلى مخلوقات خرافية أشبه بالحرباوات العملاقة، تستخدم ألسنتها الطويلة لجلد المعتقلين بدلاً من السياط، وتفح فحيحاً أشبه بفحيح الأفاعي الإفريقية المسماة (الكوبرا).

كان حسان يغالب آلامه، ويكتم أوجاعه فلا يصرخ، لأن إخوانه الآخرين لا يصرخون. بل يبتسمون. ولدهشته كانت سياط الجلادين تخط على ثيابه وبدنه في كل

مرة خطوطاً حمراء دامية، على حين كانت آثارها على إخوانه لابسي الألبسة البيض تظهر خطوطاً خضراً ما يلبث لونها أن يمحى بعد قليل، وكان تحمل إخوانه للألم أكبر من تحمله، بل إنهم لا يحسون بالألم. إنهم على العكس سعيدون ساخرون بالألم وبالجلادين وبالرجل الذي يتشدق على (الشاشة)، حتى لقد خيل لحسان أن ذلك الرجل يعرفهم، وهو يائس منهم، لذلك لم يوجه إليهم أي عقوبة كما فعل به لما انتقده في نفسه.

– لذلك فإنني أقترح ما يلي: أولاً –أن يصدر قانون من السلطة يدعى قانون (التطهير الوطني) يطال كل منحرف عن المسار ممن يعتنق أية مبادئ هدامة.

(أشار الخطيب إلى ركاب الباصين المعتقلين مثلاً، هوت السياط بشدة على رؤوسهم وأظهرهم وأكتافهم.

– ثانياً: أن يصدر تشريع عن السلطة ينص على إنشاء معسكرات تدريبية بغرض (تحضير الصحراء)، وتصحيح المسار الوطني للخاطئين وطنياً. ويدعى إلى هذه المعسكرات كل من تحكم عليه المحاكم الشعبية التي تمتلك السلطة قانون (التطهير الوطني) المذكور أعلاه.

(لما سمع المعتقلون عبارة تحضير الصحراء، أزيحت ستائر النوافذ الكثيفة، فوجئ المعتقلون بمشهد لم يروه من قبل في بادية الشام: المياه تتدفق في الأقنية والبرك والنوافير. الخضرة تغطي السهوب: أشجار مثمرة وأشجار غابات ومروج عشبية لا تكاد تترك موضع إبهام. هل بدأ مشروع تحضير الصحراء

منذ سنوات ونحن لا ندري؟ أم وصلت التكنولوجيا إلى درجة أنك تضغط زراً، فتعشب الأرض وتتفجر المياه وتثمر الأشجار دفعة واحدة؟! هراء هذا هراء. لا بد من أن تكون عملية خداع وتزييف. أشار الخطيب إلى جهة حسان. هوت السياط سياط الجلادين كلها عليه وحده هذه المرة).

– ثالثاً: توضع برامج ثقافية قومية اشتراكية، التزام وطني، تقسم على درجات منهجية مدرسية، تدرس هذه المناهج في صفوف متدرجة للوافدين إلى معسكرات (تحضير الصحراء) وتصحيح المسار الوطني، بحيث تكون الغاية منها إدخال الفكر القومي والحس الوطني إلى أذهان هؤلاء الوافدين، وانتزاع الموروثات المريضة والأفكار المستوردة التي علقت بأذهانهم نتيجة التربية الخاطئة أسرياً ومجتمعياً.

(لفت نظر المعتقلين شاخصة بارزة خضراء على يمين الطريق كتب عليها بالخط الأحمر القانوني: المعسكر رقم (1) لتحضير الصحراء وتصحيح المسار الوطني. تأملوا المنطقة، وجدوا فيها صفوفاً من المهاجع والأبنية العسكرية، محاطة من كل جوانبها بالأسلاك الشائكة العالية المضاعفة، وبنقاط حراسة مشددة. في المنطقة القصية خارج الأسلاك رأى المعتقلون صفوفاً طويلة من الشباب، يمسكون بالمعاول ويفلحون الأرض بألبسة رمادية، وهم مقيدون بسلاسل حديدية، تنتهي بكرات حديدية ضخمة بعددهم، ووراءهم جنود مسلحون يمسكون بالسياط والهراوات، وهم أشبه بالحرباوات الخرافية التي تجلد المعتقلين في السيارتين. بصق حسان من

النافذة. هوت السياط عليه بشدة).

– رابعاً: توضع برامج زراعية ومناخية في المكننة الزراعية ليقوم المدرسون المختصون بتدريسها لوافدي المعسكرات، دروساً نظرية وتطبيقية، بحيث تخدم في وقف التصحر، وفي تحضير الصحراء الموجودة حالياً، وفي تعديل مناخ القطر العربي السوري مستقبلاً.

(ظهرت من وراء الستائر الكثيفة حدائق وبساتين وكروم عامرة بالخضرة والفواكه والثمار وبجداول الماء والنوافير. ثم ظهرت سهوب صحراوية أخرى أقيمت فيها معسكرات. مرت شاخصة جديدة: المعسكر رقم (2) لتحضير الصحراء وتصحيح المسار الوطني. وشاخصة ثالثة:

إذا متُّ فادفنّي إلى أصلِ كرمةٍ   تروّي عظامي حينَ أبلى عروقُها

لاحظ المعتقلون صفوف شباب آخرين بألبسة رمادية مكتوفي الأيدي مقيدي الأرجل معصوبي العيون. بين كل واحد والآخر مسافة أمتار، كالمسافة التي تترك بين الأشجار المثمرة، وأمام كل منهم حفرة كافية لطمره، وعسكري مبرقش يصوب إلى رأسه بندقية ينتظر الأمر بإطلاق النار. فصاح المعتقلون ركاب السيارتين بصوت واحد: الله أكبر. الله أكبر. اليوم نلقى الأحبة. محمداً وصحبه. وقعت السياط أو ألسن الحرباوات تجلد المعتقلين من جديد. تساءل حسان: إن الشاعر طلب دفنه إلى أصل الكرمة بعد موته الطبيعي. أما هؤلاء الشباب فيقتلون عن عمد، وتستنبت بهم الكروم على غير رغبة منهم،

فما العلاقة بين الشعار والتنفيذ. تفوووووو..ه.)

– خامساً: توضع برامج لإحياء الصناعات الوطنية التقليدية المهددة بالانقراض حالياً، إلى جانب صناعات يدوية أخرى، اشتهر بها العرب سابقاً وبخاصة سورية، وتكون لها حصص في محاضرات التثقيف وتصحيح المسار الوطني. دروس نظرية وتطبيقية.

(المعسكر رقم 3) لتحضير الصحراء وتصحيح المسار الوطني. مدرسة لتعليم رقص الباليه. فرقة رقصة البجع الأبيض. في وسط المعسكر باحة دائرية بيضاء لعلها ماء جليدي مجمد، صنع خصيصاً للتدريب على رقص الباليه. بعض المدربات ينتظرن المتدربات. صف طويل من الفتيات الشواب المحتجبات بلباس شرعي سابغ، يُخيّرنَ بين خلع الحجاب والنزول إلى ساحة الرقص أو القتل. حتى تلك اللحظة كان عشر فتيات قد اخترن الموت قتلاً على تعلم هذا الرقص العربي العريق. ولم تختر واحدة القبول بالرقص. كبَّر المعتقلون. زمجرت الحرباوات بأشداقها وألسنتها السوطية).

– سادساً: يتقدم الوافد لمعسكرات التدريب إلى امتحانات سنوية...

(لم يعد حسان يطيق الإصغاء لهذه التخرصات ولا النظر من وراء الستائر الكثيفة..)

– سابعاً: يرصد المال الكافي بحسب خطة مبرمجة متكاملة لتغطية نفقات معسكرات تحضير الصحراء وتصحيح المسار الوطني.

(على الرغم من تعطيل حسان لحواسه السمعية والبصرية وغيرها. لم يتمالك أن يختلس نظرات بين

حين وآخر. رأى فيها مقابر جماعية منظمة منسقة.
فالمقابر الجماعية ذات اللون الأخضر وضعت لها شاخصة كبيرة كتب عليها: مسلخ العسكريين المتمردين.
المقابر ذات اللون الأسود: مدفن المتمردين المدنيين.
المقابر ذات اللون الأبيض: سوق الأرانب البيض.
المقابر ذات اللون الأحمر: أطفال الراسبين في التطهير الوطني. كانت بادية الشام جرداء مقفرة.
أصبحت اليوم عامرة بالمعسكرات والمقابر والمزارع.
أليس هذا إنجازاً يفوق ما حققه يهود الأرض المحتلة من إنجازات؟!

أخيراً وصل موكب السيارات إلى مدينة (تدمر).
شرع يمر بين أبنيتها الرومانية الأثرية. مارا بسوقها الرئيسي حتى وصل إلى منطقة عسكرية محاطة بسلاسل من الأسلاك الشائكة والآليات العسكرية والمعسكرات النشطة. يتوسطها مجموعة من المهاجع والباحات المعبدة المسورة بجدار عالٍ، كتب على بابه الرئيسي (سجن تدمر العسكري). لم يسمح للموكب أن يقترب كثيراً من المدخل الرئيسي.
طلب من المعتقلين أن ينزلوا ويتمايزوا. جمع أصحاب الألبسة البيض على حدة. ومجموعة المعتقلين في الخامس من حزيران (حسان وإخوانه) على حدة. وبقية المعتقلين –وهم حوالي عشرة على حدة. نودي على المجموعة الأخيرة بالأسماء للدخول:

– صباح الركابي.

(تهامس المعتقلون فقالوا: هذا نقيب المحامين في سورية)

– هيثم المالح. محمود الصابوني. موفق كزبري.

محمد برمدا. ميشيل عربش. عدنان عرابي.
(محامون دمشقيون. لعلهم أعضاء المجلس الأعلى
لنقابة المحامين في سورية)
– عبد الكريم عيسى.
(محام حلبي له أربعة أولاد)
– أحمد عبدو.
(محام إدلبي له سبعة أولاد)
– أحمد قرة بولاد.
(محام حموي له بضة أولاد. معتقل منذ عام 1978.)

لما نودي على أصحاب الألبسة البيض لم يجد الجلادون لهم أثراً. بينما تبادل أصحاب الألبسة البيض التحيات مع بقية إخوانهم المعتقلين، ثم أمسكوا بأيدي بعضهم على شكل دائرة بيضوية، ثم طاروا في الهواء سرباً ضاحكاً مقهقهاً بضحكات مجلجلة صعداً صعداً حتى اخترقوا السحب الصيفية الشفافة. وغابوا في أعالي السماء الصافية الزرقاء.

ارتبك الجلادون في عملية الاستلام للمعتقلين على أثر غياب أصحاب الألبسة البيض. لم يجدوا بداً من اعتقال عناصر الحرباوات جزاءً على تواطؤهم أو إهمالهم. ولما جاء دور مجموعة المعتقلين في الخامس من حزيران لم يجدوا لها مكاناً في سجن تدمر. اضطروا لتحويلها إلى أحد معسكرات (تحضير الصحراء). لكن أي معسكر منها؟ الأمر يحتاج إلى فحص تمهيدي لهؤلاء الوافدين أولاً، وإلى موافقة القيادة العليا في دمشق ثانياً، وإلى نوع الفرز الذي تجريه الإدارة العليا لمعسكرات (تحضير الصحراء) لهؤلاء المعتقلين.

انقضت اثنتا عشرة ساعة في الانتظار تحت حر

الشمس اللاهب من وقت الظهيرة حتى منتصف الليل. تخلل ذلك جولات تفقدية بالسياط والعصي والقمامة والسباب. وجولات أخرى للتفتيش عن النقود والساعات والخواتم والأمشاط والأوراق الثبوتية وتدقيق الأسماء والأعمار والحرف وأمكنة الولادة والإقامة.

(إذن هذا اعتقال حقيقي على النمط السوري؟)

قال حسان لنفسه وقد بلغ الضيق منه أقصاه. صمم على الهرب أو المقاومة ولو أدى الأمر إلى الموت، لأن مثل هذا الاعتقال لا يطاق، ومصيره الموت فلماذا الانتظار. انهمرت السياط وسلاسل الحديد والكابلات على حسان. صار يتخبط بدمائه، كما يتخبط الغريق بالمياه. أراد الصياح لم يسعفه صوته ولا لسانه. أراد الاحتماء بذراعيه لم تستجيبا.

(يا رب. ما هذا البلاء؟ أموت ولا أستطيع المقاومة! أعني يا رباه.)

أفاق حسان على صوت أذان الفجر، وهو يتقلب على بلاط زنزانته الانفرادية يتصبب العرق منه لشدة الحر. لم يكد يصدق أنه كان في كابوس. حمد الله تعالى على النجاة. صار يقبل جدران الزنزانة، لأنها كانت أجمل من جدران السجن العسكري في تدمر، وألطف من الأسلاك الشائكة التي تحيط بمعسكرات تحضير الصحراء. إنه في الأقل سمع الأذان ويستطيع أن يصلي بكل حرية.

الله أكبر. الله أكبر.

النهار التاسع

الخميس 12 حزيران 1980

بعد صلاة الصبح لم يستطع حسان الربيعي أن

ينام. كان بحاجة إلى النوم لكن مشاعر أخرى كانت تحول دون ذلك لعل أهم هذه المشاعر الهرب من الكابوس الذي وقع تحت وطأته خلال الساعات القليلة الماضية، ومثل ذلك فرحه بأن يقظته هذه تنقله إلى حقيقة واقعة وهي أنه ليس في قبضة الحرباوات ولا حكام بلاده. انكب على القرآن يتلو منه ما يتيسر، وأشتغل بذكر الله تعالى وحمده والصلاة على رسوله عليه السلام إلى أن أشرقت الشمس، وحان موعد الإفطار. أخذ يسمع الأصوات الرتيبة: فتح أبواب. نقل طعام. إغلاق أبواب. نداءات الحرس. خرير إبريق الشاي يسكب من عل. روائح الفول المدمس والبيض المسلوق وأبخرة الشاي تتجول في الممر الطويل، تتسرب إلى الزنزانات موجة إثر موجة.

– صباح الخير يا حاج. (قال الحارس اللطيف)

– صباح الخيرات يا أخي. (قال حسان)

بكل هدوء تم تسليم الطعام وصب الشاي وإغلاق باب الزنزانة. لم يكن حسان بحاجة إلى المقارنة بين الحرباء التي كانت تجلده في الحلم من دمشق حتى تدمر وبين هذا الحارس (اللطيف). شاب دمث هادئ، يحمل شيئاً من سذاجة الأطفال وبراءتهم مع شيء من ثقة الشباب. لعله حارس جديد، ولعله بعد أيام قليلة من ممارسته وظيفة السجان، والإطلاع على أحوال السجناء داخل زنزاناتهم، ورؤية كل منهم مشغولاً بشيء من العبادة (تلاوة القرآن – تهجد – ذكر – قيام الليل – تفكر في ملكوت الله...) تأثر بهذه المشاهد، وأحس في أعماقه بتجاوب عميق مع هذه الأجواء، وظهر على سلوكه، إذ سرعان ما اتخذ لنفسه مصحفاً، وبدأ

يقرأ القرآن في الممر بصوت مرتفع.

بعد أن انتهى توزيع الطعام عاد الحارس (اللطيف) يمر بالزنزانات سائلاً:

هل يلزمكم شيء. شاي. خبز؟!

– شكراً. شكراً.

– نعم. أنا يلزمني مزيد من الشاي. (قال حسان)

– أنت يا حاج كنت تتقلب كثيراً في نومك هل أنت مريض؟

– لا. أبداً. شكرك كنت أرى حلماً.

– يبدو أنه حلم غير مريح. (ابتسم الحارس وأشرق وجهه الأبيض، وانعكست أشعة الشمس على شاربيه الأشقرين وحاجبيه الأملسين.)

– يبدو.

– اليوم عندنا حصة تنظيف وحمام.

– نحن جاهزون.

– هل شربت الحبة الحمراء.

– طبعاً. طبعاً. شربتها. ماذا فيها؟

– هذه للتعويض عن التعرض للشمس.

تذكر حسان أنه لما استلم تلك الحبة الحمراء البراقة تردد قليلاً في تناولها خشية أن يكون فيها مكروه أو سم. (لو أرادوا قتلي أو دس السم لي لما احتاجوا إلى هذه الحبة. أنا أتناول طعامهم وشرابهم وبين أيديهم. ما حاجتهم إلى حبة السم؟ على كل حال: الأعمار بيد الله.)

ابتعد الحارس عن كوة الباب. أخرج منديلاً أبيض من جيبه. رآه حسان وهو يمسح عينيه بصمت. (هل يبكي حزناً علي؟ أم أن خاطرة محزنة ألمت به؟ هذا

مخلوق إنساني ولا غرابة في أن يحس ويتألم. بل الغرابة أن لا يحس ولا يتألم. لكن لماذا يتكتم؟ إن الحرباوات كانت تمارس عدوانها جهرة. وهذا هو الفرق!)

بعد تناول طعام الغداء وغسل الصحون بدأت عمليات الاستحمام. يغلق حارس الممر كوى الزنزانات. يفتح باب زنزانة. يخرج أحد المعتقلين بمرافقة حارس آخر إلى حيث يقع الحمام الفردي في المبنى المجاور. في بعض الأحيان يستحم سجينان كل منهما في حمام انفرادي. وهو عبارة عن غرفة مربعة (2م × 2م) جداراها الجانبيان لا يرتفعان فوق مستوى الأكتاف، ومثل ذلك الباب الخشبي. مدة الاستحمام لا تتجاوز دقائق معدودة يتخللها نداء الحارس المرافق بالاستعجال.

في إحدى المرات شرع سجين بخلع ملابسه استعداداً للاستحمام. فوجئ بالحارس يحثه مستعجلاً، فما كان منه إلا أن أعاد ارتداء الملابس قبل أن يفرغ من خلعها. كان حسان وإخوانه السجناء يتضايقون من قصر مدة الاستحمام.

مع عملية الاستحمام كانت تجري عملية غسل الملابس المتسخة. أحياناً تغسل الملابس في الحمام، وأحياناً أخرى في الباحة الصغيرة الكائنة عند المغاسل.

حين بدأ حسان بغسل ثيابه الداخلية في وعاء بلاستيكي أحمر عند المغاسل كان حارسان يراقبان عملية الغسل: الحارس الشاب اللطيف والحارس ذو الشوارب.

إن الكلام عن شوارب هذا الحارس إنما هو كلام عن كيان الرجل كله، فهي بؤرة الاستقطاب الأولى لاهتماماته الشخصية كافة. وإذا صح أن الشعر يتغذى من دماء المخ، ونمو الشعر يؤدي بالضرورة إلى ضمور المخ، فنحن أمام معادلة منطقية تتجسد عناصرها الأساسية في شوارب صاحبنا ودماغه. إنه يفتلها دائماً، ويلامس أطرافها باستمرار واعياً أو غير واع. إنه مدمن حقيقي للمس شواربه. طرفا الشاربين يجب أن يكونا متماسكين معقوفين مثل شوارب عنترة في لوحات الرسم الشعبي، وإلا فإن (الديكور) كله غلط ولأجل هذا فإن عمل الإبهام والشاهدة في كل من يديه، عملهما الأساسي هو المحافظة على عقفتي الشاربين. ومن هنا ندرك سر استغناء الرجل عن السبحة.

ولا بد من العودة إلى ذكائه مرة أخرى، لنذكر موقفاً قد يكون في مصلحته هذه المرة. وهو أن السجين عبد الحكيم السيد، منذ دخل الزنزانة في اليوم الأول، درج على عادة معينة، وهي التنحنح عند الخروج من الزنزانة إلى دورة المياه أو إلى التحقيق.... وكان (أبو الشوارب) قد لحظ هذا من التجربة الأولى معه، إلا أنه تجاهل الأمر في البداية مرتين أو ثلاثاً لظنه أن عبد الحكيم يتنحنح بشكل طبيعي غير مقصود، بينما كان في الواقع يفعل هذا ليشعر إخوانه في الزنزانات الأخرى أنه موجود، لعل هذا يعطيهم ملمحاً ما من ملامح الموقف، أو عنصراً يساعدهم على الربط بين بعض العلاقات التي يشوبها شيء من الغموض نتيجة العزلة عن العالم الخارجي. إلا أن الرجل شعر بأن عبد

الحكيم قد "زودها" أكثر من اللازم، فنهره بفظاظة على أثر إحدى (النحنحات) زاعماً (أن الكثيرين من أمثاله قد مروا على رأسه، وأن هذه الأساليب لا تجوز عليه.) ولقد كف عبد الحكيم بعدها عن التنحنح بعد أن وازن بين سلبياته وإيجابياته، وأدرك أن شوارب الرجل المعقوفة تحمل تصميماً من نوع ما، وأن سياسة (هز العصا) يمكن أن يستبدل بها أحياناً سياسة (فتل الشارب). وبعد أن انتقل عبد الحكيم إلى زنزانة أخرى، علم الرجل أن عبد الحكيم يدخن، فربط بين تلك النحنحة التي زجره بشأنها وبين الدخان، واستنتج أن تلك العادة لديه إنما هي عادة اضطرارية بفعل الدخان وليست مفتعلة، أو بالأحرى ليس القصد منها استغباءه وتمرير رسائل رمزية من وراء ظهره. إن عملية الربط هذه بين العلاقتين (الدخان – النحنحة) تدل على أنه على حظ من الذكاء والعطف.

استلم حسان حصته من مسحوق الصابون، وشرع يبلل ألبسته المتسخة بالماء تمهيداً لغسلها بالصابون. كان على حسان أن يتقن عملية الدعك والمعك ثم العصر للأمتعة بين الفينة والأخرى كي ينجو من تعليقات أبي الشوارب.

– أنت سوري؟

– نعم.

– هل غسلت ثيابك قبل هذه المرة؟

– لا.

– من يغسل لك إذن؟

– زوجتي.

– هل أنت متزوج؟!

– نعم وعندي أولاد. ابني مجاهد في إحدى هذه الزنزانات.

– صحيح؟!

– جداً.

– ماذا تعمل؟

– مدرس لغة عربية.

– معك شهادات؟

– شهادتي تؤهلني للتدريس في الجامعة.

– تدرس في الجامعة وأنت لا تعرف كيف تغسل ثيابك؟!

كان أبو الشوارب يسأل هذه الأسئلة، وهو يستند بظهره إلى زاوية الجدار عند الباب الوحيد الذي يؤدي إلى خارج الممر، وبجواره الحارس اللطيف يراقبان عملية الغسل ويحاوران حسان الربيعي. أبو الشوارب يضع يديه في جيبي سرواله، وقد لف ساقاً على ساق مقوساً ظهره من الاهتمام. على حين كان الحارس الآخر متكئاً بكتفه اليمنى إلى الجدار، ويبدو أطول قليلاً من زميله الذي يميل إلى القصر والسمن بآن واحد. لم يطق الحارس اللطيف صبراً على عجز حسان. قال:

– انظر كيف يكون الغسل يا حاج.

نهض حسان واقفاً، ساعداه مكشوفان. الماء والصابون يسيلان من أصابعه. نصف جسمه الأعلى عار. شعره أشعث. العرق يتصبب من وجهه. قال أبو الشوارب وهو يفتل شاربه الأيمن:

– هل تعلم ماذا يفعل موظفو الأمن السوريون على الحدود؟

– لا أعلم بالضبط، ولكن أتوقع أنهم يسيئون

المعاملة مع كل الناس.

– أقصد ماذا يفعلون مع النساء؟! (اعتدل أبو الشوارب في وقفته. مد يديه إلى أزرار بنطاله الأمامية. شرع يفكها ويمثل عملية الفاحشة التي يتحدث عنها. انعقد لسان حسان. جف حلقه. أحس بطعنة في أحشائه. استفظع الواقعة وحكايتها. جاء دور أحد السجناء للخروج إلى الحمام ورجوع آخر. طلب من حسان أن يدير ظهره للجدار كيلا يُرى ولا يرى. كان طعم المرارة ما زال في فمه. تجنب الخوض في أي حديث بعد ذلك عاد إلى زنزانته مهموماً. فكر في صحة الواقعة. (أنا أستبعد وقوع مثلها، لكن الذي يقتل الأبرياء رجالاً ونساءً وأطفالاً ماذا يمنعه أن يرتكب الفاحشة أو يغتصب الحرائر؟! من اختطف العروس غفران أنيس واغتصبها من ثم قتلها؟ من اعتدى على زوجة المحامي الدمشقي؟! تلك كانت حوادث متفرقة. صحيح أنها لم تلق العلاج الجذري والعقوبات الرادعة. لكن هل وصل الأمر إلى التكرار والذيوع والانتشار؟.)

لما جاء دور حسان في الاستحمام ذهب الحارس اللطيف برفقته. استعاذ حسان بالأدعية والأذكار ليخفف من وطأة ما سمع أخيراً. حين ألح عليه الحارس – كالعادة – بالاستعجال. قال حسان:

– لا حول ولا قوة إلا بالله. إلى الله المشتكى.

اضطرب الحارس اللطيف فقال:

– يا حاج هل تشكوني إلى الله؟!

– لا يا أخي. أنا أشكو إلى الله تعالى على نفسي التي تعودت البطء في الاستحمام وعدم الاستعجال. أنا أستغرق ساعة في الحمام...

– ماذا صنعت لك يا حاج حتى تدعو علي؟!

– افهمني يا أخي. أنا لا أدعو عليك أنا أدعو على نفسي.

– بدلاً من أن تدعو علي كان الأفضل أن تستعجل. الناس ينتظرون الدور.

– تكرم. سوف أستعجل.

بالنسبة إلى السجناء الآخرين لم يكن حسان مستعجلاً فهو بطيء أولاً، وهو مصمم على كسب دقائق فوق المعتاد ثانياً، لكن حوار هذا الحارس اللطيف أحبط مساعيه إلى حد ما هذه المرة.

النهار الحادي عشر

السبت 14 حزيران 1980

"لو كان عندي نسيج السماء،

الموشى بأنوار الليل والنهار

لفرشته تحت قدميك

لكنني فقير

لا أملك سوى أحلامي

وها أنذا أبسطها تحت قدميك

فخففي الوطء

إنك تطئين أحلامي."

كان حسان الربيعي يدندن بهذه الأبيات المترجمة عن الشاعر الايرلندي (وليم بتلر ييتس). لم ينتبه كم أعاد إنشادها والترنم بها، ولم يسمح لنفسه بالتأمل في سبب خطورها على باله: أهو الحنين إلى الوطن أم الشوق إلى الزوجة؟ إن غزل ييتس في رأيه قد أدمج الحبيبة بالقضية. فهل هذا هو سبب تذكره؟ وهل هذا ما تلحظه في شعر بدر شاكر السياب لما

اغترب عن وطنه وبعد عن زوجته فقال:

لو جئتِ في البلد الغريب... إليَّ ما كَمُلَ اللقاء

الملتقى بكِ والعراقُ على يديَّ هو اللقاء

(آه.. الآن تذكرتك يا ييتس.)

تذكر حسان أنه في شبابه شاهد فيلماً سينمائياً عن الثورة الايرلندية. لم يبق مخزون الذكريات من ذلك الفيلم إلا شخصيتان. شخصية طالب جامعي غريب كان صديقاً لأحد الثوار، وكانت هذه الصداقة سبباً للاشتباه به ولتورطه في الثورة حتى النهاية، وهو غير مصمم ولا ميال إلى ذلك وشخصية الشاعر الايرلندي الذي حقق حلمه بالعيش في كوخ على جزيرة ايرلندية منعزلة بعيداً عن حياة لندن المضجرة، قريباً من أمواج البحيرة التي يسمع صوتها في قرارة نفسه مهما بعد عنها أو غاص في شوارع لندن.

لكنها لم تكن في الفيلم عزلة خالصة. كانت جزءاً من العمل الثوري الذي اضطلع به ييتس بدءاً بنظم الأشعار، وانتهاء بحمل السلام في وجه الطغيان.

(نعم تمنيت يوماً أن أكون شاعراً ثائراً مثل ييتس. أن تكون لي قضية وأن أعمل في جماعة ثائرة بوجه الظلم والفساد..)

تذكر حسان مشهداً من مشاهد هذا الفيلم حين ألقي القبض على الطالب الجامعي الهارب مع صديقه الثائر بعد مطاردة ليلية في شوارع (دبلن). تذكر كيف نقل إلى معتقل يسجن في الثائرون في زنزانة طويلة تحت الأرض. كل سجين مربوط بالسلاسل إلى صليب خشبي ضخم، كأنه خشبة إعدام اندلقت من جدار صخري عار غير مصقول.. بدت تلك الزنزانة كهفاً طويلاً

مظلماً تتلوى فيه أجساد السجناء وأرواحهم في صفين متقابلين.

(هذا المشهد هز أعماقي فضعفت رغبتي في أن أصير شاعراً ثائراً. وخصوصاً أنني كنت خارجاً حديثاً من اعتقالات عام 967. لكني ماذا أصبحت الآن؟)

رواية < خطوات في الليل(7)

خطوات في الليل(7)



محمد الحسناوي*
shasansh@hotmail.com

مع الأيام استمرت صورة الشاعر ييتس منطبعة في مخيلة حسان: رجل مربوع القامة. بسيط اللباس. قميص وبنطال. يجلس على كرسي قصير بلا مسند.. أو ربما على جذع شجرة يابسة في جزيرة ايرلندية، يكتب الأشعار وماء البحيرة هادئ يمتد وراءه وبجواره. لم يعد يذكر تفاصيل سحنته، لكن ملامح وجهه مألوفة جداً. بدا له وهو أشبه ما يكون بملامح منطقة البحر الأبيض المتوسط هي ملامح بالتأكيد مخالفة لملامح الإنكليز.

في السبعينات تعرف حسان الربيعي على مجموعة من الشعراء الشباب في حلب سموا أنفسهم (جماعة عبقر): مضر ومحمد وحسام وموفق. كان أعضاء هذه الجماعة يترجمون الشعر الإنكليزي فضلاً عن نظمهم الشعر. وكانوا يطلعون صديقهم مدرس اللغة العربية حسان على نتاجهم العربي والمترجم. من المختارات الشعرية التي ترجموها لفتت نظره مقطوعات الشاعر ييتس:

"النحل يبني في شقوق
البناء المتفسخ... حيث تحمل
أمهات الطيور الديدان والذباب.
إن جداري يتداعى. يا نحلات العسل،
تعالي وابني في بيت الحمام الفارغ.
***
لقد أقفل علينا، ودار المفتاح

على حيرتنا. وفي مكان ما

رجل يقتل، أو يحرق بيت

ومع هذا فلا شيء تتضح حقيقته:

تعالي وابني في بيت الحمام الفارغ.

***

متراس من حجر أو خشب،

وأربعة عشر يوماً من الحرب الأهلية

أمس مساء دحرجوا في الطريق

ذلك الجندي الفتي الميت، دحرجوه في دمائه:

تعالي وابني في بيت الحمام الفارغ

***

كنا قد غذينا القلب بالتصورات،

وأصبح القلب وحشياً بغذائه،

إن في عداواتنا زخماً أكثر

مما في حبنا، آه يا نحلات العسل،

تعالي وابني في بيت الحمام الفارغُ.

في تلك السنوات اطلع حسان على كتاب الشعر والتجربة، تأليف أرشيبالد ماكليش، وتوقف طويلاً عند النصوص المختارة من شعر ييتس، تلك النصوص التي تعكس أبعاد التزام هذا الشاعر بقضية (الثورة):

"لقيتهم في نهاية النهار

آتين بوجوه نضرة

من وراء عدّادٍ أو طاولة في

بيوت رمادية من القرن الثامن عشر.

متأكداً أننا، هم وأنا،

عشنا حيث تلبس الملابس المزركشة:

كل شيء تغير تغيراً كلياً:

وولد جمال رهيب

***

تلك المرأة كانت تصرف أيامها

بطيبة يشوبها الجهل،

وتمضي لياليها بالنقاش الطويل

إلى أن يعلو صوتها حاداً

أي صوت كان أحلى من صوتها

عندما ركبت، شابة وجميلة

وسارت إلى الكلاب؟

هذا الرجل كان يدير مدرسة

ويركب حصاناً المجنح،

وذاك صديقه ومساعده كاد يبلغ أشده،

كان خليقاً بأن يلتمع صيته في النهاية،

فطبيعته كانت تبدو رقيقة

وأفكاره حلوة جريئة

وهذا الرجل الآخر كنت أحسبه

سكيراً، وفظاً مغروراً

كان قد آذى أذى مراً

من كانوا أحباء على قلبي،

ولكني أورده في هذه الأغنية،

فهو أيضاً قد ضحى بنصيبه

في الملهاة العرضية،

وهو أيضاً تغير بدوره

تغيراً كلياً:

وولد جمال رهيب.

***

قلوب بغاية واحدة فقط

تبدو صيفاً وشتاءً

***

التضحية الطويلة الأمد

قد تحيل القلب حجراً.

آه، متى تكفي؟

نحن نعرف أحلامهم، ويكفي

أن نعرف أنهم علموا، وأنهم موتى الآن،

وماذا إن كان فرط الحب

قد أذهلهم حتى الموت؟

إنني أروي قصتهم في قصيد-

ماكدوناج، وماكبرايد

وكونولي وبيرس،

الآن وفي الزمان الذي سيجيء،

حيثما يلبس اللون الأخضر،

لقد تغيروا كلياً:

وولد جمال رهيب."

لقد تمنى حسان يوماً أن يكون شاعراً ثائراً، لكنه تراجع عن أمنيته تلك في حينها. ثم إن أماني حسان لم تتحقق كلها، فلماذا تتحقق أمنيات من نوع خاص؟

(لم أكن أتوقع أن أدخل السجون، أو أن أتذكر ييتس وأشعاره المترجمة. بل لم أكن أتوقع أن أرى في الثوار الذين ذكرهم في قصيدته شبهاً بإخواني وأصدقائي وطلابي من شهداء سورية. المدرس حسني عابو والطبيب عبد الستار الزعيم والمهندس عبد العزيز سيخ والمدرس زهير زقلوطة. بل لا أتوقع ولا أرضى أن تكون ثورتنا قصيرة العمر مثل ثورة ايرلندا حينذاك. نعم كان في صفوفنا مجاهدات ومدراء مدارس وعمال وطلاب، ولم يكن في صفنا سكير واحد، ولن يكون. إن أبناء الشعب الذين أيدونا تركوا الخمرة، وتابوا عن المعاصي، وتجردوا إلى الله. هكذا ثورتنا وهكذا ثوارنا وثائراتنا. بل ما أشبهنا بقول الشاعر الطرماح بن

حكيم:

وإني لَمقتادٌ جوادي فقاذفٌ   بِه وبنفسي العامَ إحدى المقاذفِ

لأكسبَ مالاً أو أؤول إلى غِنىً   من الله يكفيني عُداة الخلائف

فيا ربِّ إن حانتْ وفاتي فلا تكنْ   على شَرْجَعٍ يُعلى بِخضر المَطارِفِ

ولكنَّ قبري بطنُ نسرٍ مَقيلُه   بِجوّ السماءِ في نسورٍ عواكفِ

فالمال نكسبه وننفقه حلالاً في حلال. والموت حتى الموت نطلبه شهادة في سبيل الله في المعارك، حيث تلتهم النسور أجسامنا فتحلق بنا السماء. لا أن نموت فنحمل على توابيت مغطاة بأردية خضر ككل الناس.

وقول الشاعر قطري بن الفجاءة مخاطباً نفسه، يثبتها ويصبرها على الموت:

أقولُ لها وقد طارَتْ شَعاعاً   من الأبطالِ: ويحَكِ لن تُراعي

فإنكِ لو سألتِ بقاءَ يومٍ   على الأجلِ الذي لكِ لم تُطاعي

أحس حسان بشبه وبقرابة أكبر بينه وبين شعراء الخوارج، وندم على تشبيه نفسه وإخوانه بالايرلنديين والثورة الايرلندية.

ابتهج حسان لما اكتشف خطأه، وصححه بنفسه. الفرق كبير بين التشابه في الظواهر أو في العقيدة (إذا كان المهم أن يتبنى الشاعر قضية، فالشاعر الماجن أبو نؤاس له قضيته التي أنفق فيها حياته وشعره. وإذا كان الأفضل تبني قضية عامة، قضية جماعية فإن شعراء الصهيونية وأدباءها يتبنون قضية جماعية.)

نهض حسان من مجلسه. تمشى في الزنزانة ذهاباً وإياباً، يطرد الملل، ويسترد نشاطه الذي أذبله طول القعود. بحث عن شعاع الشمس وجده نحيلاً مائلاً يحاول التملص من أسر الزنزانة، ليلحق بأمه الغاربة. أطل الحارس اللطيف من كوة الباب، شارباه الأشقران يبتسمان. استنارت الزنزانة للحظات. ابتسم حسان. تأمل بلاط الزنزانة. لفت نظره رصف البلاط خطوطاً متوازية محكمة.

(الخط المستقيم مظهر جمالي لا سيما في البلاط إن للنقطة والخط

والدائرة شأناً في علم الجمال. يقولون: إن الخط المنحني أجمل من الخطوط الأخرى في جسم الإنسان لا سيما جسم المرأة. لماذا؟ ولماذا في المرأة بالذات؟ إنه يدل على النعومة واللطف. الخط المستقيم أكثر صلابة وقساوة. هذا في الجسد، فكيف في الأخلاق، في السياسة؟ يقولون: إن الخط المستقيم في السياسة ليس أقرب خط بين نقطتين. الخط المستقيم في الهندسة والأخلاق غير الخط المستقيم في السياسة. معظم هذه الآراء والنظريات مستمد من الفكر اليوناني الوثني المادي. إنها تحتاج إلى مراجعة ونقد صارمين.)

مرة أخرى ابتهج حسان لأنه اكتشف الفرق بين ثورة شعبه وثورة الايرلنديين.

(ليس شرطاً أن تكون ايرلندة قد احتلت أرضي، واستعبدت شعبي حتى اختلف معها. إن الخلاف في العقيدة قد يكون بين أبناء الأسرة الواحدة.)

توقف حسان عن المشي. برقت عيناه.

(المسلمون الأوائل اختلفوا. الخوارج. الشيعة. أهل السنة والجماعة. الخلاف بين الإيمان والكفر واضح. أما الخلاف بين إيمان وإيمان فأمر آخر. لكن هل يتعدد الإيمان؟!).

أدرك حسان أن ظرف السجن الانفرادي ألجأه إلى الدندنة بالشعر، وأن الشعر حمله إلى الفكر، وأن الفكر أسلمه إلى الغوص في لجج الخلافات المذهبية التي كان يتحاشاها من قبل. استأنف المشي ذهاباً وإياباً.

(لكن ما العمل؟ إن وصولي إلى السجن جزء من اختيار، من موقف فكري. لا بد لي من تفحص موقع قدمي. لا بد من التأكد بين الفينة والفينة من صلابة الأرض التي أدوس عليها. باختصار أنا أختلف عن الشاعر ييتس. ثورتنا تختلف عن الثورة الايرلندية، وبمعنى آخر إلى أي حد نحن نتفق مع الخوارج؟ لقد درج السياسيون العرب على اتهام المعارضة أي معارضة بالخوارج؟ ودرج فريق آخر على تخصيص هذا الاتهام بالحركة الإسلامية. هل أنا خارجي. هل نحن خوارج؟)

لقد سأل حسان نفسه هذا السؤال أكثر من مرة قبل السجن، لكنه يشعر الآن بأهمية السؤال أكثر من كل مرة سابقة.

(أنا معجب حقاً بشعراء الخوارج، وبالدقة معجب بشعرهم. هل الإعجاب يكفي. قال أحد النقاد: قد تعجب إعجاباً كبيراً بالشاعر أبي الطيب المتنبي لكنك لا تحبه، إن الحب غير الإعجاب. هل هذا هو كل شيء في فهم المعادلة التي بيننا وبين الخوارج؟!).

سبق لحسان أن صنف شعر الخوارج في الشعر الإسلامي، وخطر له أن يدرس شعرهم في رسالة جامعية. أما المسألة الآن في السجن فلم تعد مسألة إعجاب أو تصنيف. إنها مسألة تدقيق في الفكر والموقف، وفي (الاستراتيجية) و(التكتيك) إن صح التعبير.

(شعرهم من الناحية الفنية جيد متميز، تحس فيه الصدق والبراعة وقوة الأسر. انظر مثلاً قول الفارعة ترثي أخاها ابن طريف:

أيا شجرَ الخابورِ مالكَ مورِقاً　　　كأنكَ لم تجزعْ على ابنِ طَريفِ

حياتهم زاخرة بالبطولة والشجاعة والتضحيات. معظم شعرائهم وأبطالهم قضوا شهداء. لكن اجتهاداتهم الدينية، أو ما يسمى مواقفهم الفكرية والسياسية تتسم بالتطرف والفجاجة، مثل تكفيرهم الإمام علي رضي الله عنه، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وتكفيرهم من وافق عقيدتهم ولم يقاتل معهم، وإباحتهم قتل أطفال المخالفين ونسائهم، وقولهم بأن أطفال المشركين في النار مع آبائهم، وأن التقية غير جائزة في قول ولا عمل..)

توقف حسان عن المشي. برقت عيناه.

(لكنهم مع ذلك يظلون مسلمين من أهل القبلة والشهادة. إن كفروني لا أكفرهم. ومثلهم كثير في الجماعات الإسلامية من حيث الاتفاق والاختلاف في التأويل والاجتهاد، بما لا يخرج من الملة. ولهذا سعينا إلى إقامة (الجبهة الإسلامية) في سورية، وإلى جمع كلمة المسلمين في العالم. أما الحاكم الذي يعلن الكفر البواح، أو يناصب الله تعالى ورسوله عليه السلام –العداء، أو يحاول استئصال شأفة الإسلام، أو ينكر معلوماً

من الدين بالضرورة، فلا لقاء بيننا وبينه إلا السيف. وإذا تحالف هذا الحاكم الطاغية في داخل سورية وخارجها مع من يعينه علينا وعلى تحقيق أهدافه الباغية، فإن لنا أن نحالف ضده من يعيننا عليه ويقربنا من أهدافنا ويحطم أهدافه، وإذا اقتضتنا المعركة أن نهاجر أو نشرد أو ندخل السجون، فإننا نستعين بالصبر والصلاة، وبكل مباح يروح عن أنفسنا في ظلمات السجون.)

نظر حسان إلى السماء من خلال النافذة الخلفية وجد الظلام قد خيم، والنجوم البعيدة قد سطعت. أنشأ يدندن:

"لو كان عندي نسيجُ السماء،

الموشى بأنوار الليل والنهار

لفرشتْه تحت قدميكِ

لكنني فقير..."

على حين ارتسم في مخيلته صورة ساباطُ طويل قديم يكتنف الظلام معظم جوانبه، وتسقط عليه أضواء مصباح نفطي، فتضيء نتوءات الأحجار المرصوفة على الجدران في ثلثه الأول حيث اندفع فيه شابان هاربان من مطاردة ليلية، فاستلقت أمامهما أشباحهما عملاقة متطاولة. كانت ملامح الطالب الجامعي واضحة تجعله يتذكرها.

"لكنني فقير...."

"لكنني فقير...."

"لكنني فقير...."

الليلة الثانية عشرة

مساء يوم السبت 14 حزيران 1980

-1-

دخل حسان الربيعي غرفة التحقيق الأنيقة الفخمة. الوقت ما يزال في أول المساء. كان يجلس على المنضدة المحقق الطويل البسام الأسمر، لكنه يلبس هذه المرة حلة عسكرية صيفية ناعمة بأكمام قصيرة وحواش مصقولة. وعلى المقعد الوثير الكائن في الزاوية اليمنى المقابلة

للمنضدة جلس محقق جديد بلباس مدني داكن، في العقد الخامس من عمره ممتلئ الجسم مربوع القامة، أسود الشعر قصير الرقبة، تكاد حلته السوداء تضيق به، يضع على عينيه نظارة طبية سميكة.

حين جلس حسان في قبالة المنضدة، كان المحقق الجديد على يسار حسان مباشرة.

– أخ حسان. كيف حالك اليوم؟ (قال المحقق الطويل)

– شكراً. بخير.

– وجدنا بين أوراقك الخاصة طلباً وجهته إلى الأستاذ المحامي إسماعيل العظمة للعمل عنده.

– صحيح.

– لكنك لم ترسل الطلب.

– على كل حال الاتفاق معه حصل.

– أخ حسان. أحيطك علماً بأن الأستاذ إسماعيل صديقي وأستاذي، وهو أستاذ الكثيرين من أمثالي في بلدنا. كن مطمئناً لن يصيبك مكروه، فكن صريحاً معنا.

– وأنا كذلك.

– لا. حتى الآن لم تعترف بعلاقتك بالتنظيم، ولا برئاستك لجهاز الإعلام.

– لا علاقة لي. كما ذكرت سابقاً.

نثر المحقق الطويل مجموعة أوراق تحت يده. شرع يقرأ بصوت مسموع في واحدة منها، أو يكتب على ورقة أخرى.

* حسان الربيعي: رئيس جهاز الإعلام و المسؤول عن نشرة (النداء).

* فارس سلمان: نائب رئيس الجهاز.

* عبد الحكيم السيد: عضو – محرر.

* أحمد الأشقر: محرر مترجم عن الإنكليزية.

* عمار شومان: عضو – محرر.

* إبراهيم ماضي: مترجم عن التركية.

أدرك حسان أن هذه المعلومات صحيحة، لكنه قرر أن ينكر ما يخصه، وما يترتب على ذلك من معلومات.

– أخ حسان. قل لي إذا لم تكن أنت المسؤول على هذه المجموعة، فمن منكم هو المسؤول؟!

– أنا لست مسؤولاً عن أحد. عملي تنقيح أسلوبي لا غير.

– من هو المسؤول الإعلامي الأول إذن؟

– المسؤول عني أبو حسن؟

– من هو أبو حسن؟

– علي فستق.

تدخل في الحوار المحقق الجديد فقال بصوت أجش يوحي بأنه مدخن مزمن:

– علي فستق شخصية لا وجود لها.

– صحيح يا أخ حسان؟

– إنه أحد طلابي. وهو الذي يسلمني المواد الخام ويستلم مني المواد المنجزة.

– هل يعقل أن يكون أحد طلابك مسؤولاً عنك؟! (ابتسم متعجباً).

– في التنظيم لا اعتبار للأعمار.

تساءل المحقق الطويل بتجاهل:

– لأي اعتبار إذن.

– الاعتبار للولاء لأشياء أخرى.

مرة أخرى تجاهل المحقق:

– مثل ماذا؟

– مسؤولية جهاز إعلامي في جماعة منظمة سياسية... هي مهمة تنظيمية سياسية. وأنا إنسان أديب إعلامي لا خبرة لي بالسياسة.

– هل هناك فرق بين الإعلام والسياسة؟

استراح حسان لمثل هذا السؤال، لأنه يعينه على التملص من المأزق.

– طبعاً هناك فرق كبير، لكل منهما علومه واختصاصاته ومعاهده.

– أنا لا أرى فرقاً في ذلك، والدليل على كلامي أنك إعلامي وسياسي في وقت واحد.

– هذا رأيك، مع احترامي لك.

– لا داعي للمجاملة.

– شكراً.

– مناقشتك، رأيك بالعلاقات التنظيمية وبمواصفات مسؤول الإعلام وما شاكل ذلك تدل على خبرتك بالإعلام والسياسة معاً.

– عفواً. هذه أمور عامة لا تخفى على أحد.

ابتسم المحقق الأسمر الطويل. رفع رأسه وترك الكتابة. ثم قال:

– علي فستق حتى الآن لا وجود له لدينا، فمن يكون المسؤول الإعلامي بين أفراد هذه المجموعة.

– أنا لم ألتق بأفراد هذه المجموعة.

– إنهم يعرفونك.

– بعضهم أصدقائي أو طلابي.

– أنت وقعت على جداول رواتبهم.

– لا أذكر ذلك أبداً.

– مرة أخرى. فارس سلمان مجاز بالتجارة والاقتصاد، ولا يصلح مسؤولاً عن جهاز الإعلام. عبد الحكيم السيد أصغر منك سناً، ويعتبرك أستاذه لا يصلح مسؤولاً للإعلام بوجودك أفضل شيء أن يكون إبراهيم ماضي الدرويش هو المسؤول الأول للإعلام.

أدرك حسان سخرية المحقق. لم يحمله ذلك على الاعتراف. إنه مصمم على الإنكار مهما كانت النتائج.

– قصاب باشي طخوه. (قال المحقق الطويل وابتسم).

لم يدر حسان مراد المحقق من هذه المعلومة فسكت. أعاد المحقق.

– قصاب باشي طخوه. (ابتسم) ألا تعرف قصاب باشي؟

– عفواً. لا أعرفه.

– إنه شخصية مشهورة!

ظن حسان أن صاحب الاسم من رجال السلطة البارزين، وأن المجاهدين قد قتلوه، وأن المحقق أراد أن يسره بنقل هذا الخبر الهام إليه، وهو المحروم من الأخبار.

– لا مؤاخذة لم أتذكره.

– نحن اطلعنا على مراسلاتكم مع مراسليكم في داخل سورية، ومنها الرسائل التي تلحون فيها على تمحيص الأخبار ونقدها وتوثيقها. قصاب باشي اسمه الأول أحمد. عمره (55) خمسة وخمسون عاماً. يعمل مزارعاً. وقلعوا أظافره قبل أن يقتلوه.

– عفواً. الآن عرفته.

– تعرفه شخصياً؟!

– لا. أنا من حلب وهو من حماة. إنه أحد شهداء نيسان الماضي رحمه الله. اغتالته السلطة مع الدكتور عمر الشيشكلي وخضر الشيشكلي والدكتور عبد القادر قنطقجي.

– ثلاثة أطباء قتلوا في يوم واحد؟

– في بلدنا اليوم عجائب أكبر. هل تعلم أن الدكتور خضر الشيشكلي المسن هو أحد زعماء الكتلة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي، يقتل اليوم بصب الأسيد عليه في بيته، ثم ينهب ما فيه من تحف أثرية؟ وأن ابن أخيه الدكتور عمر الشيشكلي، رئيس جمعية أطباء العيون في سورية قلعت عيناه، وألقيت جثته في حقل قرية مجاورة لحماة، وأن الدكتور عبد القادر قنطقجي، طبيب الجراحة العظمية، قد ألقوا جثته بعد التعذيب الوحشي على طريق قرية الشيخ غضبان، أي على مسافة ثلاثين كيلومتراً عن المدينة؟!

– ما هي علاقة عبد الوهاب شعار بالتنظيم؟ (قال المحقق الطويل)

– لا علاقة له.

– ماذا يقال له؟ أبو...؟

– أبو زهير.

– هذا اسم حركي. ليس بين أولاده الثلاثة ولد بهذا الاسم.

– أنت يا أخ حسان مسؤول جهاز الإعلام. (قال المحقق بنبرة مطمئنة).

– أنت أبو ايش؟ (قال المحقق الثاني)

– أنا أبو مجاهد.

– اسمك الحركي؟ (قال المحقق الثاني).

– ليس لي اسم حركي.

– ألم يخاطبوك بأبي سالم؟!

– لا.

استمرأ حسان الإنكار. صمم بشدة على عدم التنازل في الاعترافات بعد أن اعترف باسمه الصريح.

– هل تعرف عبد الكريم الجندي؟

– لا أعرفه.

– هل تعرف شيئاً عنه؟ (نهض المحقق الطويل من مجلسه. وقف بجوار المنضدة، وقد عقد ذراعيه على صدره بشيء من الاسترخاء.)

حاول حسان أن يخمن المراد من هذا السؤال. لم يجد شيئاً ذا بال. قال:

– أعرف أنه كان من رجال السلطة السابقين.

– وماذا أيضاً؟

– كان رئيساً للمخابرات العامة.

– وماذا؟

– غير محمود السيرة.

– حسن، وماذا؟

– نحن في بلدنا قصص وأخبار كثيرة يختلط فيها الواقع بالخيال، والحقيقة بالباطل.

– أرغب أن أسمع شيئاً عن عبد الكريم الجندي.

– هناك روايات متضاربة حول موته. انتحر أم اغتيل؟

– غيره.

– كان مستهتراً في لباسه وتصرفاته.

أبدى المحقق اهتماماً. اقترب من حسان قليلاً. قطب حاجبيه:

– مثلاً؟

– وبخ أحد الحزبيين في مجلس عام، لأنه يدخن سجائر أجنبية، وحينما اجتمعا في لقاء حزبي أخرج "الجندي" من جيبه علبة سجائر أجنبية وقداحة من الذهب الخالص، وقال لذلك الرفيق: لا يحسن بنا نحن الثوريين أن ندخن أمام الناس كما ندخن في السر.

ضحك المحققان. استدار المحقق الطويل. تذكر التدخين. مال على منضدته أشعل سيجارة فاخرة من قداحة أنيقة براقة.

– غيره.

– سمعت قصة لا أشك في صدقها، يرويها أناس موثوقون عن الأستاذ صباح الركابي نقيب المحامين في سورية. موجزها أن اتحاد المحامين العرب شكل وفداً برئاسة الأستاذ الركابي لمقابلة عبد الكريم الجندي، وللمطالبة بالإفراج عن عدد من المعتقلين من المحامين السوريين. بعد مماطلة دامت أياماً وشهوراً سمح لهم الجندي بمقابلته. وفي خلال اللقاء كان (الجندي) مشغولاً عنهم أو متشاغلاً بطائر صغير جميل يداعبه في قفصه. حتى إذا فرغ أعضاء الوفد من الكلام (وفيهم المصري والسوداني والسوري والفلسطيني والمغربي والجزائري...) قال (الجندي): أنا مستعد لأن أفرج عن المحامين إذا أجابني رئيس الوفد عن سؤال واحد. ما هو اسم الطائر والبلد الذي كان يعيش فيه؟ ولدهشة أعضاء الوفد استطاع رئيسهم أن يحزر الجواب الصحيح الذي لم يرد في كتب الحقوق ولا كتب الحيوان. لدى استفسار أعضاء الوفد من رئيسهم بعد الانصراف من عند هذا (الجندي) عن مصادر علمه المدهش. أجابهم بأن له جاراً يبيع الطيور الجميلة من بلابل وحساسين، وأنه في أحد الأيام كان في زيارة لدكان هذا الجار الذي تطوع بتعريفه بأنواع هذه الطيور، ولحسن حظه وحظ المحامين السوريين المعتقلين أنه علق في ذاكرته اسم طائر منها واسم البلد الذي يعيش فيه.

– ما اسم هذا الطائر المذكور وما موطنه (قال المحقق الأول بجد).

– لا أعرف. (أجاب حسان بجد أيضاً).

– فكيف نفرج عنك إذن؟!

ضحك المحققان وحسان.

– هات الطائر حتى أسميه لك أما كيف أسميه وأنا لا أراه!

– كيف تقول أنا لا أفهم في السياسة.

– ولا في الطيور أيضاً.

مص المحقق الطويل سيجارته بشدة. نفخ دخاناً كثيفاً. أشاح بيده متصنعاً الأناقة واللباقة المفاجئة في وقت واحد قائلاً:

– طيب ما أسماء أعضاء قيادتكم؟

– أنا غير منظم. (أجاب حسان بهدوء بالغ. لم يتحرك عضو فيه.)

– أنت تعمل في تنظيم. (اصطنع المحقق الجد والتأكيد).

– أعمل موظفاً، مجرد موظف.

– حتى لو كان الأمر كذلك، ألا يمكنك أن تعرف أحداً في القيادة؟

– أعرف أبا حسن، علي فستق.

– هل هو عضو قيادي؟

– ما أدري.

زاد المحقق من تقطيب وجهه. رفع صوته. أطفأ سيجارته بقوة. اقترب من مجلس حسان أكثر.

– ماذا تدري إذن؟

– أدري أنني في ورطة. (التمس حسان مظاهر الهم والحسرة. حاول إظهارها بوضوح في حركة يديه المشيحتين يميناً ويساراً وفي بحة صوته المتهدج).

– أنا لا يمكنني أن أتصور أنك لا تعرف اسم المراقب العام.

– أنت حر في تصوراتك وأنا أحترم رأيك على كل حال.

عاد المحقق إلى مقعده خلف المنضدة بهدوء. قلب الأوراق التي أمامه:

– إن أجوبتك حتى الآن غير مقنعة كلها. نحن نعلم اسمك الحقيقي قبل أن تبوح به، ونعلم أسماء قيادتكم كلها حتى المراقب العام، ولا أدل على ذلك من أننا نصارحك أنك أحد أعضاء القيادة بلا أدنى شك، و

المسؤول الإعلامي فيها، فلماذا الإنكار والإصرار على الإنكار؟!

– أنا لم أشك لحظة واحدة بمعلوماتكم وخبرتكم المتقدمة في تحصيل المعلومات وتوثيقها. وهذا ما يحملني على قول الحقيقة باطمئنان، مؤكداً أنني غير منظم، فضلاً عن أن أكون عضواً قيادياً. إن حسن ظنكم المبالغ بي، وقبولي الدخول في الورطة التي أنا فيها، هما السبب في استنتاجكم بأنني عضو قيادي.

ارتفع صوت حسان بغير قصد منه، كما ارتفع صوت المحقق الطويل أيضاً.

– نحن لا نستند الآن إلى الاستنتاج (وضع المحقق يده على الأوراق).

– إذن لماذا تحرصون على اعترافي لو سمحت؟! (قال حسان بلهجة معاتبة).

– لأننا لا نريد أن نتعامل من موقع الثقة المتبادلة.

– ألسنا الآن في موضع الثقة المتبادلة؟!

سكت حسان قليلاً لكي يعرض بما هو فيه من سجن وتقييد يمنعان من الاطمئنان والثقة. ثم استأنف كلامه لكيلا يغضب المحققين:

– ألم أعترف باسمي الصريح؟!

– لكن بعد ماذا اعترفت به؟!

– ألم أصرح بطبيعة عملي منذ البداية؟! إن واجبي يدعوني إلى الاعتراف بجميلكم، وبحسن معاملتكم وطريقتكم الناجحة في التحقيق.

– أنت تعلم أننا قادرون على التعذيب وانتزاع المعلومات والاعترافات بطرقنا الخاصة. (قال المحقق صاحب الصوت الأجش.)

– طبعاً أعلم. وهذا هو الفرق بينكم وبين النظام السوري الذي اختلفنا معه، وحاربناه وهاجرنا إلى بلدكم الكريم الطيب بكل ثقة واطمئنان.

قام المحقق الطويل من مجلسه، حرك يده اليمنى في الهواء احتجاجاً:

– الثقة.. الثقة... أين الثقة التي تتحدث عنها؟

– إن لجوءنا إلى بلدكم أول مظهر من مظاهر الثقة والاطمئنان.

– ثم ماذا بعد ذلك؟ (لوح المحقق بيده اليسرى)

– البقية تعرفونها.

– إذا كنت تشير إلى اعتقالكم، فاعلم أننا لم نعتقل كل أعضاء القيادة، وكان بإمكاننا أن نفعل ذلك فسافر منهم من سافر، وبقي من بقي.

– مع جهلي بالسياسة أعترف أن هذه خطوة تعين على الثقة.

سكت المحقق برهة يتأمل العبارات الأخيرة (أهي جادة أم ساخرة):

– تصور نفسك في مكاننا. ماذا تصنع مع جماعة، تقود ثورة مسلحة من أرضنا وبغير علمنا؟!

– حقاً! واسمح لي أن أطلب منك أن تتصور نفسك في مكاني أسيراً معتقلاً تعصف بك الأوهام والهموم (صمت حسان قليلاً، ثم استدرك)، وأنت إنسان عادي بريء لا ناقة لك ولا جمل بكل هذه الدوشة.

– أليس بإمكاننا أن نسلمكم إلى حكومتكم ونرتاح من هذه القصة؟

– ضميركم لا يسمح لكم بذلك.

– وضميركم؟!

– ضميرنا واثق مطمئن (قال هاتين الكلمتين بهدوء وتشديد الحروف) إلى نزاهتكم وحكمتكم وإلى بُعد نظركم.

– بعد نظرنا.. ها؟! (قال المحقق هذه الكلمات باستغراب ممزوج باحتجاج).

–2–

حين أعيد حسان الربيعي إلى زنزانته رقم (10) وخلا إلى نفسه. جلس على فراشه الإسفنجي في مؤخرة الغرفة: وجهه قبالة الباب، وظهره مستند إلى الجدار.. بعد أن أعاد ترتيب الفراش والأغطية والوسادة. كان هدوء الليل قد بدأ يزحف على المدينة، والضوضاء تنسحب شيئاً فشيئاً. معظم السجناء في الزنزانات الأخرى قد أووا إلى مضاجعهم، وبدأت تنهداتهم وأصوات شخيرهم تتردد بين الفينة والفينة.. الحارس الأسود الضخم كان يتمشى في الرواق، ينتظر انصراف بقية السجناء إلى

النوم، ليقف عند الباب الوحيد للرواق وينال قسطاً من الراحة، جميعاً تناولوا عشاءهم وشرابهم وقضوا حاجاتهم. الذين طلبوا إلى التحقيق عادوا إلى زنزاناتهم. لا يوجد اليوم نزلاء جدد. الأمر على ما يرام. الزوجة والأولاد بانتظار العودة صباحاً مع قائمة مطولة من الأغراض وما تيسر من الهدايا. انقضى أسبوع وأنا هنا لا أستطيع العودة. الهدايا سوف تكون عذراً مقبولاً لعائشة وللأطفال...)

أطل الحارس من كوة الزنزانة (10).

– لم تنم يا حاج. (قال ذلك بلهجة متوددة).

– سوف أنام قريباً. (أجاب حسان مبتسماً)

همَّ الحارس أن يسأل حساناً عما يشغل باله. هم أن يسأله فيما إذا كان له زوجة وأولاد، لكنه تذكر تعليمات السجن. فصارت نظراته الحانية، وإطلالته الطويلة نسبياً تتكلم بالنيابة عنه. بادله حسان النظرات. كرر له الابتسام. أحس لأول مرة بأن هذا الحارس يخفي وراء ضخامته ولونه الأسود شيئاً إنسانياً عميقاً لا تفصح عنه العبارات.

– لا تتردد في أن تنبهني إلى صلاة الصبح إن كنت غافلاً عنها. (قال الحارس).

– شكراً. سوف أفعل إن شاء الله.

– تصبح على خير.

– وأنت بخير.

بدأ شريط التحقيق الأخير يكر أمام حسان. محقق جديد. أسئلة جديدة. الغرفة الأنيقة الفاخرة الأثاث نفسها: (ما غرضهم من السؤال عن عبد الكريم الجندي! لا علاقة لي به، وما أظن أن لهم أدنى علاقة به أيضاً. هل أراد المحقق أن يتسلى بطرف ونوادر هذا الرجل، أم أراد أن يستدرجني للكشف عن اهتماماتي، معلوماتي السياسية؟ هذا ما أرجح. أم تراه أراد الاستطراد بالحديث قليلاً، ريثما يلتف به مفاجئاً إياي بسؤال هام؟ أم أراد أن يشعرني بالفرق الكبير بين معاملتهم ومعاملة أمثالهم من رجال المخابرات السورية، ليكسب رضاي وودي فثقتي؟! لأعترف أنني لم

أكتشف الغرض الحقيقي من وراء السؤال عن رجل مات، وبليت عظامه، وانتهى دوره. ليس في الأمر ما يقلق. إنما تأكيده على صفتي القيادية، وكشفه لأعضاء الجهاز الإعلامي ومهماتهم، فهذا الأمر المثير للقلق. لم يكتف بذلك يريد أن يكشف أسماء أعضاء القيادة، واسم المراقب العام أيضاً. لن يكون له ذلك يزعم أنه يعلم كل شيء. مع ذلك يستوضحني ويستجوبني. يا رب أصرفه عني وأيدني بعون منك..)

حاول حسان طي صفحات التحقيق باستبعاد الاحتمالات والهواجس، لكن صفحة أخرى انتشرت أمامه. استلقى على الفراش يهرب منها. لم يستطع. لقد انتصب أمامه ثلاثة أطباء مضرجين بالدماء. أحدهم تسيل الدماء من عينيه، والآخر من أطرافه المقطعة، والثالث تذوب جثته في لجة من سائل يغلي، وتتصاعد منه أبخرة ضبابية، ذات رائحة نفاذة تخدش الحواس جميعاً. شعر حسان كأن سيل الدماء يصب في غرفته، وسحب الدخان الكثيفة تتكاثف فوقه. إنه لم يشهد المجزرة النيسانية في حماة، لكنه سمع قصتها في باريس:(يا أستاذ أنا أعرف الدكتور عمر الشيشكلي كما تعرف نفسك إنه صديق الطفولة، وزميل الدراسة من الصف الأول حتى نهاية المرحلة الثانوية. كنت ألعب معه منذ الصباح إلى المساء، فأبيت في بيت أهله. كان يذهب معي إلى البستان وإلى العاصي، فينام معي في بيت أهلي. يا أستاذ، الدكتور عمر في شبابه طويل القامة، أبيض البشرة، أشقر الشعر مثل القمر. أخته تعشقه، فكيف أنا الذي قضيت حياتي كلها معه. رغم دراسته الطب في الجامعة، واشتغالي بالتجارة لم تنقطع صداقتنا ورحلاتنا معاً. كان دائماً متفوقاً في الدراسة، متفوقاً في اللعب، متفوقاً في الكرم والشجاعة ماذا أقول لك؟ أنت لا تعرف الدكتور عمر. أنا أعرفه. أعرفه. كما أعرف نفسي وأكثر. هل تصدق أنني بدأت التجارة برأس مال منه. كان شريكي، وربحت المال الكثير، ولما أصبحت في عداد التجارة المرموقين تنازل عن حصته كلها، وقال: لا أطلب منك قرشاً واحداً لنفسي. كل ما أطلبه منك أن تجعل حصة ثابتة من أرباحك السنوية لأعمال الخير. للفقراء، للمحتاجين،

للمستشفيات، للمدارس. من يفعل هذا المعروف في هذا العصر يا أستاذ؟ الدكتور عمر فعل هذا وأكثر. أنا أعيش من خير بيت الشيشكلي يا أستاذ، وتعيش معي مئات الأسر المستورة وعشرات الطلاب الفقراء... ثم يجيئني البارحة خبر استشهاد عمر وعمه الدكتور خضر وصديقي المزارع أحمد قصاب باشي؟!..)

كان صاحب هذه الكلمات رجلاً كهلاً في العقد الخامس من عمره، طويل القامة عريض المنكبين، حنطي اللون أجعد الشعر، يلبس جلابية بيضاء مخططة بخطوط أشد بياضاً، زبد الانفعال يتناثر من فمه، وهو يغدو ويروح في بهو (الفيلا) الفاخرة التي يسكنها في إحدى ضواحي باريس الحالمة. وحوله يجلس على الأرائك الوثيرة كل من حسان الربيعي ومرافقه عبد الوهاب شعار ومساعد التاجر الحموي رفيق النشار، وضيفان آخران. الوقت ليلاً.

(لحم أكتافي هذا –يا أستاذ– نبت من فضل الله علي، ومن فضل بيت الشيشكلي. ثم يأتي مسافر حموي هارب من سورية ليقول لي: قتلوا عمر يا أبا عبد الله. قتلوا الدكتور خضر والدكتور قنطقجي. هكذا صارت الناس أغناماً تذبح؟ أي ناس يا أستاذ؟ كرام الناس. أشراف الناس. يا أستاذ. ما عيشتي أنا وأولادي وأموالي بعد هؤلاء الأحباب. ما قيمة الحياة؟)

كان حسان قبل وصوله إلى هذه (الفيلا) قد رتب كلاماً كثيراً ليقوله أمام هذا التاجر ليشرح له القضية السورية، وليحثه على التبرع للمجاهدين والمنكوبين، إذا هو يفاجأ بالتاجر يتولى عنه الكلام:

(أنا وأولادي وأموالي تحت الطلب –يا أستاذ– وإذا لم تسمحوا لي بالانضمام إليكم، فسوف أسافر بنفسي، وأحمل السلاح. أيام الفرنسيين كنت طفلاً، ومع ذلك حملت الرسائل، ونقلت الطعام والرصاص للمجاهدين، فهل تحرمونني من هذا الشرف؟!).

لم يكن حسان يطمع أن يدعوه إلى حمل السلاح وهو الرجل المترف الكهل.

(هل رأيت الدكتور خضر –يا أستاذ. الدكتور خضر صاحب بيت الأمة، الدكتور خضر له عينان كعيني النسر الكاسر. هل رأيته يخطب في شباب حماة يدعوهم إلى مقاومة الفرنسيين؟ هل رأيته يقود حملات التبرع، والتطوع للجهاد في حرب فلسطين؟ لماذا قتلوا هذا الرجل المجاهد بعد أن بلغ الثمانين؟ ألأنه حارب الفرنسيين واليهود وأرضعنا حليب الوطنية والفداء؟!

تصور الدكتور خضر يذوب بالأسيد يا أستاذ. أنا لا أستطيع أن أتصور)

تهدج صوت أبي عبد الله، جحظت عيناه. اغرورقتا بالدموع. واحتبس لسانه بالكلام. استدار، وخرج مسرعاً من البهو إلى غرفة أخرى يداري بكاءه. انطلقت امرأة من غرفة طرف البهو تلحق بأبي عبد الله إلى الغرف التي دخلها، لعلها زوجته قد أشفقت عليه.

نهض أحد الضيوف، وكان جالساً في طرف البهو، لا يلقي له الحاضرون بالاً، ظناً أنه أحد سكان البيت من مساعدي التاجر أبي عبد الله. لم يكن ظنهم مبالغاً في تقديره. قال:

(أيها الضيوف الكرام. أيها القادمون من ثرى سورية الحبيبة. أيها المجاهدون الأبطال. اسمحوا لي أن أعرفكم بنفسي. أنا شعبان الأدهم. أمي من حماة، ووالدي من طرابلس. أعمل الآن ملحقاً ثقافياً في إحدى السفارات العربية بباريس. تربطني بأبي عبد الله صاحب هذا القصر العامر صداقة حميمة.)

رجل كهل مربوع القامة. أبيض البشرة. شعره شايب. مصقول بعناية. ذو نظارة طبية. يتمايل قليلاً في وقفته، لعل ذلك من أثر شراب مخدر. يستعين بيديه في توقيع عبارات خطابه المنمق. حركاته تجمع بين إشارات الخطباء العرب القدامى ورجال (البروتوكول) الحديثين.

(أيها الأبطال القادمون من البلد الأم. أيها المنقذون لشرف الأمة والتاريخ. أيها الصانعون لمستقبلنا الزاهر. اسمحوا لي أن أفرش الأزهار أمامكم، وأن أضع تاج الغار والفخار على هاماتكم...)

عاد أبو عبد الله مسرعاً يحمل محفظة جلدية منتفخة. جلس ووضع

المحفظة أمامه. قاطع الخطيب قائلاً:

(يا شعبان وفر خطاباتك البليغة. الشباب من أهل الأفعال. ليسوا من أهل الكلام...) استأنف شعبان خطابه كأنه لم يسمع مقاطعة أبي عبد الله:

(أيها المجاهدون الأبطال. إذا لم أكن ثرياً مثل أبي عبد الله. وإذا لم يكن لي زوجة ولا أولاد، فأنا أملك قلباً نابضاً بحبكم، وأملك أن أقدم نفسي خادماً لكم، وأعرض عليكم الآن أن أدعو لكم رؤساء التحرير في أربع صحف من كبريات الصحف الفرنسية، لتعقدوا مؤتمراً صحفياً، يوضح قضيتكم وقضيتنا للعالم أجمع. أنا بانتظار إشارتكم. والسلام عليكم.) قبل أن يجلس انحنى إلى الأمام انحناءة مؤدبة جداً ثم استعاد وقوفه، ثم جلس بهدوء.

اقترب أبو عبد الله من حسان وهمس بأذنه قائلاً:(نحن الآن في مساء يوم السبت. كل المصارف في باريس معطلة. أنا الآن لا أحمل مالاً نقداً. خذ هذه المحفظة، واجعل بيني وبينكم وسيطاً لتقديم كل ما تطلبون مني.)

فتح حسان المحفظة. وجدها ملأى بأنواع الحلي الذهبية المجوهرات واللآلي الفاخرة. أغلقها وقال لأبي عبد الله بامتنان: (نحن باقون حتى صباح الاثنين. نحن نفضل التبرع النقدي لسهولة الحمل والانتقال بين الدول. من فضلك دع هذه المحفظة الآن. لنتفق على موعد آخر مساء غد.) قال أبو عبد الله: (أمرك) رفع صوته وقال لمساعده: (اتفق مع الشباب على موعد في "حي بيغال"، وأحضر لهم كل ما تستطيع جمعه من...) اتجه إلى حسان بالسؤال:

(أي عملة تفضلون؟) أجاب حسان: (المارك الألماني)...

* * *

بعد أربع وعشرين ساعة وعلى ضوء مصابيح الشارع العام التقت سيارتان صغيرتان في أحد منعطفات (حي بيغال) الباريسي. نزل حسان من إحداهما. اقترب من السيارة الأخرى التي لم يكن فيها غير مساعد أبي

عبد الله يسوقها. بعد المصافحة استلم حسان حزمتين كبيرتين من الماركات الألمانية ملفوفتين بأوراق صحفية، ثم عاد إلى السيارة البيضاء التي جاء فيها على طريقة المهربين الدوليين. أعصاب باردة خطوات واثقة. ملامح طبيعية. كأن شيئاً لم يكن.

* * *

(يا أستاذ أنا أعرف الدكتور عمر كما تعرف نفسك. هل رأيت الدكتور خضر –يا أستاذ؟ له عينان كعيني النسر الكاسر.... لحم أكتافي هذا نبت من فضل بيت الشيشكلي يا أستاذ... تصور الدكتور خضر يذوب بالأسيد يا أستاذ. الدكتور عمر قلعوا عينيه. الدكتور قنطقجي ذبحوه. هكذا صارت الناس أشراف الناس أغناماً يا أستاذ؟!)

أفلح حسان في طي صفحات الواقع القريب والبعيد. استطاع أن يستغرق في نوم عميق بعد أن شهر سلاحاً مجرباً لديه، ألا وهو التسليم بقضاء الله وقدره. إنه يبذل جهده في اختيار الخير وتجنب الشر، مسدداً ومقارباً، ثم يكون ما يكون. بمعنى آخر ماذا يفعل لضحايا مجزرة حماة النيسانية ولمئات المعتقلين والمشردين غير التعاطف معهم والتنديد بظالميهم، وتبني قضيتهم، والدفاع عنهم. ألم يتعرض هو للسجن والمطاردة؟! ألم يحمل لواء المعارضة من أجلهم ومن أجل أمنهم ومستقبلهم؟ إن الذي يقلقه هو الاضطهاد الذي زادت وطأته عليهم، لكن هل هناك مخرج آخر؟! (فإلى النوم، النوم حتى العظم، ففي النوم على الأقل مهلة تعقبها راحة. والراحة تعين على الاستبصار. وحل المشكلات التي يمكن حلها. إلى النوم...)

حين دبت اليقظة في أوصال السجناء بعد أذان الفجر الذي يسمع في ذلك الصباح الهادئ... كان حسان يتخبط في كابوس حلم رعيب. لقد رأى فيما يراه النائم أنه وقع في يد أعدائه الألداء، فاقتادوه إلى سجن مضاعف الجدران والأبواب الحديدية المثقلة بالأقفال والحراس الأشداء، لكنه استطاع مع إخوانه المعتقلين أن يضعوا خطة للهرب، فهرب هو وصديقه الحميم عبد الوهاب شعار من المهجع الذي حشر فيه ستون

سجيناً. تفرقوا في جنبات السجن المتعددة الواسعة، يريدون النجاة من هلاك محقق. كانت آخر مرحلة من رحلة الهرب أمام حسان وعبد الوهاب أن يصعدا درجاً حلزونياً طويلاً جداً، أشبه ما يكون بدرج مئذنة عالية، لعله درج برج من أبراج سور عال. ولما وصلا إلى قمة هذا الدرج بقيت أمامهما نافذة تنقلهما إلى العالم الخارجي، إذا استطاعوا عبورها. لكن النافذة مؤطرة ومغطاة بقضبان حديدية ثخينة، لا تسمح بالمرور أو الالتواء. عالج حسان وعبد الوهاب هذه القضبان. استطاع عبد الوهاب المرور بعد جهد شديد، وجاء دور حسان للمجاهدة، فحاول، وحاول وتصبب عرقاً، وضاق به الوقت، وفيما كان يحاول يائساً قرع عليه باب الزنزانة (10) يدعوه الحارس للاستيقاظ، استعداداً للوضوء فالصلاة. فلما أفاق وتبين أنه كان في حلم قال: (الحمد الله على كل حال. اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت. ولا حول ولا قوة إلا بالله.)

اقترب الحارس من زنزانة حسان يدعوه للخروج إلى دورة المياه. كانت نوبة الحراسة ما زالت للحارس الأسود الضخم. ما إن فتح الحارس باب الزنزانة حتى انطلق حسان على غير عادته، كالسهم يعدو من أقصى الزنزانة نحو الباب الحديدي الذي انفتح، ووقف بجواره الحارس الأسود. فوجئ الحارس الضخم بحركة حسان الشاذة. قبل أن يصحو الحارس من الفجأة المباغتة، كان حسان قد أمسك بمنشفته التي علقها على قفا الباب الحديدي، حيث يوجد نتوء صغير في مؤخرة المزلاج، يسمح – بصعوبة – بتعليق شيء مثل هذه المنشفة. كان يخشى حسان أن تسقط منشفته على الأرض فتتسخ، فإذا هو يغضب الحارس غضباً شديداً. جحظت عينا الحارس. تحدب ظهره. انفرج ذراعاه العبلتان. كشر فكاه. انقدح شرر غريب في ملامحه. همّ بالهجوم على حسان دفاعاً عن نفسه أو إحباطاً لمحاولة إجرامية كاد يقترفها حسان. لكن السرعة التي أحدثت هذا الالتباس كانت هي أيضاً سبباً في توضيح مراد حسان وفي إعادة الوضع الطبيعي، الذي حمل الحارس على صرف النظر عن اقتراف عمل دفاعي أو هجومي عنيف. واكتفى بعد صمت المفاجأة أن دمدم وزمجر قائلاً: (والله إن

عدت إليها لأرفسنك بهذا البوط على وجهك، وأقذفنك بضربة واحدة فتلتصق بذاك الحائط.)

لم يجب حسان بحرف واحد. الموقف لا يحتمل الجواب والتوضيح. صحيح أن الزنزانة لا يوجد فيها مسمار للتعليق. وصحيح أن حساناً لم يرد ترويع الحارس. لكن ما العمل لتجفيف المنشفة، ولحفظها من الاتساخ غير الذي كان؟ لم يكن بد مما فعله حسان، كذلك لم يكن بد مما فعله أو رد به الحارس على فعل حسان، فوقع الإشكال: (هل من مشكلات الدنيا من هذا النوع؟ وإذا لم تكن كلها كذلك فما نسبة المشكلات التي من هذا النوع؟!)

خرج حسان إلى الممر الطويل صوب دورة المياه. وهو يمضغ مرارة حقيقية بين فكيه. إن الراحة التي كان ينشدها في النوم لم تحصل. ذكريات التحقيق والمجزرة النيسانية لم تزل تعصف في ذهنه، وقد أضيف إليها الحلم الرعيب والمواجهة غير المقصودة مع الحارس الأسود: (يا رب أما لهذا الليل من آخر؟ إن السجن في الحلم صعب، فكيف هو في الواقع. وإن السجن ها هنا صعب، فكيف هو في سورية وفي سجن تدمر؟ لقد كثرت سجون سورية، وكثرت صور القهر والاستبداد في ظل الأحكام العرفية حتى أصبحت سورية سجناً كبيراً، فمتى يكون الفرج الأكبر؟).

رواية > خطوات في الليل(8)

خطوات في الليل(8)



محمد الحسناوي *
shasansh@hotmail.com

الليلة الرابعة عشرة

مساء يوم الاثنين 16
حزيران 1980

-1-

لأول مرة يدعى حسان الربيعي إلى جلسة تحقيق ليس فيها إلا محقق واحد. إنه ذلك المحقق الجديد الذي لقيه في آخر جلسة، بلباسه المدني الداكن، في العقد الخامس من عمره. ممتلئ الجسم. مربوع القامة. أسود الشعر. قصير الرقبة. تكاد حلته السوداء تضيق عليه. يضع على عينيه نظارة طبية سميكة. كان يجلس في الزاوية اليمنى المقابلة للمنضدة في الغرفة الفخمة. أما الآن فإنه يجلس وحيداً وسط الغرفة الصغيرة

البسيطة أمام المنضدة العادية.

ألقى حسان التحية. جلس على كرسي الخيزران المقابل لمنضدة المحقق، الواقع في منتصف المسافة بين المنضدة والجدار.

طلب المحقق كأسين من شاي لنفسه ولحسان، ثم خاطب حسان قائلاً:

– ممكن تحدثني عن حياتك؟

ما إن شرع حسان بالحديث حتى أخرج المحقق مجموعة أوراق بيضاء، وطلب إليه أن يدون كلامه كتابياً عليها، وناوله قلم حبر.

أدنى حسان كرسيه من المنضدة، أتكأ على حافتها. أعاد ترتيب الأوراق، كما أعاد ترتيب أفكاره متهيئاً للكتابة، محتاطاً من محاذيرها.

(من خلال الكتابة سوف يتعرفون على خطي الحقيقي، لذلك سوف أحوِّر شكل الخط سأكتب الحروف بزوايا قائمة وبتأنٍّ. سوف يتعرفون أيضاً

على طريقتي في التفكير والتعبير. فلأختصر في الكلام، ولأكتف بالمعلومات التي لا بد منها. وإذا لم يطلب مني التوقيع فلن أوقع، وإذا وقعت فليست هناك مشكلة لأنني، اعترفت أخيراً باسمي الحقيقي...)

بعد أن كتب حسان صفحتين موجزتين عن طفولته وشبابه ودراسته وعمله وأسرته سلمهما للمحقق. أعادهما له المحقق طالباً المزيد عن حياته السياسية. كتب حسان صفحة ثالثة عما يعرفه من أوضاع سياسية في بلده، ولم يعترف بأن له حياة سياسية خاصة به، طلب منه المحقق أن يوقع في آخر الصفحة الثالثة، فوقع بتوقيعه المعتاد.

استلم المحقق الأوراق. وضعها جانباً. أخرج من درجه ورقة أخرى. طوى ثلثها العلوي وثلثها السفلي إلى خلف. أبقى ثلثها الأوسط بارزاً. أمسكها بعناية بكلتا يديه. قدمها

إلى أمام ناظري حسان. قال له:

– أليس هذا توقيعك؟

فوجئ حسان بهذا السؤال، وبالانتقال من التوقيع على أوراق، إلى السؤال عن توقيع ورقة أخرى. كما أن عملية طي الورقة. وعرضها بهذا الشكل الجزئي المحصن أو المكتوم تثير الريبة. قال حسان بعد تردد قليل:

– يشبه توقيعي.

– يعني توقيعك.

– ليس شرطاً.

– كيف يشبه توقيعك، ولا يكون توقيعك؟

– حين يشبه توقيعي هناك احتمالان: أحدهما أنه توقيعي والثاني أنه مزور.

– هل تتهمني بتزوير توقيعك؟ (ارتفع صوت المحقق).

– عفواً لم أتهمك (قال حسان بلطف).

– ألم تشكك بالتوقيع؟

– نعم. والتشكيك بالتوقيع غير التشكيك بحضرتك.

– كيف تعرف أن هذا
توقيعك بالذات؟ (خفض
المحقق صوته. حضر الرقيب
يحمل كأسي الشاي. أخرج
المحقق سيجارة. عرض على
حسان التدخين. اعتذر حسان
عن التدخين.) قال حسان:
– يمكنني أن أتعرف على
توقيعي بعد إطلاعي على
مضمون الورقة.
– دعنا من مضمون الورقة.
انظر أليس خط القلم ولون
الحبر من نوع قلمك الذي
تكتب به والحبر الذي
تستخدم.
– اعترف بخط القلم ولون
الحبر. لكن ذلك ليس كافياً
للبرهنة على أن هذا التوقيع
توقيعي.
– ما الداعي لتزوير
توقيعك؟ (ارتفع صوت
المحقق).
– لا داعي للتنبؤ بالسبب
أيضاً؟ التأكد ليس فيه ضرر.
– أنت ما زلت تتصرف من
موقع الشك والحذر!
– أسمح لي أن أقول لك: أنت

تعرض علي وثيقة ناقصة،
وتريد مني الاعتراف بها
هكذا.
اعتدل المحقق في جلسته
وفي لهجته:
– على كل حال دعنا من هذا
التوقيع. ما اسمك الحركي؟
أجاب حسان على الفور:
– ليس لي اسم حركي.
– ماذا يقولون لك؟
– أبو مجاهد.
– غيره؟
– لا شيء غيره.
– في الأيام الأخيرة أجريتم
تبديلات في أسمائكم
الحركية. وتبدل اسمك
الحركي. ما هو؟
– عفواً. ليس لي اسم حركي.
(أحس حسان أن لدى المحقق
معلومات صحيحة.).
قال المحقق بهدوء وثقة:
– اسمك الحركي الجديد
(أبو سالم).
اهتزت صور الأشياء أمام
حسان. أخذت الغرفة تضيق.
المحقق يتعملق. بياض الجدران
العارية والأضواء تشتد

سطوعاً. ذكريات الجلسة التي اتخذ فيها قرار استبدال الأسماء الحركية والمواقف التي استخدمت فيها الأسماء تداخلت واختلطت وتقاطرت يزحم بعضها بعضاً في ذهن حسان. إنه يحاول محوها وإنكارها. وهي تلح عليه بقوة ووضوح. كأنها تقول له: لماذا تكابر؟ اعترف. أرح نفسك ليس من طبعك الكذب ولا العناد. قال في نفسه: (أنا في ورطة. كيف أعترف. قررت الإنكار مهما كان كانت النتائج.) كل هذا خطر لحسان في ثوان.

– لا تؤاخذني. ليس لي اسم حركي.

مدَّ المحقق يده إلى زر جرس بجواره. ضغط عليه. دخل الرقيب الضئيل الجسم. أدى التحية. قال له المحقق:

– احضر إلى هنا عبد الحكيم السيد. وليقف وراء هذا الرجل، ولا تسمح له بالنظر إلى وجهه. أحذرك يا أبا سالم من التكلم، أو الالتفات حين حضوره.

– سلمك الله أنا أبو مجاهد
لا أبو سالم.
ابتسم المحقق. تناول
سيجارة جديدة. انصرف كل
منهما إلى استكمال تناول ما
بقي من الشاي في كأسيهما.
قبل أن يقرع الباب سمع
حسان نحنحة صاحبه عبد
الحكيم السيد. إنها نحنحة
متميزة. تذكر حسان زيارته
الليلية لعبد الحكيم في حلب،
حيث تبدأ السهرة بعد
منتصف الليل. كانت مادة تلك
السهرات الأدب والسياسة، لا
ثالث لهما إلا القهوة المرة
والتدخين بالنرجيلة أو
السيجارات. كان حسان يمزح
مع عبد الحكيم قائلاً: (ما رأيك
لو تعاهدنا معاً على ترك
التدخين؟)، فيجيبه عبد
الحكيم ضاحكاً: (ماذا يهمك
أنت الذي لا تدخن أكثر من
سجائر معدودة في اليوم
الواحد؟)، فيقول حسان: (ماذا
تفعل إذا اعتقلت وحرمت من
طيبات التدخين؟) يجيب عبد
الحكيم: (لكل حادث حديث).

– ها أنت اليوم معتقل يا عبد الحكيم، فما العمل؟ (قال حسان في نفسه).

دخل الغرفة عبد الحكيم والرقيب. ألقيا التحية. مكث الرقيب منتظراً.

لم يستطع حسان أن يتخيل صاحبه بلا سيجارة. بدخوله عبقت رائحة الدخان في خياشيم حسان وتلافيف ذكرياته:

(أذكر المرة الأولى التي تعرفت فيها عليك يا عبد الحكيم في سهرة أدبية حلبية مع جهاد وعبد الله وعلي عبد الخالق. كنت يومها قادماً في إجازة من قطعتك العسكرية. سمعنا منك مختارات شعرية كسبت إعجابنا، وتعرفنا على مسرحيتك الساخرة التي سميتها (اصطبل العباقرة) التي لم تنشر حتى يومنا هذا، وهي تحفة فنية أدبية سياسية كادت ترى النور بعد سنوات وبالضبط عام 978 على مسرح جمعيتنا الأدبية،

لكن سيف الرقابة حال دون
ذلك ها أنذا أتذكر آخر نزهة
خرجنا فيها إلى ريف
منطقتكم، حيث نهر الفرات،
والمواقع الأثرية، وبشائر
الربيع، وطعام الشواء الطازج
في بيت طيني من بيوت
الريف الفطرية: تناشدنا
الأشعار، وتذاكرنا في النوادر
والأخبار، ونقدنا مشروعات
السلطة في تهجير سكان
الغمر، وسوء الإدارة والتنفيذ
في مشروع الفرات. وتذكرنا
أن هارون الرشيد كان يمشي
من بغداد إلى الرقة المجاورة
لمنطقتكم تحت ظل الأشجار لا
يرى الشمس، واليوم لا ظل ولا
شجر، بل عسف وسجون
وضرائب ورشاوى. اليوم يا عبد
الحكيم نحن مغتربون
مهاجرون، والآخرون يتربعون
على العروش، ويمسكون
بخناق العباد.
أسمع المنشدين يرددون
شعرك:

غسل الشهيدُ ذنوبَه

بدمائهِ ومضى يميسُ

مسربلاً بصفائه

ينسابْ في الفردوسِ نوراً

حالماً يُثري الجنانَ بطهرهِ

وضيائِه

يرثي لطاغيةٍ

يمجد نفسه ويرى دبيبَ

الموتِ في أعضائِه

يرثي لشعبٍ غارقٍ

في نومِه وبكفه أسبابُ

غسلِ شقائِه

ولعلك الآن يا عبد الحكيم

ترى شعبك وقد شرع

باليقظة وبغسل شقائه).

قال المحقق:

– يا عبد الحكيم هل تعرف

هذا الرجل؟ (وأشار إلى حسان)

– نعم.

– ما اسمه الحركي؟

– ...

لم ينتظر حسان إعطاءه

الإذن بالكلام، اندفع مقاطعاً:

– ليس لي اسم حركي.

ارتبك عبد الحكيم لما

أحس أن حسان ينكر اسمه

الحركي، حاول عبد الحكيم

التملص، أو الاعتذار، لكن

المحقق لم يمهله، أمر الرقيب

بنقل عبد الحكيم إلى
زنزانته حالاً. ثم قال:
- ما رأيك؟
- هناك خطأ ما. بالتأكيد
هناك خطأ.
- إن توقيعك الذي شككت
به قد جاء تحت اسمك الحركي
مباشرة. انظر. إنك وقعت على
(وصل) استلام آلة كاتبة، وهي
نفس الآلة التي ضبطت في
بيتك ثم تصر على الإنكار!
تأمل حسان الورقة متظاهراً
بالاستغراب.
- إذا لم تكن أنت الذي
وقع، فمن الذي وقع إذن؟
- لعله علي فستق. أبو
حسن.
- هذا الشخص حتى الآن لا
وجود له. ثم كيف تسمح له
بأن يوقع عنك؟
- إنها مسألة شكلية تقع
في الأوقات المزدحمة بالأعمال.
- أين تطبعون نشرة
"النداء"؟
- لا أعرف.
- ما الذي تعرفه؟
- أعرف أن علي فستق

يسلمني المواد الخام، ثم يعود ليستلم المواد المنجزة أو المنقحة. أو يحمل لي معه الأعداد مطبوعة.

– هذه الجداول من العناوين البريدية للأفراد والهيئات... كيف حصلتم عليها؟

– من دليل الهاتف السوري وأمثاله.

مد المحقق يده اليمنى إلى درج المنضدة. أخرج دفتراً صغيراً كان يستخدمه حسان لتدوين أرقام الهاتف. ثم قال:

– ماذا تعني بالحرفين /MD/؟

– مدريد.

– PA: باريس. LO: لندن. MI: ميلانو. RO: روما إذن؟!

– نعم.

– كيف استطعت أن تزور كل هذه الدول في خلال عشرة أيام؟

– كان مندوبو الجماعة يستقبلونني، ويودعونني في المطارات والمحطات. وينقلونني إلى أماكن

الندوات والمحاضرات.

أبرز المحقق قصاصات ورق ممزقة قد أعيد لصقها بعضها إلى بعض، كان حسان قد ألقاها في سلة المهملات، إذاً هي الآن وثائق إدانة وشواهد للتحقيق.

– من أصحاب هذه الأسماء في هذه الورقة؟ محمود بكار (طالب ثانوي 17 سنة). أبو الطيب جبلي (موظف في سادكوب). توفيق فهيم (24 سنة –كلية الطب سنة أخيرة)؟

– هذه أسماء شهداء جدد في مدينة حلب.

– وأصحاب هذه الأسماء أيضاً.

– إنها قائمة بأسماء / 34/ مواطناً اعتقلوا مؤخراً في مدينة حلب، معظمهم من الطلاب كما ترى.

– شريف دواليبي (كلية الطب)، هل هو من أقرباء الدكتور معروف دواليبي؟

– أتوقع ذلك لأن الدكتور معروف من حلب.

– هل عندك تفصيلات لعملية هرب / 17/ عنصراً من

معتقليكم في سجن المخابرات

العامة في كفر سوسة أواخر

الشهر الماضي مايس؟

– ليس عندي أكثر مما ورد

في نشرة "النداء".

– هنا في هامش الورقة

إشارة تقول:إن فارس غنام

قد تعرض لتعذيب شديد،

تكسرت بعده أطرافه كلها

يداه ورجلاه؟!

– نعم هذا صحيح.

– كيف استطاع الهرب

معهم؟!

– لا تستغرب. الشعب

السوري مكسر الأيدي والأرجل

مكمم الأفواه، وعلى الرغم من

ذلك يقوم بثورة شعبية.

لمعت عينا المحقق بسرور

مفاجئ وقال:

– تقول إنك لا تفهم

بالسياسة.

– هل هذا يحتاج إلى فهم

سياسي. هذه أمور محسوسة

ظاهرة للعيان؟!

– الشاعر سليم زنجير أحد

الهاربين من السجن. أين مر

بي اسمه؟

– هذا شاعر فرقة المنشد
أبي الجود الإسلامية.
– تذكرت. هل تعرف هذا
المنشد؟
– نعم. لكن معرفة
محدودة. رأيته مرة أو أكثر.
لكن لم تكن هناك علاقة.
– عندك أشرطة متعددة من
إنشاده.
– صحيح. إن أشرطته واسعة
التداول والانتشار.
– وأبو دجانة؟
– وهذا منشد آخر ناجح.
– هل تعرفه؟
– معرفة عابرة مثل الآخر أو
أقل.
– في الحقيقة أنا لست في
تنظيمكم الإسلامي، لكنني
تأثرت بسماع هذه الأشرطة.
– أشكرك (لم يشأ أن
يشك حسان بغرض المحقق من
وراء هذا الإطراء.)
هذا هو النشيد الشعبي،
المعبر عن أماني الشعب
الحقيقية. إنه لم يكتب ولم
ينشد لحزب معين أو لمنظمة
بعينها. (أخذ حسان ينشد

بصوت هادئ ونبرات أليفة.)

اللیلُ ولىّ لن یعود، وجاء
دورُك یا صباحْ
وطریقُنا محفوفةٌ ،
بالشوك، بالدم، بالرماحْ
یا دربَنا، یا معبرَ الأبطال...
یا دربَ الفلاحْ

– إذا كان لدیكم كل هؤلاء المثقفین والأدباء والشعراء والفنانین والنقابیین والتأیید الشعبي. فلماذا تحملون السلاح؟

– أولاً: أنا لم أحمل السلاح. ثانیاً: هؤلاء المثقفون والشعراء والفنانون اضطروا اضطراراً إلى حمل السلاح، لأنهم جربوا كل وسائلهم السلمیة فلم تفلح، بل جوبهوا بالإرهاب والاعتقال والاغتیال والتسریح. فالشاعر سلیم زنجیر اعتقل أخ له، واغتیل أخوه الثاني. محمد بشیر الخلیلي اعتقل أبوه وزوج عمته المدرسان.

تهللت أساریر المحقق وبدا كأن فكرة مهمة خطرت له:

– تصر على أنك غیر منظم

في هذه الجماعة الإسلامية؟

- نعم.

- وأنك مجرد موظف تعمل لديها؟

- نعم.

- ما رأيك بالعمل لدينا موظفاً أيضاً؟

- أعتذر.

- لماذا؟ (قال المحقق باستغراب مصطنع).

- لأنني اكتشفت ضعفي، وأخطائي، ولن أكرر ذلك.

- استعنت عليكم بالله يا رجال الإعلام، لا نستطيع التغلب عليكم. أنتم تحسنون التلاعب بالكلام، والتملص.

* * *

عاد حسان إلى زنزانته مثقلاً بأعباء الخواطر والمواقف المحرجة التي تعرض لها في جلسة التحقيق هذا المساء. كل شيء كان يخطر على باله من قبل، وحسب له حسابه، إلا أن تصادر سلة المهملات، وتلصق الأوراق الممزقة، وتدرج في ملفات التحقيق. جلس في زاوية خلفية من غرفته موجهاً

وجهه صوب الشمال. تمنى نزهة خلوية في هذا المساء الصيفي من شهر حزيران. قرر أن يتخيل نفسه، وقد حقق حلمه بالاعتكاف في بيت ريفي في جبل الزاوية بعد عشر سنوات، حيث تكون الثورة الشعبية قد انتصرت وأولاده تزوجوا، ومؤلفاته الأدبية تكفيه مؤونة الكسب، فيتفرغ للقراءة والكتابة بقية سني حياته، تصحبه زوجته المصابرة وكتبه المختارة وحسب!

ها هي ذي النجوم تتلألأ في السماء الصافية. النسيم الندي يتغلغل في أغصان الكروم وأشجار الكرز، صعوداً من الوادي، وزحفاً على السفوح والتلال. أصوات الكلاب المجاورة توحي بحضور ضيوف. ها قد جاء أحد أولاد الجيران يحمل سلة من الكرز، وبصحبته ضيفان قادمان من السفر. إنهما سالم حداد الشاعر وفارس غنام المهندس. فارس غنام يمشي

على عكازتين وأرجل
اصطناعية، يساعده سالم
حداد في عبور الطريق المعبد.
ما الذي جاء بهما، وكل منهما
أصبحت له مشاغله الكثيرة،
سالم عضو بارز في اتحاد
الأدباء الذي تطوع لتلبية
حاجات أجهزة التربية والإعلام
والثقافة بالإنتاج الأدبي
الرفيع، والآخر نائب رئيس
اتحاد النقابات العلمية التي
تصدت لمهمتين خطيرتين:
الأولى قيادة النهضة العلمية
في التعليم والتصنيع،
والثانية قيادة العمل
النقابي الشعبي الداعم
الواعي للعهد الجديد.
بعد العناق والترحيب
والجلوس على الكراسي
الخشبية في الإيوان الواقع
بين الغرفتين الوحيدتين،
كان أول سؤال طرحه حسان:
– خبرني أستاذ فارس
كيف نجوت وحدك من مجزرة
السجن؟
– عفواً. لا تذكرنا بعهد
المآسي. ها أنذا أمامك حي

يرزق، وأعمل، وأتجول،
وأدعوك إلى استئناف العمل.

– أنا أكتب الآن رواية، وقد وصلت في أحداثها إلى المجزرة التي حصلت لكم، ويهمني أن أسمع التفاصيل منك شخصياً.

– أستاذ حسان لا يقبل منك في العهد الجديد أن تكتب الروايات، والناس في حاجة إليك.

– وهل بوسعي أن أنفع الناس بغير هذا؟

– لا تتهرب أبا مجاهد. أنت ممن صنعوا الوضع الجديد، والأمل معلق على أمثالك في قيادة الدولة والمجتمع إلى مرحلة الرفاهة والاستقرار.

– ألسنا الآن في هذه المرحلة؟

– إن كنت لا تسخر، فبوسعي أن أطمئنك أننا اقتربنا كثيراً من هذه المرحلة، بعد شيوع الثقة والأمل، وعودة المصانع إلى العمل، وبدأت الزراعة تغطي حاجات السوق المحلية أولاً، وبدأت بعض الأنواع

بالتصدير.

توجه حسان إلى الشاعر سالم فقال:

– مالك لا تتحدث. هل سحرتك أنسام المساء، فأوحت لك بشيء.

تنهد سالم، ومرر أصابع كفه اليمنى في ثنايا شعره الذي خالطه الشيب المبكر:

– أنا أغبطك يا أبا مجاهد على عزلتك أنت دائماً أستاذنا. إننا موفدان خصيصاً لإقناعك بالعودة إلى موقعك القيادي، وأن تتخلى عن العزلة وعن الأدب. كيف أستطيع أن أقنعك وأنا أغبطك وأتمنى أن أفعل مثل فعلك؟

– هكذا عهدي بك، لا تداري، ولا تلف.

– إن إخوانك جميعاً يدعونك، ويتمنون عليك أن تستجيب طوعاً قبل أن توجه إليك الأوامر، وأنت أكبر من الأوامر.

تناول حسان طبق القش الذي يضم حفنات الكرز الحلو والحامض، ووضعه على المنضدة،

وتابع حواره:

– ليس هناك من يكبر على الأوامر. لكن أرجو ألا يحصل ذلك.

شعر الموفدان الضيفان بالحرج في مباشرة الموضوع بهذه السرعة. أراد فارس أن يغير مجرى الحديث:

– هل لديك سلاح في هذا المكان المنعزل؟

– ما حاجتي للسلاح؟

قال سالم ممازحاً:

– للصيد. للتدريب ولئلا تنسى الرماية.

قال حسان مداعباً بسخرية لطيفة:

– إن الذي يخرج من المدينة إلى هذا المكان يحتاج إلى سلاح (ضرب بكفه على الجانب الأيمن من خصره) لكن حينما يصل إلى هذا المكان الريفي يتخلى عن كل سلاح.

قال سالم مجارياً لسخرية حسان:

– فعلاً نحن نتحرك مسلحين، لكن ليس بسبب خلافات الرأي والاجتهادات

المتباينة بعد انتصار
الثورة، بل بسبب وجود بعض
العناصر الموتورة من العهد
البائد، وهي تتربص فرص
غفلة؟
– ألا تحتاجون إلى من يكون
حكماً على خلافات الرأي من
موقع التأمل والحياد؟
قال فارس وهو يطرح عكازه
المصنوع من الألمنيوم:
– نعم نحتاج إلى آرائك
وحكمتك لكن في ميدان
العمل لا في رؤوس الجبال.
– أنا هنا ولكن قلبي و عقلي
معكم. أخباركم وخلافاتكم لم
تنقطع عني أبداً. أنتم
تعلمون أن هدم الماضي الأسود
غير بناء المستقبل الزاهر.
لكل جيل دوره واستعداداته.
قال سالم:
– لا أوافقك على هذا الرأي.
أنا أعتبره من باب التواضع.
أنت من النوع الذي لا يشيخ.
– إنني من الجيل الذي مثل
دور (مالك الحزين) حين أفهم
الحمامة المطوقة أن عدوها
الثعلب لا يستطيع تنفيذ

تهديداته بالصعود إليها في
أعلى النخلة ليأكل بيضها أو
فراخها، وهي في الأقل
تستطيع الطيران والهرب إن
حقق الثعلب تهديداته وهو
غير قادر، فما كان من الثعلب
إلا أن استفسر من الحمامة عمن
علمها هذا العلم. فدلت على
مالك الحزين الذي افترسه،
وهو يقول له: يا عدو نفسه...
تستطيع أن تعلم الحمامة
كيف تحمي نفسها، ولا تدري
كيف تحمي نفسك؟

ضحك الرجال الثلاثة،
وسمعت أم مجاهد، وهي تضحك
من بعيد أيضاً.

قال فارس:

– لكننا تخلصنا من الثعلب
نهائياً. فما الذي يخيف مالك
الحزين؟

قال سالم:

– ليس الثعلب واحداً. بل
هناك ثعالب.

في هذه اللحظة سمعت
أصوات ابن آوى تتردد من
كروم التين والعنب.

الليلة الثالثة والعشرون

مساء يوم الخميس 26
حزيران 1980

أفاق حسان من نومه بعد منتصف الليل. تلفت حواليه ليتأكد من المكان الذي ينام فيه. تذكر أنه ما زال في زنزانته الانفرادية. عاد إلى نومه. الحقيقة أنه عاد إلى استئناف الحلم الغريب الذي كان يراه.

قوس قزح عظيم ينتصب في سماء بلاد الشام وفلسطين، أوله في شرقي دمشق، ونهايته في مدينة القدس. الملائكة تطير بأجنحتها النورانية حول هذا القوس صعوداً وهبوطاً، ذهاباً وإياباً، وهي ترتل وتنشد الأناشيد العذبة، وعصافير خضر زبرجدية تحلق معها، وهي تغرد جماعات. الوقت ساعات الضحى. الشمس مشرقة بأضواء باهرة.

اقترب حسان من بداية قوس قزح. وجدها منطلقة من سماء بادية الشام، حيث يوجد جمع غفير من أصدقائه

الكثيرين، الذين لم يعد
يذكر أسماءهم. كلهم يرتدون
أثواباً بيضاء في الأرض، وحين
يحلقون في قوس قزح تتلون
أثوابهم بألوان سماوية
بديعة بين لون ذهبي أو أخضر
زاهٍ.

اقترب حسان أكثر يريد
مخاطبة أصدقائه، والاشتراك
معهم في هذه الرحلة الجميلة،
لكنه منع من الوصول إليهم.
حراس أشداء. أسلاك شائكة.
بركة دم هائلة يغذيها هؤلاء
الأصدقاء قبل عروجهم. على
الطرف الآخر من البركة
مجموعات من الذئاب والضباع
والديدان الضخمة، تلعق الدم
تارة، ويأكل بعضها بعضاً
تارة أخرى، وهي تتوالد
وتتهاوش باستمرار، ولولا
ألسنة عملاقة من النار تغير
على هذه الوحوش بين الفينة
والأخرى فتهلك بعضها، لملأت
الفضاء الرحب بأعدادها
المتكاثرة.

نظر حسان إلى الأعلى يريد
رؤية بقية القوس. حدق طويلاً

فاكتشف أن قبة القوس العليا لا ترى بالعين المجردة. إنها مختفية في السماوات العلا.

انتقل إلى نهاية قوس قزم. فوجئ بمنظر بركة الدم نفسها، وبالوحوش والديدان المفترسة تلعق الدم ويأكل بعضها بعضاً، لكنه لم ير أصدقاءه الذين طاروا من بلاد الشام. رأى أصدقاء آخرين يشبهونهم في الألبسة والملامح والألق النوراني. حاول الاقتراب منهم، فاعترضه الحراس الأشداء والأسلاك الشائكة أيضاً.

طاف حسان على المرافئ والموانئ والمطارات. وجد نساء يحملن أزهاراً، وهن ينتظرن المسافرين الذين غابوا منذ سنوات، ولم يعودوا حتى الآن. تنقل بين البيوت. كان المساء قد أوقد المصابيح في النوافذ. وجد في كل بيت امرأة تغزل وهي حزينة. رغب أن يزور بلدته جسر الشغور. رأى سفينة طويلة جداً في

وسط نهر العاصي، لها ثمانون
مجذافاً، وقد قعد أمام هذه
المجاذيف ثمانون رجلاً، نصف
عراة مقيدين بالسلاسل
والحبال، ووراءهم جلادون
يسومونهم ضرباً وسباباً.
السفينة لا تكاد تتحرك إلا
ببطء شديد لا يلحظه الناس.
الناس وقفوا صفين على طرفي
الشاطئ، يحملون بأيديهم
مناديل حمراء، يمسحون بها
دموعهم الغزيرة، ويلوحون
بها بين الحين والآخر.

صادف حسان فلاحاً عجوزاً في
سهل الغاب، يقف وراء محراثه
الروماني. كانت الأرض مكسوة
ببساط أخضر شامل. سأله
حسان عن سر انتشار الخضرة
في كل مكان. أجابه الفلاح
العجوز أن الأمهات والزوجات
والأخوات مازلن يبكين منذ
سنين بعيدة لا يعلم الله
تعالى أولها، وإن دموعهن
المدرارة قد سقت السهول
والجبال، وسالت الأودية التي
لم تكن تسيل، فأورق الصخر
والقفر. سأله حسان: ولماذا

تشغل نفسك بالحراثة ليلاً؟
أجابه: بأنه مضطر إلى الذهاب يومياً إلى مبنى المخابرات العامة للتوقيع على الدوام.
قال له: وهل يحتاج التوقيع لكل هذا الوقت؟ أجاب: لا، ولكن الذين يذهبون للتوقيع كثيرون، والأمر يحتاج لهذا الوقت حتى يحين الدور. سأله حسان: لماذا لا يجعلون التوقيع على الدوام في الليل كي تحرث في النهار. أجاب: لأن الموظفين لهم دوام ليلي في رعاية السجناء والمعتقلين.
كم هم لطيفون ورحماء يا ولدي!

في طريقه شاهد حسان منظراً متكرراً. أشجار من الزيتون، تقعد تحت كل شجرة امرأة، ترضع أطفالاً كثيرين، كلهم بصحة جيدة، والابتسام يعلو شفاههم، على حين تبدو المرأة حزينة ساهمة. كما شاهد جموع الأطفال حول الغدران تلعب، وتمرح بجذل طفولي، وتقطف شقائق النعمان الحمر، وتصنع

منها الأكاليل للأمهات
الحزانى.
اشتهى حسان أن يغني
بملء صوته. تسلق التل الأثري
المجاور لجسر الشغور المطل
على نهر العاصي. استطاع أن
يرى سلسلة التلال المتتابعة
جنوباً حتى فلسطين فصاح:

حننتَ إلى ريّا ونفسُك
باعدتْ مزارَكَ من ريّا،
وشِعباكما معا
وليستْ عشياتُ الحمى
بروَاجعٍ إليكَ، ولكن خلِّ
عينيك تدمعا

الليلة الرابعة والعشرون
مساء يوم الجمعة 27
حزيران 1980

-1-

استدعي حسان إلى غرفة
التحقيق السابقة، لكنه فوجئ
بحشد من المحققين عرف
بعضهم، وبعضهم لم يره من
قبل. حين دخل عليهم وألقى
التحية كانوا يلغطون
ويدخنون، فتوقفوا عن اللغط،
ونظروا إليه جميعاً باهتمام.
دعوه إلى الجلوس، فقام أحدهم

عن كرسيه وأجلسه مكانه.

قال له أحدهم:

– هل اعتقلت سابقاً؟

– لا.

– أقصد في سورية.

– لم أعتقل في سورية ولا غيرها. (أحس حسان بوخزة لأنه يكذب، فقد اعتقل أكثر من مرة، لكن ما العمل؟ الموقف محرج، السؤال يجر السؤال.)

– لا تخف نريد أن تعطينا فكرة عن سجون سورية.

– سورية سجن كبير.

– نريد السجون الحقيقية.

– المدارس أصبحت سجوناً.

– لا مؤاخذة. الأماكن المخصصة أصلاً للسجن والاعتقال.

– سجلوا إذا شئتم: في دمشق: سجن المزة العسكري. سجن القلعة المدني. سجن القصاع. سجن كفر سوسة. سجن قطنة للنساء. سجن الشيخ حسن. معتقل القابون. سجن الحلبوني. معتقل سرايا الدفاع. معتقل الروضة. معتقل الأمن السياسي. سجن

شهلان على طريق المطار.
معتقل المخابرات الجوية.
معتقل الوحدات الخاصة في أبي رمانة.

– سجون حمص إذا سمحت؟

(بدأ ينتبه إلى عبارات اللطف والتودد. لكن الحذر لم ينفك عنه.)

– سجن تدمر العسكري.

– ماذا تعرف عن سجن تدمر هذا؟

تناول حسان كأس الشاي. أخذ يستحث ذاكرته المتعبة. الصمت مطبق. لا صوت! إلا رشفات من كؤوس الشاي. تكاد الأنفاس تعد عداً لضيق المكان.

قال حسان بعد قليل:

– سجن تدمر بحسب معلوماتي مخصص لتأديب الناشزين والمنحرفين العسكريين. ولذلك أطلق على المجموعة العسكرية فيه (سرية التأديب)، ولعل أول مرة تفتح أبوابه فيها لاعتقال سياسيين كانت حين نقلت إليه مجموعة من القادة

السياسيين، ومعظمهم من التنظيم الإسلامي أواخر حزيران 1966.

– نريد وصف السجن.

– حدثني بعض الذين كانوا معتقلين فيه، فقالوا: إنه سجن ضخم طوله أو عرضه أكثر من 125 متراً. وهو محاط بجدران عالية جداً. يبدو أن نصف السجن أحدث بناء من النصف الآخر، ولعل النصف الجديد بني بعد جلاء الاستعمار الفرنسي وفي الستينات على الأرجح.

– هل تعرف عدد غرفه وحجمها؟

– إذا لم تخني ذاكرتي فإن سجن تدمر يضم ما لا يقل عن أربعين مهجعاً وعشر زنزانات واسعة. وهذا غير غرف الإدارة والمطبخ والمخازن والباحات.

– هل صحيح أن فيه سجناء مدنيين.

– إذا كنت تقصد سياسيين، ففيه المئات من المدنيين والعسكريين: طلاب. موظفين. أطباء. محامين.

هناك سجن خاص بالنساء:
مجموعة غرف كانت تسمى
(المستوصف) أما الآن فهي
مخصصة للنساء.
(تذكر حسان الأخبار التي
وصلته قبل دخوله السجن.
الأخبار التي تحكي عن اعتقال
النساء مع الأطفال. وتروي
حوادث الولادة في السجن أيضاً،
اعترته قشعريرة. تلعثم في
كلامه.. توقف يبتلع ريقه.)
قال أحد المحققين:
– هل تعرف عدد المعتقلين
فيه؟
– يتراوح عددهم من " 600
–1000" معتقل.
– هل صدرت بحقهم أحكام،
أو أجريت لهم محاكمات؟
– كل ما أعلمه أن شقيق
الرئيس قائد سرايا الدفاع
كان قد ألقى خطاباً في المؤتمر
القطري السابع للحزب الحاكم
أواخر العام الماضي وبداية هذا
العام، قدم فيه مشروعاً لما
أسماه (قانون التطهير
الوطني) يطال –على حد قوله–
كل منحرف عن المسار، وذلك

بأن يصدر تشريع عن السلطة
ينص على إنشاء معسكرات
تدريبية بغرض تحضير
الصحراء، ويدعى إلى هذه
المعسكرات كل من تحكم
عليه المحاكم الشعبية!
ويتقدم الوافد لمعسكرات
التدريب إلى امتحانات سنوية
بجميع المواد التي درسها أو
درب عليها، ويتقدم فيها من
مرحلة إلى أخرى، حتى ينهي
الفترة المحكوم بها، ويعطى
في نهاية مدته —في حال
نجاحه – وثيقة تنص على
تطهيره وطنياً، يعود بعدها
إلى الحياة العامة.

عاد اللغط والهمهمات بين
المحققين. لم يفهم حسان
سبب هذا اللغط، لكنه أحس
إحساساً مبهماً بأن شيئاً
خطيراً يتحدثون عنه، ولا
يريدون إشعاره به. إنهم
يتكلمون همساً وأعينهم
مصوبة إليه. نظراتهم هذه
المرة تختلف عن النظرات
السابقة بالتأكيد. حتى
الأسئلة وطريقة المعاملة

خلالها.. كل ذلك مختلف عما
جرى سابقاً. (ما الذي يجري)
قال حسان في نفسه (لا بد أن
شيئاً جديداً قد وقع. لكن ما
هو؟!).

قال أحدهم باهتمام:

– إلى أين تمضي حمامات
الدم في سورية يا أخ حسان؟!

– أظن أن هذا السؤال لا
يوجه إلي!

قال المحقق الأسمر ممتلئ
الجسم بشيء من الحزم:

– إلى من يوجه؟

– يوجه إلى رئيس الدولة،
وإلى العصابة التي تأتمر
بأمره، وتنفذ هذه الحمامات.

قال المحقق الأسمر:

– إن سؤالنا من باب التأثر
والإشفاق على بلدكم، وليس
من باب تحديد المسؤولية.

– أظن أن تحديد المسؤولية
جزء مهم من وضع حد للمأساة.

قال محقق مسن لم يشترك
في الحديث حتى هذه اللحظة:

– اسمحوا لي أن ألفت النظر
إلى أن العرب بذلوا جهداً
مضنية لتحديد مسؤولية

الذين اقترفوا مأساة فلسطين. وإلى الآن لم تفلح جهودهم.

قال حسان مدهشاً:

- وهل هذا يحمل العرب على التخلي عن متابعة هذا الجهد؟

- لا. ولكن هذا لا يمنع من بذل جهد آخر عملي لوقف المذابح.

- كيف في رأيك؟ (قال حسان)

- في رأيي إذا كانت مقاومة المظلوم تثير الظالم، فعلى المظلوم أن يعيد النظر في مقاومته.

عاد اللغط واختلاط المناقشات بشكل أشد من قبل. بعد قليل تكلم محقق آخر:

- ما قاله زميلي عن إعادة النظر في مقاومة الظلم وجهة نظر خاصة به، ونحن هنا يتكلم كل منا بشكل غير رسمي. أرجو أن يكون الأمر واضحاً.

قال حسان:

- أنا فهمت من عبارة إعادة

النظر في المقاومة أنها إعادة النظر في شكل المقاومة أو طريقة المقاومة، وليس إلغاء المقاومة.

– بالضبط هذا ما كنت أعنيه (قال صاحب العبارة، فضج المجلس بالضحك وعبارات الإعجاب والاستحسان.)

تشجع حسان ووجد فرصة لشرح قضية شعبه:

– أولاً: أنا أشكر الأخ الذي شبه وضع بلدنا بوضع الأرض المحتلة. أقلية باغية ظالمة تتحكم بأكثرية مظلومة، وأضيف أن التشبيه عميق جداً، حيث التمييز بين الأقلية الحاكمة والأكثرية المحكومة يكاد يكون تمييزاً عرقياً، كما هو الحال في حكومة روديسيا أو جنوب إفريقيا العنصرية: أقلية بيضاء تتحكم بالأكثرية السوداء. ولا يخفى عليكم ما في مثل هذا الوضع من ظلم ومفاسد واضطهاد وخطورة بالغة.

ثانياً: إن هذا التشبيه السليم يفتح الأبواب لفهم طبيعة

النظام، والعزلة الشعبية
التي يتردى في مهاويها،
والارتباطات الخارجية التي
يقيمها أو يحتاج إليها،
وأنواع التحالفات التي
يعقدها، هكذا وهكذا. إلى آخر
ما هنالك من مستلزمات
وتفريعات ونتائج لا تخفى على
حضراتكم.

ابتسم المحقق الأسمر
ابتسامة ظفر:

– وهذا التحليل السياسي
الجديد يدل على أنك لا تفهم
شيئاً في السياسة!

رد حسان على الفور:

– كل هذا ببركة الحوار.
وهو توضيح لما تفضل به
الإخوان المتكلمون.

– طبعاً. طبعاً.

ضج الحاضرون بالضحك

كان حسان موطناً نفسه
على المفاجآت، لذلك لم
يستغرب حين نقل إلى غير
زنزانته. بعد عودته من
التحقيق أدخله الحارس
المرافق الزنزانة رقم " 8"،
حيث نهض لاستقباله ساكن

فيها، وهو شاب أسمر البشرة، نحيل الجسم، قصير القامة، لم يجاوز الخامسة والعشرين، أضلاعه بارزة من تحت ثيابه، حديثه متدفق:

– أنا اسمي سليم شعيب.

– أنا اسمي حسان الربيعي.

– سوري؟

– نعم.

– والد مجاهد الربيعي؟

– نعم.

– تشرفنا.

– شكراً. هل رأيت ولدي مجاهداً؟

– كنا في الزنزانة رقم "6" معاً.

شعر حسان بسعادة. هبت في أعماقه ذكريات ونسمات، وتألقت في مخيلته صور ومشاهد حبيبة ظن أنها منسية. مجاهد الطفل. مجاهد الفتى. مجاهد الشاب. حذره من شريك الزنزانة هبط إلى ما دون الوسط (إنه شريك مجاهد. صديق مجاهد بعض من ولدي حبة قلبي مجاهد...)

– كم بقي عندك مجاهد؟

– أسبوعاً أو أكثر.

بدأ سليم يقتصد في كلامه على غير عادته. لقد تعمد ذلك، لأنه أدرك قيمة المعلومات التي لديه عن مجاهد. إنها بمثابة الكنز بالنسبة إلى والده. وعلى صاحب الكنز أن يقدر قيمة معلوماته، فيحسن التصرف بجواهره ونقوده، كما أن سليماً يحتاج إلى أن يثبت وجوده أمام شخصية حسان، التي هي بالتأكيد أكبر وأقوى من شخصية ولده مجاهد.

(أنا ما استطعت أن أدبر نفسي مع ابنه مجاهد إلا بصعوبة، فكيف حالي مع الأب؟ هيه، فلنحاول.)

– حدثني عن مجاهد. فقد اشتقت إليه.

– أظنه قد أطلق سراحه.

– وأنا أظنه كذلك

لم يجد سليم بداً من الحديث المفصل. اقترب من شريك الزنزانة، وقد جلسا متقابلين.

– ابنك ذكي لطيف حلو الحديث.

- شكراً.

- لقد أمضينا أياماً حلوة.

- يسرني ذلك.

- صحيح كنا مختلفين في الفكر، لكننا اتفقنا كثيراً في الأمور الأخرى.

- هذا متوقع.

سكت سليم. مضغ عبارة (هذا متوقع)، تأملها. قال:

- طبعاً. السجن يجمعنا.

- وأشياء أخرى: العمر. النضال. الثقافة. حب الآخرين. روح الفكاهة.

تردد سليم في الكلام:

- عفواً. من أين تعرف عني أنني مناضل مثقف؟

ابتسم حسان بتواضع:

- الأمر لا يحتاج إلى تفكير طويل. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

تظاهر سليم بالفهم السريع، ابتسم.

- طبعاً. طبعاً. وأنت تعلم أن ابنك مرح، محبوب لدى الآخرين.

- ويحب الآخرين مثلك.

- نعم. نعم.

- ما الذي يحملك أو يحملني

على النضال أو الجهاد أو حمل السلم بالعرض؟!

– نعم حب الآخرين والبحث عن السعادة لهم.

– يستوي في ذلك كل صاحب رسالة في الحياة. وكما يقال: كل مناضل سياسي أو اجتماعي، مسلماً كان أم غير مسلم.

قال سليم في نفسه: (هل يعلم أنني شيوعي، يبدو كذلك، لكنه كيف علم؟)

– صحيح، فأنا مثلاً في حزب شيوعي.

لم يأخذ حسان هذا الاعتراف مأخذ اليقين أو الظن. أخذه واقعة قابلة للاختبار، وإن كان يميل إلى التصديق في هذه اللحظات. قال:

– أظن أن الليل قد انتصف.

– أظن. بوسعك أن تختار أحد الفراشين، وأن تختار الجهة التي تفضل فيها النوم. اليمين أم اليسار؟

– أنت يساري فكيف تخيرني بين اليمين واليسار؟

– لكن أؤمن بحرية

الاختيار.

– هذا فتح عظيم. أظننا سوف نقضي معاً أوقاتاً طيبة جداً.

أحس سليم بأنه تصرف بشيء من المباسطة، لكنه ورط نفسه بهذه المباسطة، كأنه اعترف بأن مثله من الملتزمين لا يقرون بحرية الفكر والاختيار، فاستدرك.

– إيماني بحرية الاختيار ليس رأياً شخصياً أو مزاجاً عابراً.

– سوف نتأكد من ذلك في المستقبل.

بدأ سليم يتحفظ، وتتخذ لهجته ونبراته طابع الجد:

– كان بوسعي أن أتدخل في اختيارك، وألزمك من خلال اختياراتي بأشياء، فأنا أسبق منك في هذه الغرفة.

– كان بوسعك ذلك، لكنك لم تفعل، ذلك لأن هناك حتميات في الأدب والذوق واللياقة أكبر من الحتمية التي يزعمها بعض مفسري التاريخ.

(هكذا ضربة واحدة يدخل أبو مجاهد إلى المواجهة، ونقد الحتمية التاريخية. فعلاً ليس من الأدب واللياقة أن أحتكر شيئاً، وألزمه بشيء من هذا القبيل.)

قال سليم لنفسه. ثم قال بصوت مسموع:

– ما أظن المسألة تحتاج إلى هذا الجد.

– فعلاً. وأنا بالمقابل أشكر أريحيتك ولباقتك وأعرض عليك أن تختار الفراش والجهة التي ترتاح للنوم فيها.

– أشكرك ثم إن اليمين واليسار في الأمكنة شيء شكلي.

– لا أكتمك أنني خارج للتو من جلسة تحقيق، وذهني مشوش قليلاً. فأرجو المعذرة إن فرط مني شيء. (تمدد حسان على قفاه. أخذ ينظر في سقف الغرفة الأصفر. وضع يديه معقودتين على وسطه. فعل مثله سليم.) تابع حسان كلامه:

– هل تعلم تاريخ هذا اليوم؟

– نعم أنه 27 حزيران.

– هل تعلم أهم حدث جرى في سورية في مثل هذه الليلة من العام الماضي؟

– عفواً، لا أعلم.

– إنها الليلة التي جمع فيها خمسة عشر سجيناً في دمشق، ونقلوا إلى سجن القلعة، حيث نفذ فيهم حكم الإعدام شنقاً صباحاً.

– المعذرة سمعت بالحادثة، لكنني لم أحفظ التاريخ ولا التفاصيل.

– أما أنا فأعرف عدداً منهم معرفة شخصية، وأرتبط معهم جميعاً برابطة العقيدة والآمال والآلام، ولم أستطع أن أفعل شيئاً لإنقاذهم.

بعد فترة صمت قال سليم:

– ألم تكن لهم علاقة بحادثة مدرسة المدفعية؟

– هذا الأمر يجهله معظم الناس. لا علاقة لهم إطلاقاً بالحادثة المذكورة. تصور أنني أعرف الناس بهم. تصور

أنني أعرف عدداً من ذويهم، وأعرف وقع الإعدام على أهليهم وإخوانهم وأصدقائهم. تصور أن إعدامهم كان أكبر سبب في تفجير البراكين المدمدمة تحت الأرض السورية، وقطع الطريق على كل إصلاح بغير السلاح.

– إذا كان لا بد من حمل السلاح، فلماذا التهرب من الحقيقة؟

– هذا إذا كان لا بد. في حدود علمي أنه كان بالإمكان التغلب على الضغوط ولو من الناحية النظرية في الأقل. على كل حال حصل ما حصل.

– إذا لم تكن لهم علاقة بحادثة مدرسة المدفعية فلماذا حكم عليهم بالإعدام؟

– إذا صدقنا المحاكمات الصورية التي أذاعها التلفزيون السوري وأجهزة إعلام النظام، فإن التهم تنحصر في النقاط التالية: أولاً: انتسابهم إلى تنظيم إسلامي سري. ثانياً: وجد عند بعضهم سلاح غير مرخص. ثالثاً: بعضهم

أبدى مقاومة وقت اعتقاله.
رابعاً: بعضهم وزع منشورات معارضة.. أما لماذا يضطر التنظيم الإسلامي للعمل بالسر؟ ولماذا يضطر المواطنون إلى اقتناء السلاح؟ ولماذا توزع المنشورات المعارضة؟ فهذا كله ذنب النظام الفاسد نفسه. لهذا كانت المحاكمات فضيحة للنظام ومدعاة للتحريض على الثورة الشعبية العريضة.

لم يتكلم سليم بشيء.

تابع حسان كلامه، وهو غير منتبه إلى حال سليم إن كان صاحياً أو نائماً، كأنما كان حسان يكلم نفسه:

– تصور أن هؤلاء الشهداء جمعوا من زنزانات سجن المزة وكفر سوسة في مثل هذه الليلة، عيونهم معصوبة، أيديهم مقيدة بالحديد، فيهم الأطباء والمهندسون والعمال والطلاب. تصور أن فيهم شقيقين من حلب، وشقيقين آخرين من حماة، وابن أخت لهما لا يزيد عمره

على اثنين وعشرين عاماً. بل
أكبر الشهداء لا يزيد عمره
على ستة وثلاثين عاماً، وهو
الأخ الحبيب الدكتور حسين
خلوف أبو علي. تصور أن أصغر
الشقيقين الحمويين مهدي
علواني الطالب الثانوي
يعتقل في سن السادسة
عشرة، ويهاجم دوريات
المخابرات، وينقذ أخاه زكريا
الطالب الذي أخرجوه من قاعة
الامتحانات، لأنه اعترض على
انتهاك حرمة الصيام في شهر
رمضان. تصور هذا الفتى الشاب
مهدي، المتوسط الطول، ذا
الشعر الخرنوبي الأجعد
والبشرة الحنطية اللون،
الدائم الابتسام، يشهد أمام
عينيه اغتيال أبيه الشيخ
المسن وأمه العجوز وعدد من
نساء أقاربه ومصادرة
أملاكهم عام 976، واستشهاد
صديقه صبحي عثمان في
أقبية التعذيب في العام
المذكور...

يبدو أن حسان لم يعد يصور
الصور لشريكه سليم، بل راح

يصورها لنفسه:

- يا أخ صبحي كيف
سبقتني إلى الجنة...
هل تعتب علي لأنني أتوارى
عن الأعداء خارج البلاد... في
لبنان. لقد آلمني أشد الألم ما
لاقيته أنت من تعذيب في
سجون المخابرات العسكرية.
يا صبحي إن صورتك لا
تفارقني والله.

يا رب إلى أين نسير؟
لماذا أتينا إلى هنا؟
أين الأخوة؟
كيف يكون الوفاء؟
كيف تركنا المجرمين
ينالون من إخواننا؟
أتذهب دماؤهم هدراً وما زلنا
أحياء؟

أنا لست ابن وجيه
العلواني، ولا سليل الشيخ
علوان إذا لم أثأر لهم.
سوف أعود إلى سورية إلى
حماة مهما كانت النتائج، وهل
هناك أحلى من الشهادة؟

.... تصور الأخ مهدي الذي لم
يجاوز الرابعة والعشرين، وهو
متوارٍ عن الأنظار في بيت

أخته الكائن في منطقة
العباسيين بدمشق حين بلغه
اعتقال المخابرات لابن أخته
الشاب خالد... تصوره ينطلق
كالسهم، كالنمر الكاسر
الغضوب ليفاجأ بمحاصرة
المنطقة كلها، فلا يهتز له
طرف، يسير متظاهراً بأنه لا
يرى شيئاً. يلقيها عليهم
فجأة. ينبطح أرضاً يقتل واحداً
منهم، ويجرح آخرين، طيب أبا
وجيه. طيب. الله يحييك انظر
أحد المجرمين يغدر به. يضربه
من القفا على مؤخرة رأسه
بعقب مسدسه. يا الله إنه
يغمى عليه. هجم الآخرون. حملوه
إلى سيارة (لاندروفر). ها هو ذا
يصحو على أرض السيارة،
يستل مخططاً ورقياً لتحرير
سجناء المزة من جيبه. يوقد
قداحة الغاز، يحرق المخطط
ينتبه المجرمون. يمسكون
به. يغافلهم. يختطف سلاحه.
يطلق النار عليهم. يردي عدداً
منهم قتلى وجرحى. نفذت
الذخيرة، هرب في طريق فرعي.
ركضوا وراءه. الدم ينزف من

رأسه. ألقوا القبض عليك يا
مهدي، لقد ظفروا بك، وهم
فرحون، كأنهم حرروا الجولان
أو فلسطين...

رئيس المحكمة: هل أنت
جريح؟

مهدي: أصبت بشظايا.

– من عالجك؟

– عالجني مستشفى
المواساة.

– كيف كانت معاملتهم
لك؟

– حسنة.

يفرح رئيس المحكمة فائز
النوري بهذا الجواب:

– وهم من عناصر السلطة؟

يقاطعه مهدي بجرأة:

– لكنهم عاملوني معاملة
حسنة لأجل أن يكسبوا شيئاً
من المعلومات عن التنظيم.

– طيب يا مهدي، أنت كنت
دائماً تصدق. ولحد الآن تقول
الحقيقة، فهل يعقل أن واحداً
يراقب ولا يعرف من ينفذ؟

يجيب مهدي على الفور
بطلاقة:

– أي فعلاً... ليش؟ لأني قاعد

بتنظيم سري، ماني قاعد في خان، ولا شيء، قاعد بتنظيم سري.

تقدم رفعت نحو مهدي بابتسامة ظفر صفراء، والشماتة على وجهه:

– صار لي سنتين وأنا بدور عليك يا سيد مهدي.

أجابه مهدي بعنفوان ساخر:

– وأنا ما تركت قرنة في الشام إلا وفتشت عنك يا سيد رفعت. (تطلع مهدي إلى القيود التي تكبل يديه ورجليه. ثم نظر إلى رفعت والزبانية الآخرين) لكن الله كريم.. إذا استطعتم أن تقتلوا مهدي اليوم، فراح يطلع لكم ألف مهدي بكرة يا كلاب..)

أبوس روحك يا مهدي، أبوس عينيك هل تعلم يا أبا وجيه أن النساء السوريات زغردن لما سمعن أجوبتك الشجاعة عبر الإذاعة والتلفزيون؟ هل تعلم أن الكثيرات منهن سمين أولادهن باسمك الحبيب. مهدي.

مهدي. مهدي. وهل هناك أجمل
وأعظم من أن يكون الإنسان
مهدياً بالاسم والفعل؟ لقد
زعم الزاعمون أن الإسلام في
سوريا قد مات، فإذا أحفاد خالد
وطارق وصلاح الدين يظهرون،
وإذا مهدي وعبد الستار
وبسام يبعثون الآمال،
ويزيلون الشبهات والأصنام،
ويوقظون العزمات.

عجباً. ماالياسمين دمشق
يعبق غمامات تركض
في الشوارع والمنعطفات؟
تدق الأبواب والنوافذ والأجفان
النائمة؟

مالنهر بردى يهدر في
أقنية دمشق وبركها
الفوارة؟

مالأذان يصدح لصلاة الفجر
عبر المآذن مجلجلاً، كأنه
العاصفة المنذرة بالنشور
بالقيامة؟!

لا عجب، لا عجب. إن موكب
الشهداء الخمسة عشر يتهادى
معصوبي العينين من سجن
المزة إلى سجن القلعة،
فيستيقظ ساكن القصر

الجمهوري وراء جمهرة الحراس
والمستشارين وأجهزة
اللاسلكي، يعطي الأوامر
ويتلقى التقارير.

لا عجب. إن شيخكم محمد
الحامد يلوح لكم مرحباً من
مقامه في عليين، وإن الشيخ
ابن تيمية ينتظر وصولكم
إلى سجن القلعة الذي توفي
فيه صابراً منذ قرون.

العجب كل العجب أنكم
تدخلون باحة السجن ضاحكين،
يتقدم كل منكم إلى مشنقته
ضاحكاً متهللاً، وأنا ومئات
السجناء في زنزانات القلعة
خلف قضبان النوافذ نبكي.
الجدران الصماء تبكي.

ماذا أرى؟ ها أنتم تمسكون
بذوائب سحابة حمراء قرمزية.
أرى قاماتكم تطول. تطول.
هاماتكم ترتفع. ترتفع.
أراكم وقد أصبحت قاماتكم
بارتفاع جبل قاسيون...
أمسك كل واحد منكم بعمود
مشنقته، وهجم على الحراس
والزبانية. الزبانية يطلقون
النيران عليكم، وأنتم

تضحكون وتهجمون وراءهم، لم
تصابوا بأذى. إنهم يهربون
أمامكم. سكان دمشق
استيقظوا. تطلعوا إلى
المعركة الدائرة من خلال
النوافذ والأبواب ومن على
أسطحة المنازل متعجبين
فرحين. ساكن القصر الجهوري
يضغط على زر أحمر. صوت بوق
ضخم ينطلق مزمجراً في الأفق.
استجابت لصوت البوق عشرات
من المخلوقات العجيبة،
رؤوسها رؤوس بشر وأجسامها
أجسام وحوش ذئاب ثعالب
حيات جرذان جراد... ركضت
وراء ساكن القصر بعد أن تخلى
عن قصره وتوجه نحو البحر..

رواية > خطوات في الليل(9)

خطوات في الليل(9)



محمد الحسناوي*
shasansh@hotmail.com

النهار الرابع والعشرون

السبت 28 حزيران 1980

ظهيرة هذا اليوم استطاع حسان أن يعي جيداً أنه الآن في زنزانة جديدة، وأن معه في الغرفة شريكاً، ولم يعد وحيداً كما كان في الزنزانة السابقة رقم "10". إنه بالتأكيد الآن في الزنزانة رقم " 8". عن يساره يتمدد سليم شعيب، وبينهما علبة مناديل ورق (كلينكس)، وفي أكثر من مكان أوراق منها ممزقة أو مبعثرة، وهي في الأقل علامات فارقة لا توجد في الزنزانة السابقة.. إنه يشعر بصحو حقيقي، ويذكر أنه كان في جلسة تحقيق البارحة، وأنه تبادل الحديث مع شريك الغرفة، كما تناولا طعام الإفطار معاً، ثم استأنفا النوم أيضاً.

هذه الزنزانة لا تختلف عن تلك بشيء. الباب الحديدي الأصم. النافذة الخلفية العالية المدورة، المحصنة بقضبان حديدية متصالبة. الجدران المطلية بدهان أصفر مشوبة ببعض كتابات محفورة، بعضها مطموس بالدهان وبعضها جديد لم يطمس بعد. خطوط البلاط المستقيمة المتوازية. الفراش الإسفنجي. الأغطية (حرامات) عسكرية. تطلعات الحارس من خلال

النافذة المخصصة في الباب هي هي... رائحة الغرفة ومناديل الورق تحمل آثار عابد الشامي. أين ذهب عابد الشامي، لماذا جيء بحسان إلى هنا؟

إن تبديل الزنزانة أثار في حسان مشاعر عدة، لعل أهمها تجدد الإحساس بحركة الزمن، والإحساس بحركة الزمن جعله يستطيل المدة التي انقضت، ويخاف من المدة المفتوحة التي لا يعلم متى تنتهي مستقبلاً. والحقيقة أن إحساسه بحركة الزمن مزيج معقد من المشاعر والإحساسات، فهو مثلاً متضايق من تطاول الزمن في السجن، لكنه مسرور لأنه لم يسلم إلى سلطات بلاده، برغم تطاول الزمن، بل إن هذا التطاول يوحي بعدم التسليم. لكن إلى متى؟ هذا هو السؤال الملح. سجن رتيب. زنزانات متشابهة. جدران محكمة متقاربة صماء. أبواب حديدية محكمة. هواء فاسد. شمس شحيحة. حراس يقظون. دورات مياه مقننة. محققون. محققون. محققون.

لم يشأ أن يستهلك يقظته الذهنية بالهموم. تذكر أنه لم يمارس تدريباته الرياضية منذ أيام. نهض من فراشه. بدأ بالحركات (السويدية)، محاذراً أن يحدث ضجة، فيوقظ شريكه النائم. لكن سليماً أحس بالحركة، فقام وسلم على حسان، وبدأ مثله يؤدي الحركات السويدية. بعد ربع ساعة فرغا من الرياضة الصباحية، وشرعا بإعادة ترتيب الفراش والأغطية. ثم جلسا متقابلين يبتسمان.

قال حسان:

– أنا سعيد بانتقالي إلى غرفتك.

أجاب سليم:

– وأنا سعيد، وإن كانت ليست غرفتي. أنا انتقلت إليها قبلك بساعات.

– أقصد أنا سعيد لوجودي معك.

لا شك أن حسان يجد في الانتقال من السجن الانفرادي إلى سجن فيه صاحب أو شريك. شكلاً من التجديد يروح فيه عن نفسه، ويتصل فيه مع غيره، ولو كان اتصالاً محدوداً ضمن الجدار، وإن كان هذا الاتصال محفوفاً بالمخاطر، مخاطر أمنية وغير أمنية، وعلى كل حال إنه واقع ليس بوسعه تبديله، فليفد منه ما أمكنه.

أجابه سليم:

– وأنا كذلك، وخصوصاً أنك والد صديقي العزيز مجاهد.

– إلى هذا الحد تعمقت بينكما الصداقة؟

– وأكثر.

– إن ذلك يزيدني غبطة وسروراً.

– أهلاً وسهلاً.

قال حسان ممازحاً:

– ها قد عدت ترحب بي كأن الغرفة غرفتك.

فأجاب سليم على نفس الموجة:

– كانت غرفتي فأصبحت غرفتك (ضحكا معا.)

– شكراً. شكراً.

– هل هناك سبب لتبديل غرفنا في رأيك؟

– لا يخلو الأمر من سبب، وإن كانت بعض التصرفات توحي بعدم وجود سبب.

– مثلاً وجود مجلد من كتاب (في ظلال القرآن) في عدد من الغرف التي دخلتها.

– ومثلاً وجود نسخة من الماركسية اللينينية في هذه الغرفة.

(ضحكا معاً.)

– أظنك لا تسخر مني؟

– لا حاجة بنا للسخرية. فنحن مثقلان بالهموم.

– هل لك أولاد غير مجاهد؟

– عندي بنت وصبي، وهما أصغر من مجاهد.

– أنا سمعت باسمك من قبل.

– شكراً. من مجاهد؟

– لا. لا. قبل. قبل.

– في المجلات الأدبية؟

ابتسم سليم. اتكأ بكوعه الأيمن على وسادته:

– أظن ذلك أنت تكتب في الصحف والمجلات؟

– إنني أتابع معظم المجلات الأدبية والفكرية والسياسية التي تصدر في المشرق العربي وغيرها من شمال إفريقيا والعالم الإسلامي.

– أنا خريج كلية العلوم الاقتصادية. متفرغ للعمل الحزبي. أحب المطالعة والحوار الفكري.

– هل تتابع مجلة (الطليعة) المصرية؟

– نعم.

– ومجلة (الطريق) اللبنانية؟

– نعم.

– هل اطلعت على الكتاب الذي صدر في دمشق، ويتحدث عن الخلاف الداخلي ضمن الحزب الشيوعي السوري؟

– نعم.

– أنا ما أشك في إطلاعك على هذه الأمور، لكن

أحببت أن أحيطك علماً بأنني أتابع هذه المجلات والكتب وأمثالها، وحتى النشرات الداخلية للأحزاب مثل الحزب الشيوعي السوري.

مسح سليم شعره المشعث، خلل أصابعه فيه يحاول تمشيطه بالتمسيد. ابتسم.

– أحكي لك تجربتي مع الإيمان بالله...

اتكأ حسان على كوعه الأيسر على وسادته. تمدد مثلما تمدد سليم. أطل الحارس الرشيق الأسمر من كوة الباب. نظر إليهما نظرة توحي بأن صوتهما مسموع في الممر. أشار له حسان بأنهما سوف يخفضان الصوت. انصرف الحارس.

– أنا من أسرة فلسطينية فقيرة. والدي عامل بائس، يكسب رزقه في الفلاحة والزراعة أحياناً، وفي خدمة الفنادق والمسافرين أحياناً أخرى. أمي على قيد الحياة. ضعيفة البنية. لا تستطيع العمل الدائم في بيوت الأغنياء. نحن سبعة أخوة وأخوات، أنا أكبرهم. أعمل منذ صغري ماسح أحذية أو بائع أوراق يا نصيب أو خادماً لأسهم في نفقات الأسرة... وبالتحديد في الطعام المحدود والدواء غير المحدود وإيجار البيت، أما الألبسة ونفقات المدرسة فحدث ولا حرج.

– كان الله في عونكم.

– لم يكن الله في عوننا. في إحدى ليالي الصيف الرائقة استيقظت بعد منتصف الليل، لم أشعر بجوع أو بعطش كالعادة. نظرت إلى السماء وجدت سوادها صافياً بلورياً ونجومها تتلامع بنعومة. النسيم عذب يمحو وطأة الحرارة بلمسات لطيفة متتابعة، كأنه يداعب الكون والأحياء والأشياء، فيحدث أغصان

الأشجار، ويهمس في آذان النائمين. نهضت من فراشي. تجولت في باحة الدار الصغيرة. رأيت أمي وإخوتي يغطون في نوم عميق بلا فرش ولا أغطية. يبدو عليهم الارتياح، وإن كانوا مبعثرين يميناً وشمالاً. بعضهم نائم على ظهره وآخر على جنبه، والآخرون على وجوههم. دخلت الغرفة المحسوبة مطبخاً لا لهدف. خرجت منها. وجدتني في وسط الباحة أسأل نفسي: أين الله؟ أجبت نفسي: لا يوجد إله.

– هكذا ببساطة؟ (قال ذلك حسان وهو مفاجأ بصدمة).

– نعم بكل بساطة.

– هكذا بشكل مفاجئ، وبلا مقدمات؟ (يريد التأكد مما سمع)

– نعم بشكل مفاجئ، وبلا مقدمات.

– غريب!

– وأنا الآن أشعر هذا الشعور الواضح المطمئن الواثق.

لقد فوجئ حسان بمثل هذا الحديث. كان يتوقع أن يسمع من شريك الزنزانة أن يحدثه عن المقاومة الفلسطينية في الأرض المحتلة، عن الغزو السوري للأراضي اللبنانية، عن ممارسات قوات الردع في لبنان، عن مجازر صيدا وتل الزعتر والكرنتينا وجسر الباشا، عن مواقف الدول العربية والإسلامية والقوى الدولية من المقاومة والقضية الفلسطينية، عن قصة اعتقاله هو بالذات، عن القضايا الساخنة هنا وهناك، أن يسأله عن أحداث سورية، عن اعتقال حسان وابنه وغيرهما. أن يتحدث عن الاستعمار والامبريالية

والديالكيتك والتفسير المادي للتاريخ. التفسير العربي للمادية التاريخية والأممية والاشتراكية والشوفينية.

لم يظهر على ملامح سليم أنه يريد استفزازاً لحسان أو اصطناع معركة كلامية معه، إنه يتكلم جاداً. يسرد واقعاً سرداً محايداً ولو في الظاهر. تابع سليم كلامه:

– جاهرت برأيي منذ ذلك اليوم تحديت المشايخ والعلماء. لم يستطع أحد زحزحة قناعتي.

تذكر حسان أنواعاً من الشيوخ المحسوبين على العلم والعلماء. بعضهم جهلة أدعياء. بعضهم الآخر لا يجيد الحوار أو النقاش فضلاً عن الإقناع. لجهل بنفوس الناس المخاطبين وسوء ظن بهم، أو لضيق صدرهم أو أفقهم. كانت لهجة سليم كافية للإيحاء بأنه لا يكذب أو يبالغ. هل هو ممثل بارع؟ هل سبق له أن روى هذه الواقعة، فتفنن في حكايتها حتى أتقن الدور؟

– كنت أضحك حين يقال لي: أنت كافر، ملحد، ابتعد عنا. اغرب عن وجهنا.

(كاد الفقر يكون كفراً) قال حسان في نفسه، لكنه لا يتوقع أن يكون الفقر هو السبب الوحيد في إلحاد هذا الإنسان الكادح. إنه إنسان فلسطيني عربي مسلم، وهذه مؤشرات إلى تعدد العوامل وتفاعلها في قضيته. إن أهم درس تعلمه حسان في حياته الثقافية ألا يأخذ بالتفسير الأحادي للإنسان أو للتاريخ، قد يكون أحد العوامل أقوى وأشد من غيره من العوامل، لكنه لا يتفرد دوماً أو غالباً في التأثير، ولو كان ذاك العامل مادياً. هذا بالنسبة إلى الناس كل الناس،

وتبقى خصوصيات للإنسان الفرد، وللإنسان المثقف بشكل خاص. لا يقبل من سليم أن يدعي انتصار قناعته الإلحادية لعجز الشيوخ عن إفحامه إن صحت دعواه. فهناك الكتب والمؤلفات التي تعالج قضايا الإيمان والإلحاد بشكل أفضل من الجدال الذي قد تتدخل فيه عوامل شخصية تعرقل موضوعية النقاش. ثم إن قدرات سليم العقلية والثقافية مطالبة بمتابعة الشوط، بتمحيص القضية وتخليصها من الشوائب والمؤثرات غير الموضوعية، فالوصول إلى حقيقة الإيمان الذي وصل إليه كبار العلماء في كل زمان ومكان. انتبه حسان إلى أن سليماً قد سكت. قال حسان:

– ماذا تتوقع أن أقول لك؟

– لا أتوقع أن تفعل كما فعل الآخرون.

– لماذا؟ لأن جدران السجن لا تسمح لك بأن تبعد عني أو تغرب عن وجهي.

– ربما. (يضحك سليم بهدوء مازحاً).

قال حسان بهدوء واضح، وبلهجة متوددة.

– اسمح لي أن أقول لك أولاً: إن تحولك عن الإيمان بالله لم يكن هكذا مفاجئاً ببساطة وبلا مقدمات.

– ألم أشرح لك الواقعة حرفياً؟

– وأنا سأشرح لك وأوضح الواقعة نفسها أيضاً. اسمح لي أن أقول لك: حتى في التفسير المادي لا توجد طفرة أو وجود من عدم. هناك في الأقل تغير نوعي نتيجة تراكم كمي، وهو ما يعبر عنه بالطفرة. فتراكم ظروف حرارية وغيرها على الخلية الأولى للحياة جعلها –في رأي أصحاب التفسير– تتحول

بطفرة إلى خلية معقدة، وهكذا تتراكم ظروف أخرى، فتشتد تعقيداً، وتظهر حيوانات دنيا، فأعلى، فأعلى، حتى ظهر الإنسان.

– هذا صحيح.

– هل تعلم أن هذا التفسير الذي سوف أقبل به بالنسبة إلى قضيتك قد تراجعت عنه المؤسسات العلمية في الاتحاد السوفياتي؟

– لا أعلم، ولا أصدق.

– ألم تسمع بأن التجارب على تطبيع القمح في ضوء هذه النظرية قد باءت بالإخفاق؟

– لم أسمع.

– طيب. دعنا من الأمثلة الجانبية، لنخش في الموضوع الأساسي.

– خش.

– هل قرأت شيئاً لـ "روجيه غارودي"؟

– لم أقرأ.

– يكفي أن أقول لك الآن: إن تجربته مناقضة لتجربتك، وجدير بمثلك أن يطلع عليها، ويعرضها على مرآة نفسه.

– ألم يكن عضواً في قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي مدة طويلة؟

– عشرين سنة.

– سمعت عنه.

– إنه لم يتحول عن الاشتراكية، لكنه تحول إلى الإيمان بالله، وأتوقع أن يتحول إلى الإسلام.

سمع في الممر صوت استلام الطعام للغداء. فرش الشريكان قطعة النايلون. جهزا الكوبين

البلاستيكيين للشاي والآخرين للماء. فتح الباب. سلم الطعام لكل منهما: صحن رز مع ملوخية. صحن (سلطة). خبز (صمون). حبات عنب. شاي. شرعا بتناول الطعام. لم يتوقفا عن الحديث، بل نسيا الاهتمام بالطعام.

– كنت تحدثني عن روجيه غارودي.

– نعم من باب المقارنة لا التشبيه، لأن لكل منكما خصوصية برغم وجود نقاط تشابه. أنت عانيت من الفقر المدقع والاضطهاد الطبقي، ومازلت تعاني الشيء الكثير في دائرتك الشخصية والأسرية. أنت لا تتألم لما ينزل بك وحدك، بل تتألم لأخوتك لأمك ولأبيك، وربما لأقاربك إن لم أقل للمجموعات البشرية الفقيرة مثلك داخل بلدك وخارجه والعالم أجمع، بحسب وعيك وإطلاعك وثقافتك أنت لا تتألم الألم العضوي (الفيزيولوجي) بسبب الجوع والمرض والحر والبرد والتعب وحسب! بل تعاني من آلام أخرى مركبة وممتزجة بهذا الألم. كالألم النفسي (السيكولوجي) والألم الاجتماعي، إن لم نضف إلى ذلك الألم السياسي. أنت مثلاً مقهور مهزوم محاصر، وفي الوقت نفسه متهم مطارد، مطلوب استنزافك أو التخلص منك: فرداً أو ضمن جماعة، هذا إذا كنت مجرد فقير عادي، فكيف إذا كنت نقابياً أو حزبياً أو شيوعياً. هذه الآلام التي عانى منها أمثالك دعوا الله تعالى أن يرفعها عنهم. أن ينتقم له بسببها، وهو الرحمن الرحيم العادل القادر، ولم يلمسوا استجابة لدعواتهم في حياتهم أو في الحياة الدنيا، فاضطروا إلى الشك بوجود هذا الإله. إنه خلق السماوات والأرض، فهل يعجز عن إنصاف الفقراء، ووضع حد لجشع الأغنياء وظلمهم؟ يقال في

هذا السياق: إن أنبياء الله –وهم أحباؤه قد لاقوا شظف العيش، واضطهاد الظلمة والمترفين أيضاً، بل إن بعض الأنبياء والرسل قطع رأسه، أو نشر بالمنشار. إن نبينا محمد عليه السلام حصر في شعب بني هاشم زمناً، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي.

– أعرف كل هذا؟

– وأنت فلسطيني تشهد بأمِ عينك عدوان الصهاينة على أهل فلسطين جهاراً نهاراً، يغتصبون الأراضي، ويقتلون الأبرياء أصحاب الأرض الشرعيين، ويقيمون دولة، وتعترف بهم بظلمهم الدول الكبرى وهيئة الأمم المتحدة، ويعجز العرب عن استرداد حقهم أو الدفاع عن أنفسهم كلما أرادت هذه الدولة مزيداً من التوسع والاستيطان. وتخلف المسلمين في العالم لا يقل عن تخلف العرب أنفسهم. إن الله تعالى يشهد ذلك كله، ولا يظهر لمحدودي النظر أنه فعل شيئاً لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولعل أفجع مثل أن يحرق المسجد الأقصى بعد هزيمة حزيران، وهو بيت من بيوت الله المحرمة، بل هو ثالث الحرمين الذي تشد إليه الرحال كما جاء في الحديث الشريف، فأين غيرة الله تعالى على بيوته إن كان موجوداً؟! وينسى المتعجلون أن بيت الله الأول في مكة قد نصبت فيه الأوثان والأصنام، وأن الكعبة رجمت يوماً ما بالمنجنيقات، وأن الحجر الأسود قد سرق، ووضع في (مرحاض)، وأن الحجيج قد اعتدي عليهم أكثر من مرة، وذبحوا في طريق الحج أو حول الكعبة بالذات.

– أعرف هذه الأشياء أيضاً.

لم يبد على حسان الضيق من تعليقات شريكه

سليم المقتضبة، ولا مما يحسه من سلبية خلفها. إنه يتوقع ذلك كله حتى الآن، وإلى ما بعد ذلك أيضاً. تابع حديثه:

– على أثر هزيمة حرب حزيران المنكرة عام 967 نشرت مجلة "الآداب" اللبنانية استفتاء لعدد من الأدباء والمفكرين، كان منهم الأديب ميخائيل نعيمة. قال نعيمة معلقاً على هزيمة العرب ومعللاً لها: على العرب أن يبحثوا عن إله آخر غير الذي كانوا يعبدونه، فقد خذلهم ربهم في هذه الحرب.

ابتسم سليم، وقال:

– سمعت مثل هذا الكلام.

– بل لعلك تحولت عن الإيمان بالله في مثل تلك الأوقات والظروف العصيبة.

– ...

– يؤسفني أنني لا أعلم عنك وعن حياتك الشيء الكثير. كل ما أعرفه هو صحبتنا خلال هذه الساعات القليلة، وما رويته أنت عن نفسك وأنت تعلم أن مثل هذه المعلومات غير كافية للتعرف عليك وعلى أبعاد قضيتك تعرفاً علمياً موضوعياً، وإن كنت أحمل تصوراً لهذا الجيل الذي عشت فيه، وللقضايا الكبرى التي يهتم بها. وبالمناسبة إنني لست طبيباً نفسياً ولا خبيراً اجتماعياً...

– لكنك داعية سياسي.

– لا ترفع صوتك.

– الحارس بعيد.

(يضحكان).

– لا أقصد الحارس.

– تقصد المحققين طبعاً، مفهوم.

– أنا مدرس لغة عربية وبس.

– أنا خريج كلية الاقتصاد وبس.

(يضحكان) يفتح الباب. يتوقفان فجأة عن الضحك يخرجان إلى حيث الصنابير ودورات المياه حاملين الصحون والأكواب الفارغة. بعد عودتهما يقيم حسان الصلاة. يؤدي صلاة الظهر. شريكه سليم مضطجع يتأمله. أخيراً عاد حسان إلى حديثه. قال:

– إلى أين وصلنا؟

– وصلنا إلى كلام الأديب ميخائيل نعيمة.

– في الحقيقة إن كلام نعيمة –وهو أديب مفكر– يمكن أن يفهم على أكثر من وجه.

– الوجه الأول ترك العقلية الغيبية الاتكالية واعتماد العلم، والعلم وحده.

– هذا أحد الوجوه، ولعله أقلها صحة، ولا سيما أن كلام نعيمة إذا فهم حرفياً فإنه يدعو إلى عبادة جديدة ودين جديد، والعلم ليس ديناً وليست له عبادة.

– طيب الوجه الثاني؟

– هناك من يقول: إن العرب لا يعبدون إلهاً واحداً: أو أنهم لا يعبدون الله حق العبادة.

– كيف؟

– حينما عبدوا الله واحداً لا شريك له حققوا الفتوحات العسكرية والعلمية والحضارية في صدر الإسلام وفي العهود الأموية والعباسية وسواها. وحينما ضعفت في نفوسهم عقيدة التوحيد انحسرت قوتهم السياسية والعسكرية ومن ثم الحضارية.

– هذا في الماضي. أنا مثلاً أعتقد أن محمداً بطل عظيم في عصره.

– وفي الحاضر أيضاً. وفي كل زمان ومكان.

– لماذا لا ينتصر شعبه الآن في الحروب؟ لماذا هم متخلفون علمياً وحضارياً؟

– إنهم غير مسلمين حقاً. وبالتحديد لا يطبقون الإسلام، أو لا يتحاكمون إلى الإسلام.

– لم أفهم.

– هل أنت مسلم؟

قال على الفور:

– لا.

– كم يوجد مثلك بين العرب؟

– نحن الشيوعيين لسنا كل العرب ولا القليل القليل منهم.

– هذا السؤال عن الشيوعي يسهل الجواب عليه، ربما لشدة المفارقة. لكن ما رأيك بالعرب الآخرين الذين يدينون بمبادئ وأفكار تنافس الإسلام، أو تزيحه لتحل محله بشكل كامل أو جزئي، أو تشكك به، أو تحصره في نطاق ضيق، نطاق الروح لا غير؟!

– وما للدين في شؤون الحياة؟

– أي دين؟

– كل دين.

– ابتسم حسان كمن أمسك بمفتاح ضائع:

– هنا عدد من المغالطات التي يجب ألا تخفى على أمثالك.

– وضح إذا سمحت.

– إن الدين في الأصل أو الجوهر واحد. لكن ألا تتوقع

أن تكون هناك خصوصيات بين دين وآخر. لأن بعض الأديان جاء خاصاً لأقوام بأعيانهم، ولأن ديناً كالإسلام جاء للناس جميعاً.

– هذا أول اعتراف بالجانب التطوري في الأديان.

– أنت تسميه تطوراً، وهو في الحقيقة حكمة ربانية في مراعاة أحوال المخاطبين ما بعدها من حكمة.

– ثم ماذا؟

– وأنت تلاحظ أن هناك مسافة تضيق وتتسع بين تعاليم الدين وبين تطبيقه. الأنبياء مثلاً تتطابق فيهم التعليمات والممارسات، ثم الصحابة أو الحواريون، ثم يبدأ الافتراق بين الاعتقاد أو العقيدة وبين السلوك، لدرجة اقتضى الأمر إرسال الأنبياء يجددون للناس دينهم، وبمعنى آخر يصححون الانحرافات. إلى أي حد يطبق المسلمون أفراداً وجماعات وحكومات دينهم؟

– إنهم لا يستطيعون التطبيق لذلك لم يطبقوا.

– كيف استطاعوا في الماضي؟

– لأن ظروفهم كانت تسمح.

– هل يستطيع الناس اليوم أن يطبقوا الماركسية اللينينية؟

– نعم.

– لماذا لا يطبقونها؟

– بسبب الظروف.

– أي ظروف.

– عدم وعيهم بها مثلاً.

– وكذلك المسلمون عرباً وأعاجم غير واعين الوعي

الكافي بدينهم لدرجة أن بعضهم يعتنق معه أو بدلاً عنه عقائد أخرى تنافيه أو تختلف عنه بقليل أو كثير.

ثم ما رأيك بالظروف في بلدان الكتلة الاشتراكية؟

– لقد طبقت فيها الماركسية اللينينية.

– لا تخدع نفسك قل هذا الكلام لغيري. إن الشيوعية الحقيقية ما تزال حلماً. وإن تطبيق الماركسية اللينينية ذو ألوان. في كل بلد لون يكاد يكون خاصاً به، وهي في الاتحاد السوفيتي في تراجع.

– ثم تأمل أن يطبق الإسلام الذي مضى عليه أربعة عشر قرناً؟

– لو درس العربي أو المسلم الإسلام قبل دراسة المبادئ والمذاهب الأخرى ولا أقول الأجنبية، بل مثل دراستها لما قال مثل ما قلت.

– هات درسني.

ابتسم حسان. سكت قليلاً يريد تحويل لهجة الحوار إلى الهدوء والوداد:

– أنت أكبر من أن أعطيك دروساً. لكني أكتفي بالعرض أمام ناظريك وأنت حرٌّ في القبول والرفض.

– شكراً على كل حال. لا أكتمك أنني حريص على معرفة النظام الاقتصادي في الإسلام، وأريد أن أفهم علاقة الإسلام بالسياسة.

– النظام الاقتصادي لا خبرة لي فيه تذكر، وإن كنت أشير إلى من كتبوا فيه، أما النظام السياسي وعلاقته بالإسلام، فبوسعي الإسهام فيه على قدر ما

تعينني ذاكرتي وظروف هذه الجدران العارية المغلقة الصماء.

– من قال إنها صماء. (مد سليم يده اليسرى إلى أسفل الجدار ودق ثلاث دقات بقبضة يده. سمع جواب لهذه الدقات الثلاث بدقات أخرى)

(ضحك الشريكان) قال حسان:

– من الظلال السود المسحوبة على الإسلام والمسلمين –باسم الدين – ما قامت به الكنيسة ورجالها في أوروبا من محاربة للعلم والعلماء، ومن مصادرة للعقل وحرية الرأي، فكان عقاب الكنيسة والدين الإفلاس هناك، والأخذ بالعلمانية في الاجتماع والسياسة والعلم وما شاكل ذلك إن الإسلام لا يحارب العلم والعلماء كما فعلت الكنيسة. بل إن عصور ازدهاره هي عصور ازدهار العلم والعلماء في بلادنا وفي بلاد الآخرين، فالجاهلية هي قبل الإسلام. أما الحضارات الأموية والعباسية والأندلسية فضلاً عن حضارات هندية وفارسية وآسيوية، فقد كانت بفضل الإسلام. فلماذا يؤخذ الإسلام بجريرة غيره. ثم ما الذي حرك شعوب آسية وإفريقية في حركاتها التحررية ضد الاستعمار القديم والحديث من الجزائر وأندونيسيا؟ إنه الإسلام. إنهم الشيوخ والعلماء. عبد القادر الجزائري. عبد الكريم الخطابي. ادريس السنوسي – عبد الحميد بن باديس – الشيخ شامل – سليمان الحلبي – عبد الرحمن الكواكبي –عز الدين القسام..

– إن دور هؤلاء معروف، لكنهم ذهبوا ولم يهزموا التخلف.

– إن التخلف ليس في وسائل الإنتاج وحدها. بل هو

في نفس الإنسان وعقله، هو في عالم الأفكار، وليس في عالم الأشياء. حينما انهزمت ألمانيا في حربين عالميتين تحطم اقتصادها وتهدمت مصانعها ومعاملها وطرق مواصلاتها ومنشآتها، لكن أدمغة رجالها لم تتحطم، لذلك استطاعت أن تستأنف نشاطها وحياتها، وتعود واحدة من الدول البارزة التي تقرض الدول الكبرى أموالاً وعلوماً تكنولوجية.

– ما علاقة ذلك بالإسلام والمسلمين؟

– إنه يوضح حقيقة التخلف: الانهزام النفسي. الانبهار بعالم الأشياء عند الآخرين. التقليد. استيراد الأفكار والمبادئ مع استيراد الأشياء، كالاعتقاد بأن ترك الدين هناك حقق النهضة فيجب تركه هنا أيضاً. ألا ترى أن هناك خلطاً بين تعريف المدنية والحضارة. لا يخفى عليك مثلاً أن بلالاً العبد الحبشي الأسود الذي اعتلى الكعبة ليؤذن أشد تحضراً من الأمريكان الذين قتلوا الهنود الحمر واضطهدوا الزنوج.

– دعنا من الماضي إذا سمحت.

– حتى اليوم وبرغم الغياب للإسلام ما يزال المسلمون يصلون سوداً وبيضاً وسمراً وصفراً حول الكعبة وفي كل مكان وعلى قدم المساواة. أليس هذا تحضراً؟ صحيح أن الأفكار التي تتجسد بدول كبرى مثل الاتحاد السوفيتي وأمريكا والصين الشعبية يكون لها تأثيرها وسحرها، لكن ذلك لا يعفي المفكرين من فحصها وتمحيصها. وبالمناسبة إذا كنت أنتقد الماركسية فإنني لا أنكر مواقف الاتحاد السوفيتي في نصرة الشعوب المستضعفة، أو في

كسر احتكار السلاح الغربي، أو في قضية فلسطين، وهذا غير استعماره لعدد من الشعوب والأوطان الإسلامية.

– نحن الشيوعيين العرب لا نقلد الاتحاد السوفيتي تقليداً حرفياً.

– لكنكم تجهلون الإسلام أكثر بكثير من معرفتكم بالإسلام.

– لا أكتمك أنني صممت على التعمق في دراسة الإسلام، لكن على الإسلام نفسه أن يفرض وجوده.

– بالسلاح. بالعسكر!!

– كما فرض نفسه أول مرة. بالحجة والإقناع. بالتطبيق الحي. ولا أكتمك أيضاً أن الوجود الحي والتطبيق أقوى من الحوار والنقاش والجدال. فأنا مثلاً متأثر بابنك مجاهد أكثر من تأثري بك، وإن تأثري بشخصيكما أكثر من تأثري بنقاشيكما. وقس على ذلك أنتما أكثر تأثيراً من المسلمين العاديين، وأنتما في سجنكما أشد تأثيراً من أمثالكما خارج السجن. إن شهداءكم ومقاتليكم في ساحة المعركة أكثر فاعلية وتأثيراً منكما أيضاً. قد تقول: هذه مبالغات، لكنه الواقع. صدقني، وهذه لغة الواقع، وأظنكم تفهمونها كما أفهمها، أنا ويفهمها كل الناس.

النهار الحادي والثلاثون

السبت 5 تموز 1980

بعد مضي شهر من الاعتقال قدر حسان أن مدة سجنه غير معلومة، وأن من الخير له أن يفيد من فراغه، فقرر تثبيت حفظه من القرآن الكريم أولاً، ثم

أن يشرع بحفظ القرآن كله ثانياً.

إن شريكه في الغرفة قد شغله إلى حد ما عن التأمل، والخلوة إلى الله تعالى بالدعاء والتبتل والعبادة النافلة، لكن الوقت لم يذهب سدى. كانت هناك ساعات من الوداد والتفاهم لم تعكرها المناقشات، وكان هناك تبادل في المعلومات والذكريات، واشتراك في تلاوة القرآن الكريم بين الحين والآخر.

خطر لحسان أن يستعين بشريكه في تثبيت ما حفظه من القرآن. فرح لهذا الخاطر، ففاتحه به، فرحب سليم بالفكرة.

قال سليم وهو جالس قبالة حسان وقت الضحى:

– كم تحفظ من القرآن؟

– أحفظ جزء (عم..) وهو الجزء الثلاثون والأخير، كما أحفظ سوراً متفرقة، وآيات متفرقة.

– أي السور تحفظ مثلاً؟

– سورة الكهف. البروج. الواقعة. ق. الملك.

– هل هناك سبب لاختيارك حفظ هذه السور؟

– نعم هناك أسباب ومناسبات وذكريات. فحفظ جزء (عم) يرجع بعضه لأن سوره قصيرة، يسهل تلاوتها في الصلاة وفي الأدعية كالفاتحة والمعوذتين والإخلاص، وهي سورة تعدل ثلث القرآن على صغرها. ثم إن هذا الجزء مطلوب حفظه ضمن المنهاج الجامعي في كلية الآداب قسم اللغة العربية الصف الثاني.

– وسورة الكهف؟

– قرأت في شبابي تفسيراً أو دراسة لهذه السورة كتبه الأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي من

الهند، فأعجبني حسن استنباطه وفهمه للعدد من نواحي الجمال في هذه السورة. فقد ربط بين القصص الأربع التي تتضمنها بهدف واحد. قصة أهل الكهف، وقصة صاحب الجنتين وقصة موسى مع الرجل الصالح، وقصة ذي القرنين. وهي من السور التي أوصى الرسول عليه السلام بقراءتها أو قراءة قسم منها صباح يوم الجمعة، لفضلها، وللتعوذ من فتنة الدجال، زد على ذلك الإيقاع الموسيقي الساحر لفواصل آياتها الممدودة بألف الإطلاق.

– والسور الأخرى؟

– هناك سور هي جزء من منهاج التنظيم الإسلامي.

– لا تقل: أنا غير منظم إذن.

– نحن نتحدث عن منهاج.

– نعم.

– أذكر أن أول سورة حفظتها في التنظيم كانت (سورة البروج): والسماء ذات البروج. واليوم الموعود. وشاهدٍ ومشهود. قُتل أصحابُ الأخدود... سبب اختيار المنهج لها أنها تشير إلى قصة أصحاب الأخدود، شهداء العقيدة، وهم قوم آمنوا بدين الغلام الذي آمن على يدي راهب نصراني في عهد اضطهاد ذي نواس اليهودي للنصارى في اليمن. لقد حكم الملك الطاغية بقتل الراهب، وبأن ينشر بالمنشار وزيره الذي آمن ليرتد عن دينه فلم يرتد، وقد وقع جسمه شقين على الأرض، كما عجز الملك عن قتل الغلام في ثلاث محاولات طريفة حتى قال الغلام له: أنت لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من

كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارم. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام... ولم يرتدوا عن إيمانهم برغم إحراقهم في النار.

– الهدف واضح من تدريسكم مثل هذه السورة.

– مثل ذلك ختام سورة (آل عمران): "لتبلوُنّ في أموالكم وأنفسكم ولتسمعُنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً. وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور. وإذ أخذَ اللهُ ميثاقَ الذين أوتوا الكتابَ لتبيننُّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون..."

– أيضاً الابتلاء والتعرض للمحن والاضطهاد من المبادئ الأولى في النضال.

– الآن تحضرني أمسية صيفية رائقة قضيتها مع إخواني على سطح من سطوح بيتنا المسور بالقرميد الأبيض، تظلله دالية عنب (سباعية) وارفة، وتصطف على أسفل السور تنكات الزهر والورد: ياسمين ينفح، ورد يضوع. عطرية مخملية تميس. كما تحضرني توكيدات العريف على نطق كلمتين (لتبلون) (لتبيننه). كان حرصه على ضبط النطق شديداً وفي محله. لهجته من دير الزور، وأنا ناجح في الشهادة الإعدادية (الكفاءة) مغرور بتحصيلي العلمي واللغوي. رأيت أنه طلب مني التكرار أكثر من اللازم. ولم يوضح

لي الخطأ من نطقي. كان العريف طويلاً نحيلاً أسمر البشرة حيياً. لعله أصبح اليوم طبيباً مشهوراً. درس في أوروبا ولم يتغير. عاد إلى الوطن، ولم يتزحزح عن العقيدة. في تلك الأثناء كانت محنة التنظيم الإسلامي في مصر (في الخمسينات) قد بدأت. فكنا ندرس آيات المحنة والابتلاء في القرآن، ونتخيلها قديماً في اليمن وحديثاً في مصر. أما أن تقع فينا نحن فكان أمراً يقبله العقل وترفض تصوره النفس بالمنطق العاطفي.

فتح باب الزنزانة. أطل الحارس اللطيف. نادى سليماً: غابا. بعد قليل عاد سليم وهو يقول:

– طلبوني للتحقيق بالغلط المطلوب غيري.

– أرجو أن لا أكون المطلوب.

– ما أظن. هل تعلم أنني مهتم بذكرياتك عن حفظك السابق لسور القرآن. هات حدثني.

– أحكي لك إذن عن ذكرياتي وسورة (الحجرات): تحضرني الآن الصورة التي تخيلتها لأعرابي فظ نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات: يا محمد اخرج. يا محمد اخرج. بغير قرع على الباب ولا استئذان. بل بصوت مرتفع وبإلحاح واستعجال "إن الذين ينادوك من وراء الحجرات أكثرُهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم." .والصورة الثانية هي قصة الرجل الذي أرسله الرسول عليه السلام إلى قوم ليجمع منهم الزكاة (الضريبة على المال)، فلما اقترب من ديارهم خاف منهم، وعاد إلى الرسول، وهو يتهمهم كاذباً بأنهم منعوه من الزكاة، وكادت تقع فتنة لولا أن

تبين المسلمون من حقيقة الأمر، وظهرت براءة المتهمين، فقال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبينوا أن تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتم نادمين."

– بالمناسبة هل تكفي الزكاة لتمويل الدولة؟

– لعلك لاحظت أولاً علاقة الدين بالدولة في الإسلام. ثانياً في عدد من الأوقات الماضية كانت الزكاة كافية وفائضة لا يقبضها مستحقوها.

– مثل أي وقت؟

– في عهد عمر بن عبد العزيز.

– في عصرنا هذا لا تكفي في رأيي.

– هناك موارد أخرى للمال. وفي حالات الضرورة القصوى كالحرب، يحق للدولة مصادرة الأموال الخاصة للمصلحة العامة. هل سمعت بقصة الفقيه العالم العز بن عبد السلام الذي أجبر المماليك على بيع الزينات الذهبية والفضية التي يزينون بها خيولهم، كما باع المماليك أنفسهم لحساب بيت مال المسلمين قبل أن يفتي لهم بمصادرة أموال الأغنياء وتوظيفها للحرب. فقيه يبيع أميراً، بل أمراء. هل تصدق؟ هل جرى مثل ذلك عند أمة من الأمم غيرنا؟ متى جرى ذلك؟ جرى في المرحلة التي جرت العادة على تسميتها بعصور الانحطاط في تاريخنا!!

– عندك اطلاع جيد على الماضي.

– وأنت إطلاعك جيد على الحاضر.

– عفواً.

– ما زلنا في سورة (الحجرات). في هذه السورة عدة أحكام وآداب لن أطيل الوقوف عليها برغم أهميتها

مثل: حقيقة الإيمان. تعريف الأخوة. التأدب مع الرسول عليه السلام في الخطاب والكلام. فض الخصومات بين المسلمين. عدم الشقاق واجتناب أسبابه من سخرية وغيبة وظن وتنابز بالألقاب. هل تعلم أن في هذه السورة آية كانت سبباً مهماً من أسباب تحولي عن الإعجاب بالشيوعية وأمميتها.

– ما هي؟

– قال الله تعالى: "يا أيها الناس. إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم."

– إنها الآية التي تسوي بين الشعوب كافة، وهي التي رفعتها الشعوب المستضعفة شعاراً في أواخر العهد الأموي، فسميت بالشعوبية.

– قولك إنها مستضعفة، وسبب تسميتها بالشعوبية أمور تحتاج إلى توضيح وتدقيق.

– هل تنكر الوقائع؟

– أنكر المبالغات وطريقة التفسير، كما أنكر العلاج. هل ترى مثلاً في حركات المانوية والمزدكية ضد الخلافة العباسية ثورات تحررية؟

– ما رأيك بنكبة البرامكة ومقتل أبي مسلم الخراساني وأمثاله؟

– وأنا أقول: ما رأيك بنكبة الأمويين وبمقتل الحسين رضي الله عنه؟ الحل هو العودة إلى الأصل (الإسلام) وإلى عدله وإنصافه ومؤاخاته بين المؤمنين وتسويته بين الناس بين الشعوب، ولا تمييز إلا بالعمل، بالعمل الفاضل، العمل الصالح.

– نعود إلى حديث الذكريات، ألا تراها أمتع من

الأفكار؟

– ما دمنا بحاجة إلى الاستمتاع، فليكن. ذكرياتي عن حفظ السورة (الواقعة.) إنني وجدت زوجتي وابنتي الحبيبة قد سبقتاني إلى حفظها، وأنا المختص بعلوم القرآن. وتذكرت إعجاب الأمهات والمعلمات بابنتي الصغيرة، وهي تتلو لهن هذه السورة غير القصيرة. يا سليم، ليس أمتع من أن تكون في جو إسلامي، في أسرة إسلامية متحابة، تتواصى على حفظ القرآن وتلاوته والعمل به. طفلة لا يزيد عمرها على عشر سنوات فقط تحفظ مثل حفظك أو تنافسك في الحفظ! آه كم أنا مشوق إليك يا ميساء، يا فلة.

– أختي في مثل سنها، لم تكن تحفظ غير سورة الفاتحة، إنها مشغولة مثل أمها وأخواتها بخدمة الآخرين طلباً للعيش.

– هذا ظلم آخر للأطفال، أن يعملوا في سن مبكر، وأن يحرموا من اللعب والعلم. ما اسم أختك؟

– فاطمة.

– إنه اسم والدتي، رحمها الله، وهي مثل أختك في الحفظ

– ومستوى العيش؟

– ليست طفولتها بأحسن حالاً من أخواتك مات أبوها وهي طفلة. تزوجت وهي طفلة. توفي زوجها الأول، وهو عريس في شهوره الأولى من زواجه. توفي قتلاً على يد قاطع طريق. شهدت أبي يتزوج عليها زوجة أولى وزوجة ثانية. توفيت في بيتي بسرطان الكبد. رحمها الله.

– كم بنتاً عندك؟

– واحدة وولدان.

– ابنك مجاهد يحبك.

– هذا أمر طبيعي، وأنا أحبه.

– هل تميز في محبتك بين أولادك؟

– أنا لا أميز في المعاملة. كلهم أولادي، أحبهم حباً عظيماً. قد يكون الصغير له ميزة بسبب صغره، هذا شيء آخر أيضاً من سنة الله في خلقه: حب الصغار والعطف عليهم سواء أكانوا أولادك أم أولاد غيرك حتى صغار المخلوقات. وبالمناسبة حين ولدت ابنتي ميساء شعرت بحب خاص بها منذ الساعات الأولى لولادتها، هل هو رد فعل على الذين يفضلون الذكور على الإناث؟ هل هو جمالها؟ ما أدري. وقد زاد حبي لها كلما درجت وكبرت، أحفظ لها ذكريات عذبة عن طفولتها. عام 970 كنا منتقلين حديثاً إلى بيت جديد، كانت وليدة تدرج بين علب الكرتون الضخمة، وهي ترتدي ثوباً أحمر مطبوعاً عليه أوراد صفر، وفي شعرها شريط مضرج بالأحمر والأصفر مثل ثوبها الطفلي، وشعرها أشقر على صهبة محببة، وتلثغ بلسان لا يكاد يبين مشيرة إلى بيتنا السابق: (بيتنا بوء.. بــ..و...ء) تعني أن بيتنا بعيداً جداً (فوق). أتذكرها في سن أصغر، ونحن نغسل رجليها البضتين صيفاً في مجرى ماء صاف على طريق بيروت. أذكر في رحلة أخرى إلى بيروت أننا حجزنا في القطار مقعدين متقابلين، وجعلنا عربة ميساء حين نومها بين المقعدين تحت أرجلنا الممدودة. في تلك الرحلة، وحينما كنا نتناول الغداء في مطعم شعبي على

شاطئ (الزيتونة) اسمه (مطعم الحاج داود). تسلقت ميساء من الكرسي على المنضدة، وجذبت صحناً من القاشاني، فوقع على الأرض فكسرته، لم يقبل صاحب المطعم أن يحاسبنا في ثمنه. كم مرة استوقفنا الآباء والأمهات في الطريق كي يداعبوا الطفلة ميساء، ويسلموا عليها بالقبلات. إن الحديث عن الذكريات الجميلة شيء والتلذذ باستعادتها شيء آخر.

– مفهوم. مفهوم. مع ذلك أشعر بمتعة كبيرة في سماع هذه الذكريات.

– هذه الطفلة الملائكية أخذتها بنفسي إلى "الروضة" مدرسة للأطفال، وهي مشوقة إليها لكثرة ما حدثناها عنها، لكني فوجئت لما سلمتها للمديرة وأدرت ظهري لها أنها لم تتوقع أن نتركها وحدها للآخرين هكذا! شعرت بطعنة في أحشائي. لم نكد نصدق انقضاء ساعات الدوام حتى تعود بسيارة الروضة حاملة سلتها المصنوعة من القش بيدها الرخصة وشرائطها الحمراء تتماوج مع النسيم. هذه الطفلة الوحيدة فارقتها ليالي متعددة حتى احتلت بيتي عناصر المخابرات، فصار الفراق ليالي وأياماً وشهوراً، ثم فوجئت معي في هذا البلد في منتصف الليل بالمداهمة العنيفة، وبمفارقتي الجديدة لها. آه أين أنت يا ميساء؟ هل سوف يأتي يوم يجتمع فيه الشمل، يوم لا يتفرق فيه الآباء والأبناء أبداً؟

– المهم أن لا نصاب باليأس. أن نحلم.

– بل الحياة، يا سليم، كلها حلم. لقد مرت شدائد وملذات كثيرة، كلها الآن صارت أحلاماً ذكريات. هذه الجلسة، هذا السجن سوف يصبح يوماً من الأيام طي

الماضي ذكرى من الذكريات بحلوه ومره. المهم العاقبة.

– أنتم لا تقلقون بالنسبة إلى النهاية.

– هذا هو المفروض، كلما زاد الإيمان زاد التوكل على الله والرضى بل التسليم بقضائه وقدره.

– أمامي خمسة عشر عاماً سجناً، ليست أكثر مرارة من السنوات التي قضيتها خارج السجن.

– الحياة بلا إيمان يا سليم جحيم لا يطاق.

– أنا مؤمن بقضية.

– أعني الإيمان بالله تعالى أولاً، ومن ثم تتسلسل وتترتب القضايا، وإلا كنت وقضيتك في فراغ هائل في عذاب رهيب.

– حتى الآن لم أشعر بما تشير إليه.

– أشك بدقة ما تقول: لماذا تلح علي بأن أحدثك أنا ولا تحدثني أنت.

– عماذا أحدثك؟ حياتي كلها مرارات، فضائح يندى لها جبين الراوي والسامع.

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

– هل أحدثك عن الزنى عن السرقة من أجل العيش، الإبقاء على رمق الحياة؟

– العفو، العفو.

– لم يكن لدي وقت لدراسة القرآن، ولا للتفكر في الله. معدة فارغة. صداع في الرأس. روماتيزم في البرد. إن تيسر وقت فللامتحانات. كل فرد من أفراد أسرتنا صغر أم كبر، ذكر أو أنثى، مطلوب منه أن يعيل نفسه أولاً، وإن استطاع أن يسند غيره فلا بأس، بصرف النظر عن الحلال والحرام، والعيب والعار.

شحب وجه حسان. خبا ألق عينيه العميقتين. على حين تهدج صوت سليم وهو يتكلم. قال حسان:

– لقد صدق من قال: عجبت لمن يصبح أو يمسي جائعاً، ثم لا يحمل السيف مقاتلاً في طلب رزقه. هل شقاؤك خارج السجن يخفف عليك آلام السجن؟

– إلى حد ما. لا شك أنني بدأت أضيق بسجني، وكلما فكرت بالسنوات التي سوف أقضيها ازداد ضيقي وقلقي، لكن مقارعة الظلم السياسي والاجتماعي تحملني على الصبر والمقاومة وقبول التحدي.

– فكيف إذا كان في سبيل الله، وعلى أمل استمرار المعركة بعد الموت إن لم يتم الانتصار قبل الموت...

– رأي... قابل للنظر. كنت أظن أن عقيدة الإيمان بالقدر تدعو إلى الكسل أو الاستسلام... أما الآن فالأمر يختلف.

أحس حسان بظل نديٍّ شفيف يخيم على الزنزانة. كما أحس بأن وجه شريكه بدأ يشرق بعد عبوس. حتى الأضلاع البارزة من خشبة صدره توارت قليلاً باستواء. تذكر حسان أنه ينوي أن يحفظ سورة (يس)، وأن هذه السورة تجيب على عدد من القضايا التي يتحاور فيها مع سليم. قال:

– يا أخ سليم لم أحدثك عن سورة مهمة سوف أحفظها. إنها سورة (يس). من خطوطها العريضة أن هناك نوعاً مهماً من الكفار الأغنياء توعدتهم السورة بالعذاب: "وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله. قال الذين كفروا للذين آمنوا: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين. ويقولون: متى هذا

الوعد إن كنتم صادقين. ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهو يخصِّمون. فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون..." وفي السورة قصة المعركة التي خاضها مرسلان من الله تعالى إلى قرية ظالمة، فكذبتهما، وتوعدتهما، وتطيرت بهما، ولم تستمع لرجل ناصح منها يريد لهم ولنفسه الخير، فعاقبها الله على ظلمها وعنادها، ونصر جنده المرسلين، وأدخل الرجل الناصح الجنة: "قيل ادخل الجنة. قال: يا ليت قومي يعلمون. بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين." وفي هذه السورة وقفات من صور ومشاهد مؤثرة حول عقيدة الإيمان بالله والبعث بعد الموت: فهناك إحياء الأرض الميتة بالماء، وإخراج الحي الذي يؤكل منها، والجنات التي تسيل من تحتها الأنهار، وتتمايل من حولها الثمار. وهناك خلق الإنسان نفسه وموته، وإعادة بعثه بعد موته، فضلاً عن جعل النار في الشجر الأخضر، وخلق السماوات والأرض والأنعام، وتسخير الشمس والقمر والبحار للاستنارة وللسفر وغير ذلك وهذا غير التصوير الأخاذ والعرض الجميل، والانتقال من حال إلى حال من حاضر إلى ماض إلى مستقبل، من عالم المشاهدة إلى عالم الغيب وبالعكس: "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون. وآيةٌ لهم الليلُ نسلخُ منه النهار فإذا هم مُظلِمون. والشمس تجري لمستقرٍ لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمرَ قدرناه منازلَ حتى عاد كالعُرجون القديم. لا الشمسُ ينبغي لها أن تدركَ القمر، ولا الليلُ سابقُ النهار، وكلٌّ في فلك يسبحون؟"

تألق وجه سليم، فقال:

– أعترف لك بأنك فتحت عيني على معان، لم أكن أتصورها في القرآن، وفي هذه السورة بالذات التي سمعتها مئات المرات، تردد في المقابر والمآتم، ويرددها أبي في الليل أحياناً وفي الشدائد. ولعله لا يحفظ غيرها. لكنني لا أكتمك بأنني لم أستوعب كل معاني الآيات، فهناك ألفاظ كالعرجون... يَخِصِّمون. تحتاج إلى شرح وتوضيح.

– وهناك آيات لا تحتاج لدى أمثالك لأي شرح، لكن للربط والتذوق ضمن سياقها:

"فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون

"إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون

"هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون

"لهم فيها فاكهة، ولهم ما يدعون.

"سلامٌ. قولاً من رب رحيم."

– اليوم لا تظلم نفس شيئاً. متى يأتي ذلك اليوم الحلم الأمل، متى، متى؟!

– إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب؟!

النهار الخامس والثلاثون

الأربعاء 9 تموز 1980

حين وصل حسان مع مرافقه الحارس الأسمر الخفيف إلى إحدى باحات السجن الجانبية، وهي فسحة عالية مكشوفة. وقال له:

– تمش ذهاباً وإياباً من هنا إلى هناك.

حينذاك صدق حسان بأنه قد منح حصة للتنفس.

منذ أيام قليلة أعيد حسان إلى زنزانته ذات الرقم

/10/ فأصبح وحيداً. حيث زاره مندوب لجنة (الصليب الأحمر)، فشكا إليه وإلى ضابط الخفر ما يحسه من إمساك في جهازه الهضمي، كما لاحظ الحراس اعتلال صحته بشكل واضح.

لم يكن يحلم حسان بمثل هذه الفرصة للتنفس. ويبدو أن جسمه أيضاً لم يكن يتوقعها. الشمس تحملق في عينيه شديدة الإضاءة. الهواء نظيف جداً، كأنه معقم ومعطر بعبير الأشجار البرية في غابات الصنوبر والشيح. الأرض نصف الترابية، بعضها محفر وبعضها مبلط قد بدت درباً ريفياً تظلله شجيرات العوسج والآس. في الحقيقة لا عوسج ولا آس، لكنما صف من بيوت الحراس، وحافة تطل على أبنية السجن الآخرى.

جلس الحارس المرافق مع زميل له في إحدى السيارات العسكرية يراقب، وفي آخر الباحة –حيث الباب الخارجي– يقف حارس آخر مسلم، أما حسان فكان يحمل نفسه حملاً على التمشي ذهاباً وإياباً. كان متعباً، وبوده أن يجلس على حافة صندوق خشبي، لكنه خشي أن يظن مرافقه بأنه شبع تنفساً، فيعيده قبل انتهاء الوقت المحدد.

خطر لحسان أن يحاول الهرب. وبرغم تسليمه باستحالة المحاولة. لم يكف عن التفكير بها:

– المشكلة الأولى هي الحارس الواقف على هذا الباب الخارجي المفتوح على الشارع العام مباشرة. إذا حللت المشكلة الأولى زالت العقبات الأخرى. أخرج إلى الشارع. أركض. أركب إحدى السيارات العابرة. أتوارى في بناية عالية أو في أزقة ضيقة. سوف ينشغلون عني

بالمفاجأة، وبتبادل التهم حول تفريطهم بالحراسة.
لكن كيف نحل المشكلة الأولى: الحارس المسلح. لا بأس أخطف منه سلاحه. أو أتسلل خفية. ليس هذا ممكناً ولا ذاك لعله حارس صديق متعاطف. هل يمكن جس نبضه. لا بأس بالاقتراب منه والسلام عليه. إنه عبوس. قوي الجسم. كلهم انضباطيون أقوياء، ألم أقل مرة للحارس الأسود الضخم:

– وظيفتكم صعبة. الله يعنيكم!

فأجاب بجد وصرامة:

– ومن يخدم الوطن غيرنا؟!

إنهم وطنيون على طريقتهم الخاصة، نظاميون لا يتيحون لك المباسطة. إنها نوع من الخيانة للوطن. ألا ترى صعوبة ذلك؟ ماذا يضر؟ فلنحاول. شيء آخر تذكرته. إن لباسي متميز لا يمكن التواري به في شوارع هذه المدينة. إنه جلابية أشبه بلباس النوم، فكيف أهرب به؟! على كل حال... المشكلة الأولى هي الحارس المسلح ببندقية رشاشة.

آه... أيها المسلحون الطيبون، أنتم هكذا في كل مكان، هل تعرفون قضيتي؟ هل تعرفون معاناتي. كيف أشرح لكم؟ أنا سجين، وأنتم سجناء أيضاً، لكنكم سجناء من نوع آخر. لا ألومكم في هذا البلد الطيب، لكني ألوم جنود بلادي الذي يسخرهم الظالم لسياساته الإرهابية، ويستعبدهم بدعاوى الوطن والوطنية. يبيع الجولان وهو وطني. يخرب لبنان وهو وطني. يقتل الفلسطينيين وهو وطني. يدمر البلاد ويحارب الإسلام والمسلمين وهو وطني أيضاً!! صحيح أنكم بدأتم تتعاطفون مع شعبكم، لكن معظمكم

ما زال مسلوب الإرادة والطاقة، فإلى متى؟!

عفواً (فيروز) ومعذرة   أجراس العودة لن تقرعْ

فالعودة يلزمها جيش   والجيش سيلزمه مدفعْ

والمدفع يلزمه كف   والكف سيلزمها إصبعْ

والإصبع لاه مشغول   في (...) الشعب له مرتعْ

قولوا لي كيف ترضون لأنفسكم أن تعترض سيارتكم سيارة طبيب شاب، ومعه زوجته الشابة، تحترشون بهما، تطلبون من الطبيب عنوان بيته التفصيلي، وتفرضون عليه زيارة غير نظيفة؟ هل ترضون هذا لأمكم أو لأختكم أو لزوجاتكم؟ لا تقولوا: هذه سياسة سرايا الدفاع والوحدات الخاصة، وليس الجيش السوري. ألم تسمعوا هذه الأخبار ألم يصبكم رذاذها ولا شظاياها؟! انتظروا إذن.

أحس حسان بالتعب الشديد. جلس على طرف الصندوق الخشبي. تذكر انه في حصة التنفس المخصصة للراحة والاستجمام. مد يده إلى دماغه وأمسك بكتلة الذكريات المؤلمة وألقى بها بعيداً. نظر إلى الفسحة التي تفصل بينه وبين الحارس المسلح، وهي تزيد على ثلاثين متراً. تعمد أن يتخيلها محفوفة بأشجار الكرز. تخيل نفسه وهو يمشي مع زوجته أصيلاً من ناحية (احسم) إلى قرية (مشّون) سيراً على الأقدام، وأشجار الكرز تظلل الطريق المعبد اللطيف من جانبيه. حتى يتعمق استمتاعه بهذه الذكرى... تخيل النزهة أولاً في فصل الربيع حيث كانت أزهار الكرز بيضاء مشرقة كالفضة المتلألئة تحت أشعة الشمس الدافئة، ثم عاد وتخيل النزهة في فصل الصيف حيث نضجت ثمار (الوشنى) والكرز، وحيث كان

القرويون والقرويات يدعونه وزوجته لزيارة كرومهم، ويهدونهما منها بين الفينة والأخرى ثماراً طيبة لذيذة. إنه وادٍ من أودية الجنة.

في زيارته الأخيرة لأحسم انكسر غصن كرز ضخم. ما الذي كسره؟ قوة العاصفة أم ثقل الحمل من الثمر الوافر عليه؟! إنه سؤال حمله معه حين اصطحب ذلك الغصن من (احسم) إلى (حلب)، وقدمه هدية للأقارب. السؤال ما زال قائماً!

آه... أنا غصن مكسور إذن! أفكاري أكبر من طاقتي. وطاقتي أضعف من أن توصل هذه الأفكار لكل الناس. يا جنود سورية ألا تحبون الكرز؟ كيف تنفذون أوامر الطغاة، وتقطعون أشجار الكرز والتين والزيتون والعنب، وتقتلون شباب جبل الزاوية؟ ألا تعلمون أن ثورة إبراهيم هنانو كان معقلها في (احسم) في جبل الزاوية بالذات؟! أم لهذا السبب أراد الطغاة ما أرادوا؟

وأنتم سجناء غفلتكم وتواكلكم!!

– انتهت حصة التنفس يا شيخ.

نزل الحارس الأسمر الخفيف من السيارة. نظر حسان إلى السماء الزرقاء وإلى الأرض المكشوفة نظرة أخيرة، وسحب نفساً طويلاً، ثم قام يتبع الحارس.

–2–

دخل حسان زنزانته ولم يزل عبير التنفس في أنفه، وطعم ثمار الكرز الحلو في فمه، لكأنه ما زال مع زوجته يداً بيد، فانطلق يترنم بأبيات أحمد شوقي، وهو يتمشى في الزنزانة ذهاباً وإياباً:

يا جارة الوادي طربتُ وعادني ما يشبهُ الأحلامَ

من ذكراكِ

مثلتُ في الذكرى هواكِ وفي الكرى   والذكرياتُ صدى السنين الحاكي

ولقد مررتُ على الرياضِ بربوةٍ   غناءَ كنتُ حيالها ألقاكِ

ضحكتْ إلي وجوهُها وعيونُها   ووجدتُ في أنفاسِها رياكِ

فوجئ بقرع الباب عليه. تطلع وإذا الحارس ذو الشوارب يحتج، يطلب منه أن يخفض صوته. انقطع حلم الكرز والزوجة والهواء الطلق.

– ألا تعلم أين أنت؟ أنت في سجن. تأدب!

كان حسان حتى تلك اللحظة مستغرقاً مع ذكرياته وأحلامه، مأخوذاً بأشعار شوقي وصوت محمد عبد الوهاب. لم يقبل أن يقطع استمتاعه نزولاً عند احتجاج الحارس. خفض صوته وراح يتابع الغناء.

لم أدر ما طيبُ العناقِ على الهوى   حتى ترفّقَ ساعدي فطواكِ

وتأودتْ أعطافُ بانِكِ في يدي   واحمرَّ من خفريهما خداكِ

ودخلتُ في ليلين فرعِكِ والدجى   ولثمتُ كالصبح المنوّرِ فاكِ

لم تنقطع دمدمات الحارس الشموس تتناهى من آخر الممر، لكن حسان زادت متعته بالتحدي والتملص من الخطر، فاستيقظت ذكريات أخرى من أعماق حسان، وغمرته بنشوة علوية. إنه الآن يتنزه للمرة الأولى مع زوجته في (عين الخضراء) من مصايف دمشق. يدخلان مقهى يطل على نهر بردى، وتظلله الأشجار الدلب

والصفصاف، ويتناثر فيه رذاذ الشلالات، فتتبلل لحية الصيف الأصهب. إنه ينتقل الآن إلى وادي (بسيمة).

يسأله صديقه علاء الدين صاحب البستان:

– هل هذه الفتاة أختك؟ فأخطبها؟

فيجيبه ضاحكاً:

– هذه زوجتي. أما تلاحظ؟

أغصان الريحان تتمايس على ضفاف النهر. تغطس تارة في الماء، وترفع رأسها مع النسيم الرخي تارة أخرى. أمواج النهر المتكسرة تحمل أوراق الأشجار وبعض الفواكه والأشياء التي تقع من المصطافين. قاع النهر تومض حجارته البيضاء بألق جذاب.

وتعطلتْ لغةُ الكلام وخاطبتْ   عينيَّ في لغة الهوى عيناكِ

لا أمس من عمرِ الزمان ولا غدٌ   جمعَ الزمانُ فكان يومَ رِضاكِ

عاد الحارس يقرع على الباب محذراً. قرر حسان أن يخوض معركة معه إذا أصر على منعه، لكن شيئاً شغل الحارس. انتقل حسان إلى بيت حميه في حلب عام 1961. إنه الآن يجلس وحيداً في (العلية) ينتظر حضور خطيبته بعد أن تم العقد. دخلت عليه لأول مرة حاسرة الرأس مكشوفة الساعدين، يزيدها الابتسام إشراقاً والسفور جمالاً. دخل معها عدد من أولاد أخيها الفتيان. ما العمل إنها زوجته بشرع الله، لكن هؤلاء الضيوف غير المرغوبين حضور وعذال. قال لها يومذاك:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت   عينيَّ في لغة الهوى عيناكِ

فضحكت، وبدت أسنانها اللؤلوية، وأخفت حياءها

واحمرار وجنتيها. ثم ظلت تذكر ذلك الشعر وتلك الجلسة طوال سنوات.

تذكر حسان أنه في السجن. تذكر أن عذاله ليسوا اليوم أطفالاً، إنهم سجون وجيوش ودول! سكت. سقط في هوة عميقة مظلمة. جلس على فراشه، يمسك رأسه بكلتا يديه، وهو مطرق. ينظر في نقطة غير محددة في أرض الغرفة العارية. أراد أن يشغل نفسه بتشبيه بلاط الزنزانة ببلاط الرصيف الذي شاهده في فرصة التنفس. لم يستطع التشاغل. قال:

– ما كان أغناني عن كل هذه الآلام؟

تنهد. تأوه. زفر زفرة طويلة. تابع:

– كان بوسعي أن انصرف للشعر، فأغدو شاعراً كبيراً. كان بوسعي أن أتابع الدراسة العليا، فأغدو مدرساً جامعياً، وعلى كل حال كان بوسعي ألا أشتغل بالسياسة العليا فأريح وأستريح. هل أنا من أهل السياسة والدهاء؟!

عود من الكبريت ألقي في أعماق حسان الملأى بالبارود والمتفجرات، فانفجر انفجاراً صاعقاً. هذا السؤال كان يداريه ويتجنبه برغم إلحاحه عليه وفرض الأحداث له: (هل أنا من أهل السياسة). إنه مسلم بأنه ليس من أهل الدهاء، فكيف يمكن أن يكون من أهل السياسة؟ ثم لماذا يقضي عمره مهدداً بالسجن أو سجيناً، وكثير من زملائه وأمثاله يسرحون ويمرحون آمنين مطمئنين؟

وضع كفه على رأسه، ضغط على القسم الخاص بأحداث عام 1945 حينما كان طفلاً في الصف الأول الابتدائي. رأى نفسه في تظاهرة أطفال يحملون

العيدان ويتجولون في شوارع المدينة، يخرجون إلى طريق اللاذقية حيث يصبح المعسكر الفرنسي بينهم وبين عمران المدينة. يلوحون يهتفون: يسقط ديغول يسقط فجأة اندلع سيل الرصاص يصم الآذان ويزغرد مزمجراً في الآفاق. تناثر الصبيان. وصل حسان الطفل فزعاً بعد جري استمر عشر دقائق، وصل إلى بيت أقاربه المواجه لمعسكر آخر للفرنسيين، وهو لا يدري. الرصاص ما زال يئز ويتفجر في كل اتجاه.

امتدت يد من خلف باب صفيق جذبت الطفل بشدة إلى الداخل. بعد استسلام الجيش الفرنسي بلغ مسامع الطفل أن جندياً وطنياً نهى جندياً زميله في الجيش الفرنسي عن تصويب النار على طفل يشبهه تماماً كان واقفاً تجاه المعسكر: ذراعاه مفتوحتان على الجدار، قبل أن تجذبه يد من وراء الباب بقوة.

– هذا أنا في الطفولة.

ضغط كفه على أحداث سبقت معركة الجلاء بمدة سنة. رأى والده يقتاده الفرنسيون ليودعوه أخيراً في سجن المية ومية بلبنان، ولا يفرجون عنه إلا بعد تسعة شهور.

– هذا والدي إذن. ألم يحدثني والدي وأقاربي أن المجاهد مصطفى الحجي القائد العسكري في ثورة إبراهيم هنانو هو من أبناء عمنا؟! وأن الفرنسيين لما احتلوا ناحية (احسم) مسقط رأس جدي زعموا أنهم أوشكوا أن يقضوا على ثورة هنانو؟!

لم يعد حسان بحاجة للضغط على مخازن الذكريات. رأى نفسه في الخمسينات يقود مظاهرة طلابية في أواخر عهد الأديب الشيشكلي في بلده جسر الشغور،

وهو يهتف:

أيـها الطالب هيا   للعلا حتى الثريّـا

لا تقل: مهلاً كفانا   والصدى يدوي دويّا

ورأى صديقه العزيز (جميل) يصاب بطلقة نارية في فخذه وأخرى في وجهه، يمسكه ليعينه على النجاة. يشير للجماهير المحتشدة، فتندفع نحوهما وتكون جولات.

رأى نفسه محمولاً على أعناق زملائه في مدينة اللاذقية يتظاهرون بمناسبة طرد (كلوب باشا) من الأردن، وبمناسبة إعدام الشهيد نواب صفوي في إيران، ثم يلقي قصيدة في المتظاهرين.

رأى نفسه في الصف الثاني الثانوي، وهو يجادل عن عقيدته أمام مدرس اللغة العربية، الذي يهدده بالعلامات، وهو يقول:

أنـا طالبٌ ومجاهد   وعقيدتي فوق العلامةْ

أنا يا معلم لا أهابك   إن تحديت الكرامةْ

ثم رأى نفسه طالباً في ثانوية جودة الهاشمي بدمشق يحمل مجلة جماعته السياسية، وهي غير مسموح بإدخالها إلى المدارس. وفي العام نفسه اشترك في (ندوة الفكر المتحرر) الجامعية بقصيدته "ثورة لله..." وهو ما زال في المرحلة الدراسية الثانوية.

تذكر اشتراكه في المعرض الجامعي، ودعوته للتحقيق معه في أول يوم من أيام شهر رمضان المبارك وفي نهاية العام الدراسي الأول... كان التحقيق في أحد أجهزة المخابرات وهو صائم، وفي بداية عهد الوحدة الذي استقبله بمجموعته الشعرية

"ربيع الوحدة". هكذا نحتفي بالوحدة، وهكذا يكافؤننا!

– أنت لم ترسم لوحة لبطل الوحدة فأنت عدو لها.

– كيف أعاديها وقد نظمت في تمجيدها وتمجيد الجماهير التي حققتها ديواناً شعرياً:

في الشيخ محيي الدين بيتي عبر أهداب السحابِ
أنى رنوتُ تنفستْ حولي أضاميمُ القِبابِ
وتنهدّتْ حورُ المآذن بالتسابيح العِذابِ
... ذي لوحتي وعقيدتي، فاختر لنفسك ما تُحابي

لما حضر بعد منتصف الليل مع آلاف الطلاب الجامعيين للسفر في رحلة جامعية إلى القطر المصري الشقيق بمناسبة قيام الوحدة بين القطرين، فجأة نطق مكبر الصوت يستثني عدداً قليلاً من الطلاب من السفر. كان هو واحداً من هذه القلة. قضى الليل كله ونصف النهار متنقلاً من شعبة سياسية إلى شعبة أمنية، ليبرئ ذمته، ويلتحق بالسفينة المبحرة من ميناء اللاذقية على عجل. وهناك في مصر لم يسمح له أن يلقي قصيدة من ذلك الديوان الوحدوي.

– هل ترضى لنفسك أن نقودك إلى قاعة الامتحان ويداك مقيدتان بالحديد؟

(تخيل نفسه بين زملائه الطلاب يترنح بقيوده...)

– لم أفعل شيئاً استحق ذلك.

– من الذي علق البيان باسم (الشباب المسلم) على جدران الجامعة؟

– لا أعرف.

– خذه إلى القسم الشيوعي حتى يعترف!!

الدرج عميق يدور ملتفاً مثل أفعى الكوبرا

الإفريقية. لحسن الحظ معي مجلد كامل من "ظلال القرآن".

تذكر المعارك السياسية التي خاضها في عهد الانفصال: تذكر المقالات التي رد فيها على أستاذه الجامعي: "أشياء لا بد منها" كما تذكر قصائده الهجائية للخصوم السياسيين الذين عطلوا المجلس النيابي، حتى استعاد المجلس شرعيته وعافيته.

– قل لي: أنت مدرس لغة عربية أم تربية إسلامية؟

– متى انفصلت العروبة عن الإسلام؟

– أنا الذي أسألك؟

– وأنا كذلك أسألك؟

قال الجندي مؤيداً سيده المحقق:

– أجب سيدي ولا تسأل!

قال سيده:

– في هذه المنطقة لا أسمح لك أن تعمل بالسياسة.

– أنا مدرس أحبب المواطنين بمادتي. هنا لا يحبون اللغة العربية إلا من خلال الإسلام.

– أنا أحذرك!!

ثلاث مرات في عام دراسي واحد استدعي فيها للتحقيق معه.

اتصل بوالده هاتفياً من حلب إلى جسر الشغور يدعوه لحضور مهرجان الشعر العام الذي سيلقي فيه قصيدة.

– لا أستطيع الحضور يا ولدي. الله يرضى عليك أوصيك ألا تتعرض للحكومة.

تذكر كلام أبيه وهو يستقبل الزائرين بعد الإفراج عنه من الاعتقال الذي كان بسبب فتنة

إبراهيم خلاص 968:

– مثل أبيه. أنا في العهد الفرنسي اعتقلوني في الميبة ومية.

(إذن لماذا توصيني يا والدي مثل هذه التوصيات؟!)

كل الذين زاروني بعد الإفراج آنذاك عزوني وهنأوني. كلهم سرني بحضوره وبحديثه إلا محمد خير. يؤسفني أن يكون صديقاً سابقاً. لقد جاءني ليتبرأ أمامي من ماضيه، ويزعم أنه شجعني على هذا التبرؤ، قال لي: –ما الجدوى؟ فارس والده ماسوني! فارس عضو قيادي فما نظافة هذه القيادة؟!

كانت كذبة وافتراء وهزيمة لا غير. كان يريد استرضاء السلطة وأن يعين مدرساً جامعياً، وكان له ذلك

ها قد سرحوك الآن يا محمد خير ولم يصدقوك؟!

أنصت حسان لأحد إخوانه الذين أطلق سراحهم بعد سجن وتعذيب شديدين عام 1970:

– لقد سألوا عنك بإلحاح. لم يعرفوا اسمك فاحذر.

أنصت لأخ آخر أفرج عنه عام 1972:

– لقد ذكر اسمك بالذات. سألوا عن موقعك التنظيمي. فاحذر.

– 1973 سألوا عنك

– 1974 سألوا عنك

– 1979 سألوا عنك داهموا بيتك احتلوه.

تقلب حسان مطبقاً بكلتا يديه على رأسه يريد إغلاق أبواب الذاكرة بقوة. تمدد أخيراً على ظهره. تطلع في السقف. يده اليمنى على صدره. يده اليسرى ممددة إلى جواره. تذكر اختطاف صاحب مجلة الحوادث

سليم اللوزي. برزت صورة جثته ويده اليمنى محروقة بالأسيد. اقشعرت يد حسان فارتجفت وانقبضت. لم يجرؤ حسان أن ينظر إليها.

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... كيف الهرب من السياسة، وأنا غارق فيها حتى إذني؟! ليكن. إذا كان الأمر كذلك فلماذا تضيق نفسي بالسجن؟! أنا بالتأكيد لست سياسياً ولا مسلماً حقيقياً، فلماذا أكلف نفسي ما لا تطيق؟! هذه مراءاة معيبة وأمر محرم. إذا كان السياسي يطمع بالمنصب أو بالمجد، فأنا ليس لي أدنى طموح ولا طمع بمثل هذه الترهات. أنا واثق بزهدي، فلماذا التعب والنصب؟! هناك سؤال أشد صراحة: هل كان بإمكاني أن أقف مكتوف اليدين؟! ما أظن! أنا لست شجاعاً، ولكن يبدو أنني لست جباناً أيضاً! وللدقة: أشعر بخوف من الله تعالى إن توانيت. هذا كل ما في الأمر. هل أنا متأكد من هذه الدعوى أيضاً؟! أظنني متأكداً. ليكن. ماذا يكون أكثر مما أنا فيه؟! أليست هذه الخواطر جديرة بأن أسجلها في رواية أكتبها بعد الإفراج إن شاء الله. هذه سخرية أيضاً. هل هناك إفراج؟!

أطل الحارس الضخم من كوة الباب. أغلقها. شرع يغلق بقية الكوى. توقف عند الزنزانة المجاورة رقم /14/ فتحها نادى ساكنها:

– تعال معي. قم. مطلوب للتحقيق.

فكر حسان:

– أي حلقة من سلسلتنا تتعرض هذه الليلة للكسر؟

رواية > خطوات في الليل(10)

خطوات في الليل(10)



محمد الحسناوي *

الليلة التاسعة والثلاثون

مساء يوم الأحد 13 تموز 1980 الموافق لـ 2 رمضان 1400 هـ

الزنزانة رقم 10:

هذا هو اليوم الثاني من أيام شهر رمضان. حسان جالس أمام مائدة الإفطار وحيداً، لكن ذاكرته مزدحمة بالذكريات والخواطر. إنه مسرور، لأنه علم بموعد الصيام وبمواقيت السحور والإفطار. وهو مهموم لأنه يقضي العمر في السجن. في مثل هذه المناسبة يجتمع شمل الأسرة الصغيرة، بل يجتمع شمل الأسرة الأكبر: الجد والجدة والآباء والأمهات والأبناء والحفدة (الحمد لله على كل حال. ونعوذ بالله من حال أهل النار). إنه مسرور لأنه قضى الليلة الماضية قائماً يصلي، وهو ينوي أن يقوم ليالي رمضان كله، وهذه أول مرة في حياته يحقق فيها مثل هذه الأمنية، وهو متألم لحال أهله وإخوانه وشعبه... في رمضان الماضي كانت الأحداث الدامية قد بدأت تغزو بيوت سورية وشوارعها ومساجدها، أما رمضان السنوات الماضية فكان احتفالاً شعبياً مائجاً بالمباهج والأفراح: الزينات تظلل

الشوارع. السجاد يتدلى على الجدران. الأغصان الخضر تعرش على أقواس الخشب والطنف. القناديل الكهربائية تتألق في الساحات والمنعطفات. آلات التسجيل تدور ليل نهار، ومكبرات الصوت تصدح بالقرآن الكريم وبالأناشيد الدينية العذبة. اللوحات القماشية تتدلى وهي مطرزة بالهتافات والشعارات. مثل هذه الحفاوة بالمناسبات الدينية كانت تظهر أيام الاستعمار الفرنسي. غابت في سنوات الاستقلال شيئاً فشيئاً، لكنها عادت بزخم أشد وبإرادة أصلب في السنوات القليلة الأخيرة.

"يا هذه الدنيا أطلي واشهدي إنّا بغير محمد لا نقتدي"

كان يحلو لحسان في ليالي رمضان أن يجول في شوارع المدينة الساهرة يقرأ العواطف والمشاعر على الوجوه المشرقة بالابتسام، والألسنة والأفواه اللاهجة بالترحاب والإنشاد، والهدايا التي توزع في كل مكان. إنه الفرح الطوعي الواعي. وإن شئت قلت: الفرح الهجومي الذي يفرح الشعب ويغيظ أعداءه.

إن رمضان يذكر حساناً بطفولته المبكرة أيام كان يجتمع الأطفال أمام باب الجامع الكبير ذكوراً وإناثاً وعيونهم معلقة ببندقية المؤذن، وهم يهتفون:

مدّا. مدّا رامْ يتغدّى
قوّسْ. قوّسْ رامْ يتجوّزْ

حتى إذا انطلقت الحشوة النارية تدوي صاح الأطفال: (هيه)، وانطلقوا فرحين إلى موائد الإفطار، كأنها موائد الجنان.

ورمضان يذكر حسان ببيت أبيه الواسع المؤلف من عدة غرف، ملتفة في الطابق الأول حول فناء واسع، مبلط بالحجارة البيضاء، وفي طرفيه حديقتان عامراتان بأنواع الأزهار وبشجرة برتقال، وأخرى مشمش هندي، وثالثة نخلة، بالإضافة إلى عدد من أشجار الكرمة: تظلل إحداها معظم سماء الفناء، وتظلل الثانية سطح صف من غرف الطابق الأول، حيث تطل عليها غرفتان في الطابق الثاني، وسلسلة من جرار الزهر وصناديقه، كالفل والياسمين والمنثور وزهر العسل وعدد من خلايا النحل.

كانت مدينة جسر الشغور لا تنام في رمضان إلا في ساعات متأخرة، فهناك صلاة التراويح بعد الإفطار وصلاة العشاء، وهناك سوق الحلويات التي تملأ جانبي السوق العام. حيث تبسط صواني الحلويات، وتشرع مناضد المثلجات، وتصف الكراسي، وتعلو أصوات الباعة مختلطة بأصوات الأطفال وآلات التسجيل. الضحكات في كل جانب. الأضواء تبهر الأنظار. الحياة ضاجة نشطة في الليل أكثر منها في النهار. رمضان شهر ابتهاج لكل الناس: الأغنياء والفقراء على حد سواء. أليس هو شهر البركة، الشهر الذي يسبق العيد؟! أليس هو الشهر الذي تفتح فيه أبواب الجنة، وتوصد أبواب النار، وتصفد فيه الشياطين بقيود الحديد؟! إنه حالة خاصة في نفس حسان أكبر من الذكرى والناس والأشياء.

في مثل هذه الأجواء والذكريات كان حسان ينقل أسرته الصغيرة من حلب إلى جسر الشغور، ملبياً دعوة والده كاسباً رضاه، لكن لماذا يكتسب رمضان هذا

العام في نفس حسان كل هذا الزخم من الحنين والسمو والحنان؟!

الدارة –حي الخزان:

أسرة حسان الصغيرة حول مائدة الإفطار: الزوجة سعاد والأبناء مجاهد وميساء وحذيفة. ينتظرون الأذان. بغير قصد ثمة مكان خال. إنه مكان الأب.

الأسرة مشغولة بغياب الأب: إنه الرمضان الثاني الذي تقضيه هذه الأسرة في الغربة. آخر رمضان قضته الأسرة في سورية كانت في زيارة بيت الجد والد حسان في مدينة جسر الشغور. الأطفال يتذكرون تلك الجلسات للإفطار مع جدهم ومزاحه معهم. تعمدت الأم أن تكون ألوان الطعام في هذا الإفطار مثل ألوان الطعام في بيت الجد: كبة نية. حساء العدس. فتوش الخضروات مع الخبز. السمك الفواكه الصيفية. عنب وتين. لم تكن مشاكلة المائدة مدعاة للسلوى. كانت مدعاة للإثارة والتذكر. كانت الأسرة صامتة ويتأمل بعضها بعضاً. لا يجدون كلاماً مناسباً. كل منهم يخشى نبش الجراح. كل منهم يظن غيره ساهياً أو ناسياً.

– أبي يحب الكبة النية. (قال حذيفة).

– اسكت. (قالت أخته ميساء).

– لا تكسري خاطره. (قالت الأم وأردفت):

– حبيبي حذيفة ألا تحبها أنت؟

– كل ما يحبه أبي أحبه أنا.

– حتى الكبة النية؟!

– نعم حتى الكبة النية.

التقم لقمة من الكبة النية (صاح الجميع):

– لم يضرب المدفع!!

– أي مدفع؟ (قال حذيفة).

– دعوه إنه صغير. (قالت الأم).

أثاث البيت متواضع: بساط بلاستيكي. فرش إسفنجية. وسائد إسفنجية. ملاعق وصحون بعدد أفراد الأسرة. أوان من الألمنيوم. لكن النظافة والترتيب تنمان عن ذوق رفيع واهتمام. لعل الأسرة كانت تتوقع حضور الأب في تلك اللحظات. المذياع الصغير يرتل آيات القرآن...

جسر الشغور –حي الجامع:

الجد والد حسان وزوجته الثالثة أمام مائدة الإفطار صامتين. الرجل في الستين من عمره نحيل الجسم، متوسط الطول. شايب الشعر، في لباسه الصيفي الأبيض. قميص أبيض طويل. سروال أبيض يضيق عند رسغي القدمين. قبعة بيضاء من قماش. يأكل ببطء شديد. يأكل لقمة ويتوقف دقائق ثم يستأنف. زوجته الأولى والثانية قد توفيتا بعد أن أنجبتا له عدداً من الأولاد. عاش منهم ثلاثة ذكور وابنتان. الابن الأكبر حسان غادر البلاد مهاجراً. لحقت به أسرته. الابن الثاني لحق بأخيه مهاجراً أيضاً والتحقت به زوجته، الابن الثالث معتقل رهينة بدلاً من أخويه. زوجة الثالث مع طفليها سلمى ومحمد في زيارة لأهلها. ابنته الكبرى صبيحة بعد زواجها وإنجابها سبعة ذكور وثلاث بنات توفاها الله تعالى. كانت جارة، فانقطعت جيرتها. ابنته الثانية هاجر زوجها إلى لبنان فلحقت به مع أولادها. هذه الدار الواسعة كانت عامرة بالسكان والأولاد والضيوف، فأصبحت خلاء. حتى الأستاذ نبيه الصديق الودود لابنه الأكبر حسان...

غاب. كان من عادته أن يملأ فراغ حسان. كان يتفقد هذا الرجل المسن يسليه ويعزيه. لكنه غاب. أين غاب؟! في سجن تدمر. وما أدراك ما سجن تدمر؟!

"لقد وسوس لي الشيطان بأن أولادي على قيد الحياة، وبأن أولاد الناس قد استشهدوا أو أصبحوا في عداد المفقودين. ما الفرق بين حسان والأستاذ نبيه؟ أنت مثل أولادي وأعز يا أبا مصعب. أبوك المسن ينوم عليك نوم النساء. كل أهل المدينة يبكون عليك يا أستاذنا المحبوب"

لا كلام. الدموع تجري غزيرة من عيون الجد وأنفه بغزارة.

– صل على النبي يا حاج! نحن بخير والحمد لله!

– اللهم صلي وسلم وبارك عليه. خليني في همي. إن تكلمت كلمة واحدة تركت الطعام وحبست نفسي في غرفتي.

لم يكن رمضان هذا العام في الجسر ككل رمضان في الأعوام السابقة. لقد شهدت هذه المدينة مجزرة رهيبة ومعركة طاحنة أتت على عدد كبير من الدكاكين والبيوت والأنفس. هناك شهداء وسجناء ومشردون ومتضررون. ليس هناك من هو أقل حزناً من أبي حسان. كلهم أبو حسان أو أبو نبيه.

الأستاذ نبيه يعرفه والد حسان صديقاً حميماً لابنه الأكبر منذ ما قبل دراستهما الجامعية في كلية الآداب. إنهما متقاربان في السن.

طوال أيام الدراسة الجامعية كان حسان مداوماً على الجامعة في دمشق، وكان نبيه بمثابة ظله لدى أهل حسان ينقل أخباره ويحل مشكلاته، وينوب عنه في

كثير من أموره الشخصية والاجتماعية حتى أصبح بمثابة ابن من أبناء أسرة حسان. يسهر مع والد حسان في جسر الشغور، ويتوارى عن ملاحقة السلطة عام 967 في بيت أخت حسان، وينزل ضيفاً أيام الامتحانات في بيت حسان في دمشق. لما تخرجا من الجامعة وانتقل حسان إلى حلب كان الأستاذ يزور حلب في عطلة كل أسبوع ليجتمع بأخيه حسان.

إن الأستاذ نبيه رئيس جمعية البر والخدمات الاجتماعية في جسر الشغور، ووالد حسان عضو في هذه الجمعية التي آوت العجزة والمقعدين، وكفلت الأرامل واليتامى والمتسولين، وتغلغلت في شرايين المجتمع وخلاياه الدقيقة حتى أصبحت مرجعاً في حل المشكلات المالية والاجتماعية لمدينة الجسر وبعض قراها، ومصدراً من مصادر الإشعاع الحضاري. العيد في هذه المدينة عيد حقيقي ولكل الناس، وشهر رمضان شهر نابض بالمعاني السامية وبالعواطف والعلاقات الاجتماعية الخيرة، فضلاً عن الحركة الثقافية التي انطلقت من المساجد وحلقات العلم الموازية لحلقات المساجد والمتفرعة عنها، والأستاذ محور هذه الأنشطة، وروح هذه الحياة الجديدة.

المجتمع النسائي يعرف الأستاذ نبيه، فإذا كانت الزوجة الثالثة لوالد حسان تعرفه زوجاً لامرأة صالحة ووالداً لثلاثة ذكور وبنت واحدة، ذاع صيته في عمارة بيته على البر والتقوى والعلم. فإن المثقفات من نساء المدينة وأريافها يعرفنه كاتباً اجتماعياً، وهب قضية المرأة جزءاً من نور عينيه ومداد قلبه فيما كتبه من قصص قصيرة ومقالات جادة عن المرأة

العاملة والموظفة والعشيقة والعانس والمجاهدة والضحية. قد يكتب الكاتب استجابة لشهوة الشهرة أو الجنس أو المال، وقد يكتب تعويضاً عن نقص أو تذرعاً لغرض دنيوي. أما هذا الرجل المثقف المتواضع المكتمل الخلق والخلقة فليس كذلك. صحيح أنه من منبت اجتماعي فقير لم يكنز المال، لكنه اكتفى براتب عمله في التدريس. وصحيح أنه جميل الصورة. وجه صبوح، أبيض. معتدل القامة. عريض المنكبين. أسود الشعر. عيناه تتوقدان ذكاءً وجمالاً تحت حاجبين أملحين.

ابتسامته ودودة غير مبتذلة تأتي في الوقت المناسب ولمن يستحقها، وتترك مكانها لتقطيبة الوجه أو الجبين في وقت مناسب ومحسوب أيضاً. زد على ذلك الفطانة وحضور البديهة، واللسان الفصيح، والصوت الجهوري الذي أسعفه في مئات الخطب والمحاضرات والندوات والدروس الجامعة. صحيح أنه يتمتع بكل هذه المزايا، لكن ذلك لم يزده إلا نبلاً وشهامة. هل من الضروري أن يتحول الجميل إلى زان، والمثقف إلى ملحد، والخطيب إلى دجال أو انتهازي. إن المرء الذي يهبه الله تعالى هذه المواهب لأجدر الناس بشكرها وبحسن توجيهها. لمثل هذه الأسباب وغيرها كان حب حسان العظيم للأستاذ نبيه. في ليلة اليوم الخامس من حزيران عام 967 بعد الساعة الواحدة من منتصف الليل، وحين داهمت عناصر المخابرات بيت حسان في حلب لاعتقاله لم يخطر في باله شيء إلا أن يبلغ أخاه نبيهاً عساه ينجو من الاعتقال:

– يا امرأة عمي. بلغي أهلي في الجسر بأنني

اعتقلت.

في مساء اليوم التالي بلغت أخت حسان الأستاذ باعتقال أخيها، ففهم البرقية وتوارى عن الأنظار حتى انتهت حرب حزيران وأفرج عن المعتقلين، ونجا الأستاذ من الاعتقال. لكن لم ينج عام 979 وفي شهر نيسان حين اختطفته الأيدي السود من أسرته الصغيرة المسالمة ومن والده المسن الذي لا يكاد يستطيع القيام أو السير منفرداً، ومن أهل الجسر المتعلقين به، ومن والد حسان الذي يراه بديلاً لحسان.

الزنزانة رقم 45:

عبد الحكيم السيد الآن في الزنزانة رقم / 45/.

إنها إحدى الزنزانات الداخلية. تلك الزنزانات المصطفة على شكل دكاكين، ليس لها باب أو جدار أمامي، بل شبكة من قضبان حديدية غليظة ترتفع من الأرض حتى السقف بحيث تغطي واجهة الزنزانة أو الزنزانات كلها، ولكل منها باب شبكي حديدي خاص بها وأقفال ومفاتيح ومزاليج وتعليمات حديدية صارمة، أما النوم فعلى أسرة معلقة من أحد جوانبها بالجدار. إن نشرها نهاراً وطيها وقت النوم ليلاً لا يخفي قساوتها وخشونتها. أما النور فليس إلا نور الكهرباء الشحيح.

إن عبد الحكيم منذ أسبوعين في هذه الزنزانات. ومثل ذلك بقية إخوانه ما عدا حسان.

على الرغم من بناء الزنزانات الداخلية صفوفاً متعارضة. فقد استطاع عبد الحكيم أن يرى إخوانه الآخرين الموزعين على عدد من الزنازين، لكن رؤيتهم شيء ومخاطبتهم ولو بالإشارات الصماء شيء آخر.

لم يكن عبد الحكيم وحيداً في هذه الزنزانة الضيقة الواقفة على قدم واحدة وإلى الأبد. كان يقاسمه ظلامها وضيقها ورائحتها النتنة ثلاثة شبان حليقي الرؤوس، حديثي السن. ومع ذلك كان يستشعر الوحشة والغربة. عبد الحكيم لا يهتم بكثرة الناس ولا بقلتهم، ولا بالخروج أو الدخول أو الجدران والقيود بقدر ما يهمه الإنسان الذي يستطيع أن يتحاور ويتفاهم معه. بوسعك أن تقول بغير مبالغة إنه الآن وحيد. نعم وحيد برغم وجود ثلاثة رجال وست عيون وثلاثة أفواه وست آذان وثلاثة أدمغة واثني عشر طرفاً. إنهم مثل بقية الرجال الذين تزدحم بهم هذه الزنزانات، ولا يستطيع مخاطبتهم.

المعطى الجديد في سجن عبد الحكيم أنه سمح له بتعاطي التدخين، لكن كيف يمارس هوايته المفضلة في شهر رمضان المبارك؟ فلينتظر مدفع الإفطار إذن. ولتنتظر معه كل الملكات في إجازة حتى ينطلق المدفع.

الناظر إلى عبد الحكيم –وهو مضطجع أو منبطح على بطانيته –يحسبه تمثالاً حجرياً. جسد ساكن. نظر ثابت محدق في البعيد. لا كلام. الدخان أحياناً ينبعث من غمامات من الفم والأنف أو الاثنين معاً. أما عقله فهو دائم الحركة، لا يكاد يكف عن تأمل أو نظم شعر. لو أتيح له قلم وورق لكتب مذكراته. إنه الآن يقول صامتاً:

التدخين ممنوع إلا لمن يسمح له المحقق، وعلى هذا يستحيل على المدخن السجين أن ينال سيجارة واحدة دون إذن المحقق. بخلاف سجون سورية التي يستطيع

السجين فيها أن يشتري ما يشاء من الدخان خفية، على أن يشتري قبل ذلك ذمة السجان، وهي في العادة، رخيصة جداً.

السجانون عموماً لديهم نوعان من الإيمان. إيمان بالواجب الذي يؤدونه بصفتهم موظفين في دولة يحرصون على أمنها. وإيمان خاص فردي يتعلق بالجانب الروحي لكل منهم .والأصل أن النوع الأول هو الذي يسيرهم ويطفو على ساحة الشعور والسلوك لكل منهم... وفي لحظات معينة، يبرز النوع الثاني بأشكال مختلفة ومظاهر متنوعة.. كأن يرى أحدهم سجيناً داخل زنزانته في حالة تأمل أو تفكر أو حزن أو مرض... ففي مثل هذه الأحوال يظهر لدى السجان إحساس بالشفقة، وبالخوف المبهم من الله.... فإن اصطرع نوعا الإحساس في نفس أحدهم –وقلما يحصل ذلك– فالغلبة للأول دون جدال.. وإزاء مثل هذا التباين الضعيف والمؤقت بين الأحاسيس، تختلف مواقف السجانين، فمنهم من يعبر عن إشفاقه على السجين ويحاول مساعدته –إن كان بحاجة إلى مساعدة– أو يسعى إلى تطييب خاطره ببعض الكلمات اللينة كالدعاء له بالفرج ونحو ذلك.. ومنهم من يغطي ذلك بنوع من المرح واللامبالاة المفتعلة، كيلا يظهر الضعيف أو المنتقد لنظام السجن أمام السجين.

والسجانون عامة انضباطيون، وكثير من انضباطهم ناجم عن الخوف من العقوبة.. أما الشراسة والدماثة، فلكل منهم نصيب منهما قل أو كثر، وثمة بعض الملامح البارزة لكل منهم، فالحارس الأسود: عنيف شرس، إلا أنه أقل فظاظة من ذي الشوارب،

وربما كان لسواد لونه أثر في التخفيف من شراسته، إذ يمنحه هذا نوعاً من الإحساس بضرورة التواضع، إن لم تشل مشاعره —ولا سيما نزعة حب الظهور الفطرية – عقدة الإحساس بالدونية... وربما كان ثمة أسباب أخرى.. وفي كل حال، إن شعوره بأنه سجان، وبأنه قادر على توجيه الأوامر والتعليمات إلى السجناء، أعطاه نوعاً من الإحساس بالثقة بالنفس، إلا أنه لم يمنحه —فيما يبدو – حظاً مكافئاً لحظ صاحبه ذي الشوارب في مجال الغرور المفرط.

إنني أعاني من مناوبته أيام التنظيف. ولكن حصلت لي حادثة معه. كنت مضطجعاً في زنزانتي وصوته يزمجر في الممر، يمر على كل زنزانة فيقرع بابها، ويطلب من ساكنها أن يستعد للتنظيف، فاستعذت بالله، ودعوت ربي بضراعة أن يقطع عني لسانه، وألححت في الدعاء.... وما هي إلا دقائق قليلة حتى وقف بباب زنزانتي، ونظر إلي بإشفاق وعطف، ثم ناداني بصوت رقيق حان —وهو يحسبني نائماً– (حجي..حجي.. جهز نفسك يا أخي للتنظيف، ورتب أغراض غرفتك.) طبعاً ظل يناديني (حجي.. حجي..) حتى استيقظت، ثم قال لي ما قال: بصوته المشفق الحاني... حمدت الله على ذلك. وحين جاء دوري في فتح الزنزانة وتنظيفها عاملني بلطف، وساعدني في التنظيف والتجفيف... إن رحمة الله واسعة....

المشكلة الوحيدة كانت مشكلة قطع الدخان، فقد بقيت خمسة وثلاثين يوماً بلا دخان.. وكانت شهيتي للطعام تزداد يوماً بعد يوم خلال هذه الفترة، كما أحسست أن صحتي تتحسن باستمرار، إلا أنني كنت

أعاني من قلق وتوتر... وقد أدركت خلال هذه الفترة، ما معنى أن يكون المرء مدخناً، كما أدركت ما معنى أن يكون المرء غير مدخن، وهذان الأمران لا يدركهما – فيما أحسب – إلا من كان مدخناً وقطع الدخان، أو انقطع عنه الدخان... ثم حلت المشكلة، بأن سمح لي المحقق بالتدخين بعد أن أخبره أحد السجانين بأني أحس بالضيق لترك الدخان، وكان ذلك صبيحة يوم الجمعة، وهو يوم عطلة، فانتظرت حتى صبيحة السبت... وبدأت العلب تتوارد...

مص عبد الحكيم عقب لفافته بقوة. أطلق عموداً رمادياً داكناً في الهواء ثم قال بصوت غير مسموع:

هل من الضعف أن يتذكر الإنسان أمه وأباه. أين هما؟ ماذا يفعلان؟ بم يفكران؟! هل يقلقان على ابنهما الأعزب أكثر من الابن المتزوج؟ هل تفكيري بمشكلة الدخان والسجن والسجانين بديل للتفكير بالأبوين العجوزين؟ وهل التفكير بالأبوين بديل للتفكير بالشعب بالأمة كلها؟! إنه السجن. إنها الجدران.

حلب –حي سليمان الحلبي:

دار شعبية من دور واحد. مؤلفة من غرفتين حقيقيتين، إحداهما ذات نافذة مطلة على فناء الدار غير الواسع. الثانية ليست لها أي نافذة. يضاف إلى ذلك غرفة (منشولة) على حد التعبير الحلبي: أي مقتطعة من فناء الدار، وكان حقها أن تظل فسحة مكشوفة، أو رواقاً صغيراً يصل المطبخ ببقية أقسام الدار، ولعل هذه الغرفة ذات الواجهة الزجاجية قد اقتطعت بغير إذن رسمي من سلطة البلدية أيضاً.

ليس في الدار أشجار ولا أزهار ولا أطيار. بابها الخارجي يطل مباشرة على الشارع العام المزدحم، الذي لا تتوقف السيارات عن عبوره إلا بعد منتصف الليل. إنها لا تتوقف في الحقيقة، لكن مرورها يقل.

رجل مسن قد ناهز السبعين وزوجته بجواره، تبدو أكبر منه سناً، وإن كانت تصغره بخمس عشرة سنة. كلاهما يرتدي ألبسة الريف الشرقي، لباس البادية السورية. ألوان الثياب داكنة. الليل بدأ يهيمن على المدينة بعد إعلان الإفطار. حركة السيارات في الخارج هدأت بشكل واضح. أحياناً تسمع أصوات بوق مستعجل. السماء صافية. نجومها تومض من بعيد بهدوء كثيف معبأ بالغموض والتوجس. التيار الكهربائي في الدار مقطوع منذ أيام، الأمسية –في الظاهر– أشبه ما تكون بأمسيات البادية التي تروق لسكان هذه الدار الذين هم مستأجرون وليسوا بمالكين.

الأب يفكر بابنه عبد الحكيم الذي هاجر مع من هاجر تاركاً طلابه ومدرسته وابنة عمه التي ترفض الخطاب الذين تقدموا لها. مص الأب طرف (القمجة) المتدلي من نرجيلته. قرقر بطن النرجيلة، توهج رأسها الأرجواني. استضاء الفناء قليلاً. ماذا يهم عبد الحكيم أن يهاجر ويغترب؟ أليس رجلاً؟ ألم يعتقل منذ أربع سنوات، وخرج بعد ذلك مرفوع الرأس؟ إن الغربة خير من السجن على كل حال.

الأم قليلة الكلام خصوصاً إذا كان زوجها صامتاً. بودها أن تسأله إن كان قد جاءه خبر عبد الحكيم، عساها تطمئن. بودها أن تبدي قلقها على عبد الحفيظ

الابن الأصغر، ابن العشرين الذي خرج قبيل الإفطار بدقائق ولم يعد حتى الآن، كل الناس عادوا إلى بيوتهم في الوقت الذي خرج فيه عبد الحفيظ فماذا يعمل في مثل هذا الوقت، وقت الإفطار؟ أمر يحيرها، كما تحيرها الأحداث التي تلاحقت في الأشهر الأخيرة. مظاهرات صاخبة. إطلاق نار على المتظاهرين. معارك بين المواطنين ورجال الحكومة. سقوط قتلى من الطرفين. توزيع أوراق بالسر، وأحياناً بشكل علني. ابنها عبد الحكيم هاجر فجأة. ابنها سلمان المتزوج لم يعد يزورهم في حلب بسبب الإضرابات، وتعطل حركة المواصلات. عبد الحفيظ دائب الحركة داخل البيت وخارجه. يأتي معه ضيوف أصغر منه وأكبر منه. ينامون ساعات ثم يرحلون. يتكتم عليها في كل أمر. أين أنت يا عبد الحفيظ؟ ليس الذنب ذنبك إنه ذنب هذا الأب الذي يطعم أولاده بالشجاعة والنخوة! هيه، هكذا الرجال. الله يحفظكم يا أولادي إنكم ترفعون رأسي، لكن بالي مشغول عليكم.

في الخارج دوى صوت انفجار ضخم، أعقبه صوت اشتباك بطلقات نارية متقطعة. بدأت تتصل الأصوات وتزداد كثافة وعنفاً. الصوت الكثيف توارى، تاركاً محله للأصوات الحادة الحبلى بالموحيات والمفاجآت.

في هذه الأثناء علت ضجة قريبة جداً. صوت توقف عدد من السيارات. ترجل منها أناس بخطوات سريعة وأقدام ثقيلة. شرعوا يطرقون بعض الأبواب. إنهم الآن قد دخلوا البيت المجاور. أصواتهم تتناهى من فوق الجدار الفاصل بين الدارين. إنهم يفتشون عن الرجال. يحصون عدد الحاضرين والغائبين. إنهم

قادمون إلى بيتنا. سيسألون: أين محمد؟ إنه متزوج مقيم في حمص. أين عبد الحكيم؟ إنه مسافر منذ شهور. أين عبد الحفيظ؟ لا ندري. كيف لا تدرون؟ أليس ابنكم؟ كم عمره؟ ماذا يشتغل؟ أعطونا صورته. لا بد أنه يوزع الآن منشورات ضدنا. أو ينقل السلاح أو يطلق النار. أين هو؟ ألا تجيبون؟! سوف ترون ماذا نفعل بكم؟

في هذه اللحظات دخل عبد الحفيظ يجفف عرق جبينه بأعلى كمه، ويمسح الوحل عن حذائه وبنطاله وهو يبتسم. إنه سبق التفتيش. لكن هل خفيت عليهم عودته متسللاً، أو هل يمكن أن يجف كل عرقه قبل أن يحضر المفتشون؟!

الزنزانة رقم 33:

– صديقي العزيز. لماذا أنت صامت لا تتكلم؟

في هذه الزنزانة رجلان. أحدهما إبراهيم ماضي. والثاني رجل في الأربعين من عمره. متوسط الطول. شعره يميل إلى اللون البني. عيناه هادئتان عسليتان. وجهه أليف. نظراته شاردة. هندامه لا تنقصه الأناقة. دخل السجن حديثاً بالخطأ. هو يعلم ذلك والمحققون يعلمون ذلك كلهم يتوقعون الإفراج العاجل عنه. على الرغم من ذلك كان مهموماً كأنه محكوم بالإعدام. اعترف لإبراهيم بأنه موظف. يبدو أنه ندم على هذا الاعتراف. اعترف أيضاً بأنه متزوج.

– صديقي العزيز. إذا كانت لك ابنة وحيدة طفلة، عمرها ثلاث سنوات، عيناها مثل عيون الغزلان. حاجبان سوداوان. جديلتاها طويلتان تتأرجحان مع النسيم. ابتسامتها دائمة. ضحكاتها مثل زقزقة البلابل. تقفز

إلى أحضانك بين ساعة وأخرى، كأنك كنت في سفر غائباً عنها، تلثغ بالكلام، تقبلك أينما اتفق. في وجهك في رأسك تعض يديك تضحك تنشغل عنها فتبكي، وإذا التفت إليها ضحكت بسرعة مذهلة. إذا كان لديك مثل هذه الخوخة، ثم حرمت منها ثلاثة وأربعين يوماً فماذا تفعل؟! عفواً نسيت أنه ليس لك أطفال.

طيب إذا كنت موظفاً وكان لك زملاء طيبون في وظيفتك ويحيونك في الصباح. كيف حالك؟ كيف حال نجاح؟ برنامجك الإذاعي مساء البارحة كان ناجحاً. أنت تحسن الربط بين قضايا بلدنا وقضايا جارتنا الكبرى تركيا. هل أنت تركي؟ لا أنا سوري لكنني أجيد اللغة التركية. أنا وأسرتي نقيم على الحدود التركية. يسألونني عن والدي ووالدتي.

يسألونني عن ربطة عنقي. أنا قليل النقود. لكنني أعتني بهندامي على قد بساطي. إذا كان مدير دائرتك راضياً عنك إذا كان زملاؤك لا يحسدونك، لأنك متواضع متعاون نزيه غير مرتبط بالأجهزة السرية التي تحصي على الناس أقوالهم، وترصد أفكارهم ومواقفهم، وتسكت على المرتشين وعصابات السلب المنظم... باختصار إذا كنت ناجحاً محبوباً في عملك، ثم تغيبت شهوراً مظلوماً، فكيف يكون شعورك؟ كيف يكون شعور زملائك في العمل؟ عفواً نسيت أنك موظف.

طيب إذا كنت متزوجاً، زوجتك شابة وجميلة في العشرين من عمرها. تحبك، وتغامر من أجلك تترك بلدها ووطنها، وتلحق بك في الغربة وحيدة. تقعد

معك تقاسمك لقمة العيش الشحيحة. تقاسمك همومك وغربتك تعيش معك قضيتك قضية شعبك المظلوم وعقيدتك المضطهدة، إنها الآن وحيدة. غريبة. إنها فوق ذلك أديبة. كاتبة قصصية. كانت تساعدني في الترجمة إلى اللغة العربية. خبرني كيف شعورك بعد فراقها؟ كيف شعورها هي؟ عفواً نسيت أنك قد طلقت زوجتك.

طيب إذا كان لك أصدقاء أعانوك في نفقات الدراسة الثانوية وفي المعهد المتوسط وخطبوا لك مثل هذه الزوجة الصالحة. إذا وضعوا في صدرك مصباح الهدى، وفي عقلك ميزان الاستقامة. إذا سقوك ماء العزة بالله، وكحلوا عينيك بكحل الاستشهاد في سبيل الله. إذا رعوك في الغربة كما رعوك أيام الرخاء. إذا بلغك أنهم كلهم أو معظمهم ربطت أيديهم وأرجلهم بسلاسل الحديد وألقي بهم في سجن تدمر، فكيف يكون شعورك؟ أو ماذا تصنع وأنت في السجن؟! عفواً يبدو أنك لا تحب السياسة. أقسم لك، أنها ليست سياسة. إنها استقامة. إنها تعاون على الخير والبر والتقوى. لكن إذا خرج قطار عن سكته وصدمك فماذا تفعل؟ أظنك توافقني على ضرورة إعادته إلى سكته، ومحاسبة السائق الذي يقوده، أو إصلاح العطب الذي أدى إلى هذه النتيجة. قل لي إذا تكرر خروج القطار عن سكته، وقتل أناساً كثيرين من المارة ومن ركابه. فماذا تعمل؟! بصراحة ماذا تعمل؟ هل هذه أيضاً سياسة؟! ألا تتكلم؟!

في هذه اللحظة فتح السجان باب الزنزانة –الدكان. دخل الحارس وأخرج أوعية الطعام المخصص لسجينين.

تأرجح المصباح الكهربي المتدلي بعد دخول الحارس وخروجه. اهتزت أخيلة سوداء على الجدار الأيمن والأرضية اليمنى. استأنف إبراهيم حديثه:

طيب أحكي لك حكاية. لا تبتسم من تحت حاجبيك وشاربيك إنها قصة حقيقية في بلدنا. دخل مجموعة من عناصر سرايا الدفاع. لا تعرف ما هي سرايا الدفاع؟ إنها نوع من الجيش غير النظامي. جيش ولا جيش. تستغرب؟ إنها جيش لغير أغراض الدفاع عن الوطن. رواتبه أعلى من رواتب أفراد الجيش النظامي. فهمت أليس كذلك؟ هذا لا يهم. أقول: دخلت مجموعة مسلحة إلى دار في بلدنا. في الدار أب مسن وأم عجوز وسبعة أبناء شباب وشابات. طلب المسلحون من الأبناء والبنات أن يتناوبوا في ضرب الأب والأم بالكرباج واحداً بعد واحد بالدور. ومن يتخلف منهم أو يتردد يهجم عليه أفراد المجموعة المسلحة ويصبون عليه ألوان العذاب بالضرب والسباب والركل. الأب والأم يرجوان الابن أو البنت أن ينفذا الأوامر. ألح المسلحون على الابن الأصغر بضرب والديه بشدة، فنفذ ما أرادوا وهو يرتجف ويبكي. حينذاك احتج رئيس المجموعة قائلاً: إن هذا الابن عاق قليل الأدب والدين. إنه يضرب والديه بشدة وأمام ناس غرباء. أليس ذلك صحيحاً؟ ماذا جزاؤه؟ إن جزاءه القتل. أطلقوا عليه النار. سقط الشاب الفتى يتضرج بدمائه أمام والديه. سقط الوالدان مغشيا عليهما. هل دمعت عيناك من التأثر؟! أنا آسف. أنا ما أردت إزعاجك كان هدفي تسليتك لكن هذه بضاعتي. تصور لو أنني كبرت وكبرت ابنتي نجاح، وطلبوا منها أن تضربني بقسوة، ثم

أطلقوا عليها الرصاص أمامي، فماذا أصنع؟ هذا فظيع أليس كذلك؟ الأفظع أن يدوم هذا الوضع حتى أكبر وتكبر نجاح. لا. لا. لن يكون. ولن يحملني الغضب على مناطحة هذا الجدار وتحطيم رأسي.

الدارة – حي المغرب:

بعد أن انتهت زوجة إبراهيم ماضي من تناول طعام الإفطار جلست تلاعب طفلتها نجاح. قدمت إليها كعكة وصورة قائلة لها:

هذه صورة أبيك وهذه كعكة لك أيهما تفضلين؟

تناولت الطفلة الصورة بيد والكعكة بيد. وضعت الصورة على فمها. قبلتها وضعتها جانباً. ثم شرعت تقضم الكعكة، وهي تتطلع إلى قطرات صافية تتدحرج من عيني أمها. لم يتأرجح المصباح الكهربائي الوحيد المتدلي من السقف. لم يكن على الجدران لوحة ولا مرآة. كل ما على البساط البلاستيكي قلم وأوراق. كتب على الورقة الأولى:

زوجي الحبيب.

تدمر – معبد بعل الروماني الأثري:

"تحت سمع وبصر (بعل الكبير) نهضت زنوبيا اليوم من مرقدها، لتضم بحنان وشوق صانع المعجزات الحضارية، ضيوفها الذين قدموا من أنحاء مختلفة من العالم، ومن أنحاء القطر، ليشهدوا مهرجانها الدولي للفن والرقص، الذي تنظمه وزارة السياحة السورية، برعاية وزير الثقافة، فعلى مدى ثلاث أمسيات أسبوعية سوف تنساب الألحان الشرقية، العربية والشعبية السورية والكلاسيكية العالمية... ساحرة حالمة، ومثيرة."

تابع الشاعر علي سليمان معاون وزير الثقافة كلامه، متحدثاً فيه عن دور تدمر، وإسهاماتها العمرانية والثقافية في تاريخ الإنسان وعن طموحات المهرجان الدولي للموسيقى إلى أن قال:

"الحقيقة أن السائح الذي يأتي من أي مكان في العالم، إلى القطر السوري بل إلى الوطن العربي والشرق الأوسط.. لا بد أن يتساءل: أين تدمر وزنوبيا في برنامجي؟ أين تلك القصيدة الجميلة التي أبدعها التاريخ على صفحة الصحراء؟ أين تقع على الخريطة موضوع اللوحات السجاجيد التي يشاهدها السائح في أهم كاتدرائيات اسبانيا.. وأين يقع الموضوع الأهم في الآثار المتناثرة في متاحف أوروبا؟ إن الإجابة ليست عصية بعد على التساؤل: (لماذا يقام مهرجان للموسيقى في تدمر؟)... فالإجابة هي أن تدمر قبلة الأنظار السياح والمثقفين والباحثين عن شيئين في عالمنا المعاصر الذي لا يكاد يعرف الراحة.

" والآن.. إلى فعاليات المهرجان.. فرقة شباب وشابات المعهد العربي للموسيقى بدمشق تقدم لكم نخبة من الكلاسيكيات العربية: موسيقى وغناء، مجموعة من البشارف والسماعيات واللونغو والتراثيات الشعبية.."

علا تصفيق الجمهور المحتشد تحت الأضواء الساطعة في باحة المعبد الروماني وتحت خيمة السماء الساجية في ظلام البادية السورية. اختلجت طيور الحمام والقمري الهاجعة في زوايا الأعمدة العالية وبقية السقوف المتهدمة. بعد قليل صدحت الموسيقى العربية الصاخبة. أجفلت الطيور في أعشاشها

المعلقة. طارت فوق رؤوس الجمهور. ظنوا ذلك جزءاً من فعاليات المهرجان الموسيقي الراقص. انطلقت الأكف الناعمة المترفة تصفق من جديد، لم تستسغ الطيور الفطرية هذا الضجيج الغامض. وجدت نفسها مضطرة إلى الاستقرار في الزوايا المظلمة من الأسوار الخارجية لسجن تدمر العسكري.

سجن تدمر العسكري – غرفة مدير السجن:

قاعة متوسطة الاتساع. مفروشة بأثاث فاخر. منضدة عريضة من خشب الزان، وراءها كرسي متحرك دوار، ومجموعة كراسي ومقاعد مفروشة بلون أزرق لامع. مناضد زجاجية صقيلة واطئة. سجاد عجمي. ثريات متدلية كأشجار الكرمة. مكيف هواء (ناشيونال). ثلاث خزانات معدنية مطلية باللون الأزرق، على واجهاتها نقوش أزهار مشرقة الألوان زاهية. في كل جدار صورة لمدير السجن فيصل رامح. الصورة التي تقع خلف منضدته وكرسيه وسط الجدار الذي يواجهك حين تدخل الغرفة.. بالقياس الكبير، ملونة، بكامل شخصه. الصور الأخرى: بعضها وهو يصافح رئيس الجمهورية، وبعضها وهو يشرف على سرية التأديب وعلى صفوف السجناء.. بأنف شامخ ووجه معربد. متوسط الطول. ممتلئ الجسم. حليق الشاربين. على المنضدة أكثر من جهاز هاتف. أحدها يتصل مباشرة بمكتب رئيس الجمهورية.

الوقت منتصف الليل. أصداء المهرجان الموسيقي العالمي تتناهى بوضوح إلى المسامع. مدير السجن الرائد فيصل قد خرج منذ قليل في سيارته المرسيدس الفارهة. بقي في الغرفة معاونه الجديد النقيب

مسعود خضر. طويل القامة، حنطي اللون، نحيل الجسم في الخامسة والثلاثين من العمر. ما زال جالساً على المقعد المواجه لمنضدة المدير، متخذاً هيئة الاستعداد، كأن المدير ما زال موجوداً يحدثه.

– يا مسعود أنت هنا ضابط جديد. أنت في غيابي الكل في الكل.

تذكر النقيب مسعود كيف كان مديره يتكلم وهو في قمة السكر، يأكل ويشرب ويترنح قائماً وقاعداً وماشياً. لم يدعه إلى الطعام أو الشراب. وحسناً ما فعل. إن النقيب في حالة صداع وإقياء مما يرى ويسمع ويشم.

– الآن تجري عمليات غسل وتنظيف وترميم لبعض الجدران في الباحات والغرف استعداداً لاستئناف العمل بوصول الأفواج الجديدة غداً أو بعد غد. حدق النقيب مسعود بعينين حمراوين في صورة المدير المواجهة. فحدق به المدير أيضاً. نزل المدير من صورة الجدار وجلس على كرسيه، وأخذ يدور في كرسيه:

– المدخل الرئيسي للسجن يقع في أول جدار السجن من ناحية الشرق، وقد جعلناه، ضيقاً لا يصلح إلا لدخول الأفراد المشاة. هناك باب آخر للسجن يقع في الجهة المقابلة وسط الجدار الغربي، وهو واسع يسمح بدخول السيارات حين اللزوم، وبعد فحص الأوراق للسيارات وللعناصر المرافقة ولعدد من السجناء القادمين أو الزوار من الرسميين: أؤكد الرسميين فقط أنت فاهم يا مسعود!

فجأة اهتزت الصورة الكبيرة المعلقة. سقطت واندفع من ورائها زوجا حمام ضربا جدران القاعة

المضاءة بأنوار باهرة، ثم خرجا من الباب المفتوح. كان المدير قد قفز مجفلاً. أخذ يشتم ويسب هذه الحيوانات البرية التي تستغل الكوى المخصصة للتهوية. ثم أعاد تعليق الصورة، وهو شديد الغضب: وجه أصفر شاحب. عينان زائغتان. أصابع ترتجف. لعاب سائل. بعض الأكواب والفواكه تدحرجت على أرض الغرفة.

– يتألف السجن يا مسعود من واحد وأربعين مهجعاً وسبع باحات. بالقرب من مدخل الباحة السابعة توجد غرف كنا نسميها (المستوصف)، أما الآن فسوف نخصصها للنساء.

وضع النقيب يده على جبينه يتحسس ماء يتفصد. خاف من مديره. غافله، وأخرج منديلاً ورقياً. مسح الحبات الباردة.

– سوف نخصص المهجعين (31و 32) للمعتقلين الأحداث. صغار السن. أنت فاهم علي؟ طبعا! يمكن أن يتسع المهجع الواحد لأكثر من مئة وخمسين واحداً. كلهم مجرمون، كما تعلم.

أصوات الموسيقى تعكر سكون الليل الرائق. أجنحة الحمام المجفلة تضرب أطراف الأبواب والنوافذ المضاءة بحثاً عن ملجأ.

– يا نقيب اسمعني جيداً. أنت صاح طبعاً يا ابن الكلب. في آخر صف المهاجع الكائنة على الجدار الشمالي الغربي. هناك هـ. ا..ك.. بقرب الزاوية الغربية... تفوه.. تقع غرفة (الورشة) نعم (الورشة) سوف نخصصها لجمع السجناء. تسمع. السجناء الذين سوف ننفذ فيهم حكم الإعدام. طبعاً. ايش شغلنا هنا؟ الإعدام.

أحمر كل شيء في الغرفة. بدأ الدم ينقط من الصور. من الخزانات. صارت ترددات الموسيقى أشبه بموجات نحيب حاد.

– هناك.. في الفسحة التي تقع أمام الجدار (الجنوبي الغربي) ما أدري (الغربي الجنوبي) التي تصل بين الباحتين الخامسة والسادسة. لعنة الله على المهاجع والباحات.. هناك سوف ننصب خشبات المشانق. اسمع. انتبه. احذر. إن المعتقلين في المهجع المجاور رقم "31" وبقية المهاجع المطلة على الباحة السادسة يمكن أن يتلصصوا خلسة ليروا عمليات الإعدام، أو يمكن أن يسمعوا صوت الاستعدادات ومقاومة المحكومين وصراخ العناصر القائمة على التنفيذ. يجب أن نمنع التلصص. أن نكتم الأصوات. كل مخالف إعدام! فاهم؟ إعدام. نعم. الإعدام لا يتوقف على السجناء فقط الإعدام للشرطة العسكرية للضباط لصف الضباط فاهم؟ نفذ.

كاد مسعود خضر ينهض ويهجم على مديره ليصفعه أو يركله أو يفعل أي شيء آخر يزيح عنه الكوابيس التي أثارها في نفسه. الكوابيس التي يخشى أن تذهب بعقله كما ذهبت بزميله السابق إلى مستشفى الأمراض العقلية.

(سجن للأحداث؟ سجن للنساء؟ يمكن أن تكون أمه أو أخته) وإذا لم تكن إحداها فهو مهدد بخطر الناس الأبرياء في الخارج الذين لا يرضون عن اعتقال النساء البريئات أيضاً. (هكذا الوضع: قاتل أو مقتول. وفي الحالين: مقتول. لعنة الله عليك يا رائد فيصل و على كل من يعاونك ويصدر إليك هذه الأوامر.)

نهض من مجلسه. فك رباط عنقه وأزرار قميصه العسكري. خرج من الغرفة الطافحة بالأضواء. وقف في الباحة القريبة. تطلع إلى السماء الصافية المخيمة بعتمة بلورية تجمع الظلام إلى الزرقة في انسجام مهيب. سره أن يجد نجوماً تومض من بعيد. شرع يوجه إليها رسائل قلبه النابض بعنف.

سجن تدمر العسكري – الباحة رقم 6:

ثلاثة رجال أقوياء: مدنيان وعسكري ما زالوا يعملون في غسل الجدران وتنظيفها وترميمها منذ الصباح الباكر. العسكري مشمراً عن ساعديه وساقيه يرش الماء بالدلو وبالأنبوب المطاطي على بقع الدم الحمر المتيبسة. المدني الأول يمشي وراءه يمسح البقع الحمر بالفرشاة أو يكشطها بالسكين وبالقدوم. المدني الثاني يدهن وراءهما بالكلس، ويسد الحفر والثغرات التي أحدثتها طلقات الرصاص.. بالإسمنت الأبيض والرمل. الباحة السادسة تترجرج على صفحتها برك مائية ملونة بالأحمر والأبيض والأسود. مع ذلك لم تستنكف النجوم عن أن تغتسل في هذه البرك، وتنافس أضواء الكهرباء الساطعة المندفعة من أعلى الجدران والزوايا. باحة واسعة وسماء واسعة وليل طويل.

جلس المدني الأول الأسمر على الأرض. أسند ظهره إلى الجدار. ألقى أدوات العمل إلى جانبه، توجه إلى نحو الشمال الغربي، وهتف مغنياً:

يا بنت الحرامْ ردّي يكفاك تقولي: بدّي

رجال طفرانْ ما عندي غير اللقمة بالكفكيرْ

أعاد غناءه وهو يصفق عساه يجتذب زميله المدني

الأشقر. ترك المدني الأول عمله. اقترب من المدني الثاني وقال له هامساً:

– نصحتك أكثر من مرة لا تردد الألحان الحزينة.

– أنا أغني لنفسي. أنا أخاطب زوجتي.

– هذا رأيك، ولكن الآذان لها حيطان.

يضحكان:

– طيب ماذا أغني يا مصطفى؟

– غن هكذا.

جملو، جملو يا جمولْ يا قصيرة بدك طولْ

بتسوي حلب واسطنبولْ وبتسوي جبل لبنانِ

– أولاً ليش هي قصيرة؟ أليس هذا انتقاد؟ ليش بتذكر (حلب) و (اسطنبول) في كلامك؟ أليست هذه شيفرة؟

يضحكان ضحكات طويلة. يلوح لهما العسكري من بعيد.

– لا تهتم به. إنه أطرش أخرس.

– لكنه عسكري!

– ولو...

– بتدخل السجن.

– ولو...

– بيفرموك

– ولو.

– بيدفنوك قبل أن تموت هناك في الرمال...

– ولو...

– نمسح دمك المتجمد على الجدران بالسكين والفرشاة والماء والصابون.

– ططظ..ظ ظ

يضحكان. يحمل المدني الثاني دلوه بسرعة ويقلبه على رأس صاحبه المدني الأول ويهرب. يخرج الأول الدلو من رأسه وقد تلطخ شعره ورأسه، وكتفاه بماء الكلس الأبيض. ركض وراء صاحبه، ورماه بالدلو من بعيد فلم يصبه. أخذا يتراكضان. العسكري يلوح لهما محتجاً وهما يضحكان. أخيراً جلسا. قال الثاني:

– يا مصطفى. أنا ما زلت أرى الكوابيس الرهيبة كلما نمت منذ أن وقعت الحادثة وأنا خارج السجن، فيكف وقد استأجروني ودخلت السجن وصرت أرى الآثار على الأراضي والجدران.؟!

– هل أنت ارتكبت جريمة؟

– لا.

– هل كنت تستطيع منعها؟

– لا.

– فماذا تريد؟

– انظر. إنهم فوق ذلك يرقصون ويغنون. والعالم معهم يرقص ويغني.

– الله كريم. الله كريم.

– انظر حتى القمر يرفض أن يظهر.

– لكن النجوم موجودة. ألا تراها؟

– ما نفع النجوم بلا قمر؟

– للنجوم دورها وضياؤها. وللقمر دوره وضياؤه. والقمر موجود وإن كنا لا نراه. ولا بد أن يظهر مرة ثانية.

ابتهج المدني الثاني. انطلق يغني:

ليا وليا. ياليه يا ورد جوري في الميه

قومي العبي بصابيعك بمال الدنيا ما بيعك

وإن طعنتني لأطيعك وحطك في عينيه

المدني الأول –ماذا تقصد بالورد الجوري والعبي بأصابعك؟

المدني الثاني –أقصد قتلك يا دمي يا دمك!

يضحكان ويتعانقان ويتدحرجان في برك الماء الأسود والأبيض والأحمر.

الليلة السادسة والستون

ليلة عيد الفطر

مساء يوم السبت 10 آب 1980م

الموافق لـ 29 رمضان 1400هـ

عند منتصف الليل تناهى إلى مسامع السجناء أصوات مدافع العيد. كانوا يتوقعون الإعلان عن حلول موعد العيد وعن طريق طلقات المدافع... لكنما سماعهم الطلقات أكسب الشعور يقيناً، وأكسب اليقين مشاعر أخرى.

لم يكن السجن في يوم ما مقبولاً لدى النفس البشرية، لكن بعض الشر أهون من بعض. السجن في رمضان أخف وطأة من السجن في الأيام العادية، والسجن خارج سورية أخف من السجن داخلها، والسجن المدني فيها خير من السجون السياسية والعسكرية، وكل سجون سورية أخف من سجن تدمر العسكري الصحراوي.

تلك كانت تأملات حسان وعبد الوهاب وجميل وعبد الحكيم وإبراهيم. ما إن سمعوا مدفع العيد حتى سكنهم شعور جديد، وانقلبت تأملاتهم إلى انفجار شلالات من الذكرى وانكسارها على جدران السجن الصخرية.

لم تمض أيام رمضان الأخير بلا ذكريات وتداعيات. لكن صيام النهار وقيام الليل بالصلاة وتلاوة القرآن حتى الصباح، وانطلاق الأرواح والنفوس في أجواء قدسية، كل ذلك ألان جدران السجن، وفتح أبواباً واسعة على حدائق وجنات تغري بالسياحة، وتؤنس المستوحش.

الآن رمضان انتهى... والعيد بدأ.

أقل ما في العيد خروج من الذات إلى الآخرين.

الأقارب يتزاورون. الأب يستقبل الأبناء. الأبناء يقبلون يد الأم والجد. الجيران يتبادلون التهاني. المسافرون يرجعون. الأطفال يسرحون بالأثواب الجديدة والألعاب ونقود العيدية. الأراجيح. الولائم. كل هذا وأكثر في أيام العيد. لكن أي عيد؟! وهل للسجناء عيد؟! وهل لسورية عيد؟!

رفع حسان ذراعه. خبط بقبضته على الجدار الأيمن. في تلك اللحظة خبطت عشرات الأيدي على الجدران أو القضبان أو الأبواب. لم يأمرهم بالخبط ولم يكونوا ينتظرون إشارته. كانوا في تلك اللحظة منخرطين في أزمة واحدة. تفصد العرق من تحت أصابع حسان الخمس على الجدار بغزارة. سال وهو يكتب خمسة أحرف: (العيد)، سال ماء العيون والأنف والفم على الخدود حتى أعلى الصدر وكتب كلمة: (العيد). رمضان يلوح قائلاً: وداعاً جاء العيد. طلقات المدفع تقول جاء العيد. عيد. عيد. عيد. أين هو العيد؟! المدينة الغافية استيقظت كلها وهي تردد: العيد... العيد.. الأضواء. أصوات السيارات. الضجيج البعيد المبهم. الخياط يقص ويخيط الجزار يذبح ويسلخ. النساء

تطبخ. حسان، وهو طفل، يحتضن الحذاء الجديد والجوارب وينام على حلم العيد. الحاطبون خرجوا إلى الأحراش يجمعون أغصان الآس ليصفوها على أبواب الجامع الكبير.

الناس كلهم ينتظرون العيد، حتى السجناء وحسان كانوا في انتظار العيد. ها قد جاء العيد فماذا يريد حسان من العيد؟! هو في السجن زوجته وأولاده مقطوعون في الغربة، إخوانه على أعواد المشانق، أو تحت الأحجار، أو في أعماق السجون، سورية كلها في سجن كبير (عيد بأية حال عدت يا عيد)؟ لم يكن يتصور نفسه بأن سوف يبكي يوماً ما، ولو قطع جسده قطعة، قطعة. نهض يتمايل. الجدران تتمايل. الأرض مبللة. الأثواب مبللة. الطوفان يطبق على الزنزانة. لمن السجن؟ لمن؟ قضيت حياتي كلها في حب الخير وعمل الخير ثم أجازى بالسجن؟! يا رب أنت وحدك العادل الرحيم، وبيدك الحكم والقضاء، وأنت أعلم مني بحالي، أهكذا جزاءي؟! ما كان أغناني عما أنا فيه؟ كان بوسعي أن أتابع حياتي الوادعة الناعمة. كان بوسعي أن أوفر لنفسي المتعة واللذائذ المباحة والمشروعة، كان بوسعي أن لا أدخل السجن فلماذا أفعل بنفسي ما لا يفعله الجاهل؟!

انشق الجدار انبثق نور مهيب. تشكل رجل نوراني أبيض قال بصوت أليف:

– أنت اخترت هذا الطريق بملء إرادتك، لم يكن بوسعك غير ذلك، ولو خرجت من السجن لعاودت مسيرتك نفسها، ولو لم تفعل ما فعلت لما وجدت معنى ولا طعماً للعيد ولا لرمضان ولا للحياة. أليس

كذلك؟

– من أنت؟

– أنا العيد؟!

– إذا كان هذا ذنبي فما ذنب أهلي.

– بقدر ما يصيبهم حظ من العناء ينالون حظاً أكبر من الوعي والأجر.

– وما ذنب شعبي؟

– أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟ ألا أن نصر الله قريب.

لم تكن هذه المعاني جديدة على حسان، ومع ذلك أحس كأنها تتنزل عليه لأول مرة. حديقة أخرى من حدائق الصبر والأمل انبسطت أمامه، هبت منها نفحات تخللت كل خلية من خلاياه، بدأت خلاياه تمتص موجات النور الشفيف منبعثاً من الزائر، الرجل النوراني. قال الرجل:

– ألا تدعوني إلى الجلوس؟

– عفواً. تفضل.

افترش الأرض فتألقت. لمس الجدار فاخضر.

النهار السادس والستون

صباح العيد

يوم الأحد 11 آب 1980م

1 شوال 1400هـ

في الوقت المألوف لتقديم طعام الفطور. سمعت أبواب الزنزانات تفتح وتغلق بوتيرة بطيئة غير مألوفة. إنه العيد. ما السر الذي يأتي به العيد؟

أخيراً فتحت الزنزانة رقم /10/. أطل رجل مدني في الأربعين، خطا خطوة أو أكثر ماداً يده بالمصافحة، قائلاً لحسان:

– كل عام وأنتم بخير.

(ما هذه الهبة السماوية. رجل يعايدني في السجن؟)

– أهلاً وسهلاً. كل عام وأنتم بخير.

كان الرجل الزائر يرتدي قميصاً صيفياً أبيض. وبنطالاً بنياً ضارباً إلى الصفرة. ما يلفت النظر محياه الجميل. ابتسامة لطيفة حقيقية. وجه ودود، كأنه معروف منذ سنوات الطفولة. خدود مخضبة بحمرة رقيقة. أنف صغير. عينان سوداوان وادعتان مثل عيون الحمام. شعر كستنائي غير كثيف، يتموج بتجعدات قليلة. يخيل لمن لا يعرفه أنه رجل سوري وليس نائب مدير السجن.

– كيف الحال. أستاذ؟ (ابتسم خال أنيق على قمة خده الأيمن)

– بخير والحمد لله.

– تفضل. ضيافة العيد. (أشار إلى شيء وراءه).

تقدم حارس شاب يحمل صينية كنافة نابلسية. حارس آخر يحمل الصحون والملاعق. تناول حسان حصته من الكنافة. انصرف الزوار بهدوء. المعاني التي دخلت بدخول هؤلاء الزوار لم تنصرف. أخذت تتوالد.

النهار الخامس والسبعون

يوم الاثنين 19 آب 1980

كان الحارس ذو الشوارب يدب في الممر على رؤوس أصابعه. استطاع أن يفاجئ حسان وهو يمارس تدريبات رياضية. حركات سويدية. قفز خفيف على

مشط القدمين. أطل الحارس من الكوة.

– ماذا تصنع؟

– لا شيء. حركات رياضية.

– الخير لك أن تغسل الممر من أن تنط وتقفز في غرفتك.

استدار حسان. جلس على فراشه يمضغ مرارة. هل يمنع من الرياضة، وقد أخذ عسر الهضم يضغط على معدته وأمعائه؟ لم تفلح العلاجات المتوفرة. لا شرب الماء على الريق ولا الإكثار من الفليفلة الحارة. ثم أخيراً يأتي الاقتراح بتجشم عناء الغسل للممر بالماء والصابون، وحمل الدلاء الملأى بالماء والتجديف بالمجرفة المطاطية وغير ذلك مما ترك للشباب من السجناء. (هل يفعلها أبو الشوارب؟) دعا حسان ربه تعالى أن يخلصه من اقتراح أبي الشوارب الذي ليس بينه وبين التنفيذ أي مسافة: (تعال أنت. يعني: تعال. تجرد من ثيابك يعني: تجرد من ثيابك لا اعتراض ولا تردد ولا التباس).

(ما الذي جرى لك يا صديقي العزيز؟)

في منتصف الليلة الماضية كان لأبي الشوارب موقف مخالف لموقفه هذا اليوم.

حينما هجع السجناء وبدأ شخيرهم يتسلل من كوى الأبواب، ويغطي على سكون الليل الطامي.. أحس حسان بخطوات متمهلة تعبر الممر. تقف حيناً ثم تمضي. أخيراً وقف شاب في الثلاثين أمام زنزانة حسان، أطل من الكوة: وجه أسمر حليق. أسود الشعر. عيناه ثاقبتا التحديق. لباسه مدني. قال:

– كيف حالك؟

– بخير.

– هل يلزمك شيء؟

– نعم.

– ماذا يلزمك؟

– علبة مناديل ورقية، (فاين).

– تلزمك لماذا؟

– للزكام، للنظافة.

تغير الوجه الأسمر. كشر عن أسنان صفر. عصفت زلازل وبراكين في تجعدات الجبين وحول الشاربين. وقال:

– تظن نفسك في بيت أمك حتى تطلب هذه الطلبات؟

فوجئ حسان بهذا الجواب. قدر أن الضابط المناوب قد تعمد استدراجه بالسؤال عن حاجته حتى يوبخه بهذا الشكل. (ماذا جنيت حتى يعاقبني؟ هل لهذه الواقعة علاقة بسلبية التحقيق؟...)

بعد أن انصرف الضابط المناوب أطل الحارس من النافذة، قال برقة واضحة.

– ماذا طلبت من الضابط؟

– مناديل ورقية.

– ألا تعلم أنه إنسان متعجرف. في الصباح اطلب ما تشاء من الإدارة. ولا تتعب نفسك معه.

إن تجربة السجن تدفع حسان إلى الظن السيء بكل معاملة يلقاها من الجهات الرسمية سواء أكانت حسنة أم بشعة. ومع ذلك وجد نفسه يستمتع بتعاطف أبي الشوارب معه حين صده الضابط المناوب. أيا كان سبب هذا التعاطف، أهو الطبع المتعجرف الذي يجلد الضابط

بـه كل النـاس من سجنـاء ومن مرؤوسين، أم هو الإحبـاط الذي عصف بـحسان فوقع في نـفس الحارس.

تلك الليلة قضاها حسان على إحساسين متنـاقضين. إحساس بـمرارة الإحبـاط، وإحساس بـحلاوة التـعاطف. ظل إحساس الحلاوة يتضاعف ويأتي على الإحساس الآخر حتى فاجأه أبـو الشوارب بـالاقتراح الجديد، غسل الممر بـالماء والصابـون.

مما زاد في مرارة حسان أن جاءه الحارس بـعد قليل بـقطعة الورق المقوى التي رسم عليها حسان أداة تساعده في علاج الإمساك قال الحارس بـاقتضاب:

– خذ. لم نـفهم عليك أي دواء تريد.

لم يطلب حسان دواء. إنـما طلب حقنـة مطاطية تمتص الماء، وترسله في الأمعاء الغليظة حيث تـنـفك عقد الطعام المضرب عن الخروج.

أطل من كوة البـاب وجه مدير السجن. ضابـط طويل القامة. عريض المنـكبين. أشقر الشعر. عسلي العينـين. قليل الكلام. لا يـتخلى عن لبـاس الشرطة الرسمي. قال لحسان:

– هيّء نـفسك

(أهيء نـفسي لأي شيء؟) هذا ما سأل حسان نـفسه عنـه، لأن الضابـط لم ينـتظر ليسمع سؤال حسان، أو لأنـه لا يسمح له بـالسؤال، ولو كان الأمر غير ذلك لكلف نـفسه بـتوضيح المراد.

لم يـفعل حسان شيئاً غير التردد والارتبـاك والتجول في شوارع الظنـون والاحتمالات.

(إن هذا الضابـط لم يدعني من قبل إلى التحقيق أو الحمام. دعاني مرة للاستعداد وكان ذلك يوم طلبت

لمقابلة الرئيس الأعلى للإدارة بعد أسبوعين من الاعتقال. وزارني مرة ليعيرني المجلد الثاني من كتاب "فقه السيرة" معلناً أنه من مكتبته الخاصة. فماذا يريد مني اليوم؟)

لهجة الضابط كانت محايدة جداً، لا توحي بخير ولا بشر، أو هكذا خيل لحسان.

أخيراً نودي على حسان، فخرج بقبعة بيضاء مخرمة على رأسه، وبشحاطة بلاستيكية في رجليه، ولم يبدل (جلابيته) الزرقاء السماوية. رافقه جندي مسلح بكامل عدته العسكرية. حين جلس حسان على المقعد الخشبي في سيارة (الجيب) العسكرية جلس الحارس على يساره بجوار البوابة الخلفية للسيارة. بوابة مفتوحة، ترى منها الشوارع والأبنية والمارون. كما ترى البندقية الروسية التي ركزها الحارس واقفة بشكل عمودي بين قدميه وركبتيه. انضم إلى السيارة ركاب مدنيون آخرون ليسوا بسجناء. تبادلوا النظر والهمس حول حسان. انطلقت السيارة تقطع شوارع العاصمة الرئيسة والفرعية.

كان حسان نهباً للتوقعات. أهو نقل إلى سجن جديد، أم إفراج، أم زيارة للأهل، أم مفاجأة غير متوقعة؟!

أحس حسان بضوء الشمس الغامر إحساساً خاصاً، إحساس من يغمس في لجة ماء، وهو لا يجيد السباحة، أو إحساس من ينقل فجأة من أعماق بئر عميقة مظلمة إلى كبد السماء المشحونة بأشعة الشمس المكثفة: انبهار بالضياء. تفتح الأنف والرئتين للهواء الطبيعي. مشاهد جديدة متتابعة متنوعة للناس والأمكنة والأشياء. نوع من الحلم البهيج وليس بحلم.

إنه معاناة أشياء محسوسة جداً يؤكد بعضُها وجود بعضها الآخر باستمرار. لولا وجود الحارس المسلح المستيقظ لكان الأمر مشكوكاً فيه. فطبيعة السجن موجودة، والحياة الحقيقية موجودة. أمر مستغرب. لكنه واقع حقيقي. وهو بالنسبة إلى السجين مقبول ومعقول ومطلوب أيضاً. إن الموشك على الموت خنقاً يسعده هبة نفس واحدة.

في هذه الأثناء كانت زوجة حسان قد وصلت إلى العاصمة هي وأولادها الثلاثة: مجاهد وميساء وحذيفة. نزلوا من سيارة (الدارة) وركبوا إحدى الحافلات العامة.

لو أتيح لأحد يركب في طائرة سمتية محلقة في سماء العاصمة، وينظر إلى الأرض لاسترعى انتباهه حركة سيارة (الجيب) العسكرية التي تقل حسان، وحركة الحافلة المدنية التي تقل زوجته وأولاده. كانت السيارتان تتحركان باتجاهين متقابلين، كأن كل واحدة منهما تسعى لمقابلة الثانية، أو كأن كلاً منهما تتجه إلى هدف واحد.

جلست الأسرة الصغيرة على مقعدين متجاورين. الأم وابنها حذيفة على مقعد. مجاهد وأخته ميساء على مقعد. كان مجاهد لا يفتأ يداعب أخويه بالمزاح لتسليتهما وليخفف عن والدته همومها. كانت الأم تشاركهم فتبتسم بين الحين والآخر، وهي تداري هماً عظيماً. إنها مشغولة البال بعسر الهضم الذي ينتاب زوجها بين شهر وآخر، كما تفكر بانشغال باله عليها وهي المريضة بالسكر، ذلك المرض الذي يتضاعف مع تضاعف الهموم والأحزان. إنه لا يريدها أن

تحزن مهما أصابه من مكروه، كما يريدها ألا تترك الأولاد يحزنون. أيهم يحبه أكثر هي أم الأولاد؟ إن غريزة البنوة، حب الأولاد للآباء حقيقية عميقة فطرية في جبلة المخلوقات، ولعلها أقوى من حب الأزواج. هي تحس أن حبها لزوجها أعمق وأضخم من حب الأبناء للآباء. في ليلة زفافها قالت أمها له: أنت زوج ابنتي وأبوها. تعني أن أباها متوفى. وقد وجدت فيه الزوج والأب والأم والأخ وأكثر. إن حبها لحسان لا يعدله حب امرأة خلقت من قبل، أو يمكن أن تخلق من بعد. لماذا؟ إن هناك أسباباً كثيرة سبق لها أن أتعبت نفسها في تعدادها، ووجدتها في النهاية أقل مما تحس به. أهي الثقة؟ أم تشابه الأفكار والمشاعر؟ أم تقارب الأمزجة والعادات والطباع؟ أم التواضع؟ أم طول العشرة؟ إنها لم تعرفه من قبل فترة الخطوبة القصيرة. ولم تختره أو يخترها من قبيل العشق والغرام، ومع ذلك تجد أن ما بينه وبينها أضخم وأعظم من قصص العشق والغرام. كانت نفسها منصرفة عن الزواج قبله، ولما تزوجا لم تعد تتصور نفسها بدونه. إنها قضت معه حتى الآن ثماني عشرة سنة خصبة بأيامها ولياليها. ما الذي يجعلها تلحق به إلى ديار الغربة، وتصبر؟ ذلك يرضيه فهو يرضيها. لم يكن يكتم عنها شيئاً. إذا كتب قصة أو قصيدة كانت هي أول من يسمعها منه. حتى تحرش النساء الغريبات به كان يرويه لها، فتضحك معه ولا تشعر بأدنى غيرة. إنها تعلم مدى حبه لها ومكانتها في نفسه، وهل هناك أكثر من أن تفكر بأن تخطب له، وهو يرفض بشدة. قد يعجب الناس من هذا الحب، لكن ما تحس هي به أعجب وأغرب.

ولم تحدثهم إلا عن النذر اليسير منه. قال لها مرة: في صغري نزلت من مدينتي جسر الشغور إلى مدينة حلب، وتجولت فيها مع ابن خالي. كنا فتيين لا يجاوز عمرنا الثانية عشرة، فضعنا آخر المطاف، ولما سألنا عن المكان الذي وصلنا إليه.. قيل لنا حارة (عينين). لم أكن أعلم أنك كنت تسكنين مع أهلك في تلك الحارة. فما السر في ذلك؟ قالت له: ماذا لو تعرفت علي في ذلك الوقت وأنا صغيرة السن، قال لها: أنت ما زلت عندي صغيرة السن، وسوف تظلين كذلك ضحكت آنذاك وصدقته لأنه لا يكذب. لقد جربت معه المزاح فكان يصدق المزاح على أنه جد محض. لا يكذب ولا يتصور الآخرين يكذبون، هل يستحق مثل هذا الإنسان السجن؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

تذكرت سعاد الخلاف المزمن الذي يثيره زوج أختها بسبب الميراث. ذلك الصهر الذي استدرج الأخوات الثلاث والأخ الذكر والأم إلى دهاليز المحاكم ومراجعات المحامين وتهديدات الشرطة بحجة الحصول على حصة زوجته من ميراث أبيها. لقد اتهم بني حميه زوراً وبهتاناً بالظلم، وهو يريد من وراء ذلك الضغط والابتزاز، وعلى الرغم من إخفاقه لم يكف عن التهديد والوعيد وتجديد الشكاوى، فلما أصبح حسان أحد الأصهار الثلاثة سار على النقيض. أرسل الصهر المعاند أحد الوسطاء يغري حسان بنهب الميراث، فزجره قائلاً: نحن متنازلون عن حصتنا في الميراث.

قال الوسيط: هذا حقكم؟

– نحن متنازلون عن حقنا.

– لا يجوز لكم التنازل.

انتفض حسان المودع المسامح قائلاً:

– حتى عن حقنا لا يجوز لنا التنازل! أي رجل أنت؟ لو كنت أعرفك من قبل لما استقبلتك في بيتي!!

هكذا كان حسان: زوج يقنع زوجته بالتخلي عن ميراثها لأهلها، زهداً بالمال، وتأليفاً للقلوب، وتأديباً للصهر المعاند الطامع. ومع ذلك يكون مصيره النفي والتشريد والاعتقال. لا حول ولا قوة إلا بالله.

لكن أليس اعتقاله في هذا البلد خيراً من اعتقاله في سورية؟ إن زملاءه وإخوانه يعانون الأهوال، لا خبر ولا مخبر. لو كان معتقلاً هناك لكان في سجن تدمر. ولو كان في سجن تدمر –يا لطيف– لما بقي له أثر. من يصدق أنني أحس بوجوده كأنه معي. أحس برائحته، كما أحس يعقوب برائحة ابنه يوسف عليهما السلام.

توقفت الحافلة التي تقل الأسرة الصغيرة أمام مبنى ضخم. كما توقفت سيارة (الجيب) العسكرية التي تقل حسان وحارسه أما مبنى آخر خلف المبنى الضخم. كل من المبنيين يدير ظهره للآخر، الأول مستشفى مدني يطل على الشرق، الثاني مستشفى عسكري يطل على الغرب. في وقت واحد كان جناحا الأسرة يصعدان سلالم الدرج. وهما لا يعلمان، ويمران أمام الغرف المتناظرة بتواز وتوافق عجيب. فلو انفتح أحد الجدران التي تحجب بينهم لتم اللقاء.

أخيراً فحص حسان، وكتبت له وصفة طبية: شراب أبيض كالحليب، يؤخذ جرعات يومياً. على حين أجري فحص تحليلي لزوجته، تستلم نتيجته في اليوم التالي.

لم يضيع حسان فرصته لتفحص الناس وتأمل

وجوههم عساه يلقى أحداً من أقاربه أو معارفه، كأنه يحس بأن أحداً ما يخصه غير بعيد عنه. تخيل نفسه يلقى زوجته وأولاده فجأة. ضحك من تخيلاته. كان يتبع الحارس المسلح كما يتبع الطفل أباه. لم يفكر بالهرب، وإن خطر على باله. تساءل عن السبب: أهو الحرية الجزئية التي أستمتع بها في هذا اليوم بزيارة الطبيب. أم هو الضعف الجسمي نتيجة المرض، أم هو الحارس المسلح اليقظ، أم جميع ذلك، أم شيء آخر كالإحساس المبهم بقرب الإفراج؟!

أدارت السيارتان ظهريهما. أخذتا تبتعدان عن بعضهما كأن شيئاً لم يكن. بالفعل لم يكن شيء. فكثير من السيارات يقف، وكثير منها يتحرك كثير منها يتقارب، وكثير منها يتباعد. ولو أتيح لأحد أن ينظر من طائرة سمتية إلى الأرض لوجد هاتين السيارتين كيف تتباعدان كأن بينهما عداوة، والحقيقة أن بينهما من المحبة والمودة ما الله وحده به أعلم. ولو أتيح لأحد أن يتأمل الأقدار التي جمعت بين ركاب هاتين السيارتين منذ ثماني عشرة سنة حتى الآن، وكيف رسمت لهم هذا المصير، وما تزال ماضية في تصريفه لخر صعقاً.

الليلة السادسة والثمانون

مساء الجمعة 29 آب 1980

حينما أظلمت السماء وراء النافذة المطلة على الدنيا، وبدأت نجوم الليل تلتمع من بعيد كان حسان غارقاً في تأملاته، وهو مسند ظهره إلى الجدار الخلفي، وعيناه صوب الكوة الصغيرة على باب الزنزانة. إن عينيه مفتوحتان. لكنهما لا تريان شيئاً محدداً. الذي

كان يرى هو عينان أخريان متربصتان في أعماق الدماغ تتحركان بإمرة الذاكرة حيناً، أو بإمرة العقل أحياناً. وفي أحيان أخرى تتمردان، أو تتحالفان مع الهواجس والأهواء والرغبات أو النعاس.

كانت العينان الداخليتان تتجولان في ممرات السجن، وتتفرسان في جدرانه الداخلية. وتتساءلان: هل هي القدر الدائم، وهل يمكن الصبر المستمر على مناطحة الجدران وازدراد الهواء الحبيس؟

كان العقل يقول: إن هذا الحبس خير من سجون سورية، ويقول أيضاً: ها قد خفت نوبات التحقيق، واعتدلت لهجات المحققين وتصرفاتهم.

وكان الوسواس الخناس يقول: ما الضمان؟ إن الذي حبسك ثلاثة أشهر قادر على تسليمك أو الاستمرار باعتقالك إلى ما لا نهاية.

يعود العقل فيناقش ويحتج ويسوق الأدلة والبراهين، وينتهي إلى التلويح بالأمل القريب. القريب جداً. لكن حجة الوسواس الخناس تستمد الصلابة من صلابة الجدران والأبواب والقضبان الحديدية والهواء المتعفن.

هذا القطاع من نفس حسان قد استطال واتسع على حساب غيره مع مرور الزمن، وهناك قطاع ثان كان يضمر وينسحب إلى الوراء شيئاً فشيئاً، وإن لم يعدم اندفاعات كبيرة طغت أحياناً على ذلك القطاع. هذا القطاع هو التفكير بالعالم الخارجي بسورية: الوطن والشعب والمصير. سورية السجون والاعتقالات والمجازر.

كان حسان يقظاً في ملاحظة التطورات التي تعتري

نفسه، فيجرد نفساً أخرى لنقد النفس التي بين جنبيه، وتلك النفس التي يجردها، غالباً ما تمارس دور الشاهد أو الناقد أو الناصح. وفي حالات قليلة يهرب من هاتين النفسين ليصبح شخصاً ثالثاً يراقب الصراع المتفاقم بينهما، فيتعصب لإحداهما أو يصر على الحياد والهرب. وفي النتيجة لا هرب من السجن والجدران والمصير الغامض.

من التطورات التي رصدها في نفسه استطاعته أن يضعف إحساسه بوطأة الزمن مثلما استطاع إضعاف إحساسه بمشكلات ما وراء الجدران، لكن السؤال الذي لم يجد له جواباً: هل هذه التطورات الناشئة عن قوة إرادية تنبع من نفسه واختياره، أم هي نتيجة الخضوع لضغوط السجن والحرمان بكل أنواعه، وبالتالي يخسر نفسه تحت ستار التطبيب الذاتي.

إن كل نظرة يلقيها على الجدار الأصم أو الباب الحديدي كانت ترتد إليه كليلة وهي تقول: أنت إنسان ضعيف. اشتغلت بالسياسة ولست من أهلها فأوردت نفسك المهالك أكثر من مرة، فإذا نجوت هذه المرة، ولا أمل بالنجاة، فلا تكرر المأساة وإلا....

إن كل لحظة يقظة تمر كانت تقول له: ماذا أنت فاعل بنفسك؟ هل تنكر بأنك عاجز، وبأنك لا تحسب حساب العواقب. حتى الشعر الذي أحببته وتفوقت فيه لم تعد تستطيع أن تخطو فيه خطوة واحدة في السجن، والسجن خير ملهم للشعر.

ثم هل أنت فقيه يستطيع تمييز الحلال من الحرام في مواجهة السلطة الباغية من حيث التوقيت والكيفية والأعداد. وهذه الدماء التي أريقت وتراق

حتى الآن كم تتحمل من مسؤوليتها؟ لا تعتذر بأنك سجين أيضاً، فالشرع لا يبيح لك بأن تنتحر فضلاً عن أن تسهم في قتل غيرك.

أطل وجه الحارس الخفيف الأسمر من وراء الكوة، وهو يبتسم:

– يا حاج.. يا حاج. أبشرك.

رأى حسان وجه الحارس مشرقاً بألق غير معهود، وسمع كلمة (أبشرك)، ولم يهتز، لم يتحرك، حتى عيناه ظلتا تنظران بلا معنى. أعاد الحارس الأسمر كلماته، وهو يقرع هذه المرة على الباب. ولعله كان يرقص خلف الباب.

– ألا تسمعني يا حاج؟ إفراج. إفراج.

ربما استيقظ الإحساس اللفظي الموسيقي قبل غيره من أحاسيس حسان. ونتيجة إلحاح الحارس على التبليغ لم يجد حسان بداً من التظاهر بأنه علم بالخبر الذي يقتضي فرحاً وابتساماً وشكراً لحامله. إنها صدمة بالنسبة إلى حسان، مثلما كان وقع الإحساس بالاعتقال صدمة. شرع حسان يتكيف مع هذه الصدمة. قال له الحارس: (هيّء نفسك) فأخذ يهيّء نفسه. وقال له: (رتب أغراضك) فشرع يرتب أغراضه. هذا في الظاهر أما في الباطن، فإنه أخذ يعيد ترتيب نفسه وأحاسيسه.

ما إن بدأ يتذوق معنى الإفراج ويتخيل أبعاده، حتى تحرك الوسواس الخناس وقال:

– لا تستعجل بالتصديق، فكم سميت الأشياء بغير أسمائها، وكم دعيت إلى شيء فوجدت غيره. أليس هذا مبدأ من مبادئ السياسة التي تتعلم أبجديتها

بالممارسة؟!

ضحك حسان هذه المرة على الوسواس، وسخر منه، ولكن بتحفظ لكي لا يشمت به فيما لو حدثت مفاجآت.

قال حسان:

– ما الذي يحمل الحارس على الكذب؟

– ليس الحارس هو الكاذب أو المخادع، بل ربما كان أحد المخدوعين مثلك.

– سوف نرى على كل حال!

– سوف نرى!

طالت غيبة الحارس النشيط، ضاق حسان بالزمن الذي ينقضي وهو حبيس الزنزانة، ألم يوعد بإطلاق سراحه؟ تذكر أن مسافة لا بد منها بين صدور القرار وتبليغه وبين تنفيذه. حصل له مثل ذلك حين بلغه خبر الإفراج عنه في حزيران 967 الساعة الحادية عشرة ليلاً، ولم يخرج من قبضة السلطة المنفذة إلا في الساعة السادسة صباحاً.

– الإفراج أصبح مؤكداً. لكن متى بالضبط، وكيف؟!

عاد الحارس النشيط وقال:

– تعال استلم أمانتك

قال حسان في نفسه: (هذه علامة..)

في غرفة ضيقة، مغطاة جدرانها بخزانات صغيرة مرصوصة صفوفاً مزدحمة بجوار بعضها. استلم أمانته. محفظة يد جلدية. جواز سفر. هوية شخصية. مشط قلم. أوراق بيض. هنأه نائب مدير السجن. شكره على التهنئة. طلب منه أن يعود إلى زنزانته. في طريق العودة صادف المحقق المختص الأسمر. هنأه بدوره، ونصحه بالانتباه لنفسه أكثر، لأن هناك مخاطر

محدقة لم تزل متربصة به. شعر حسان بصدق اللهجة، وشعر أيضاً بطابع التعليم الأمني الذي يضطر لقبوله وهو لا يستسيغه.

لما أغلق باب الزنزانة عليه تألم كأنه سجن من جديد، وعلل هذا الألم بشدة الشوق للحرية، لأن موضوع الإفراج لم يعد وعداً، بل أخذ يكتسب أبعاداً ملموسة، وما هي إلا ساعات وينتهي السجن.

في طريقه إلى مكتب المسؤول الكبير صادف حسان زميليه إبراهيم ماضي وعبد الحكيم السيد بصحبة الحراس، كل منهما يتأبط أمتعته الشخصية ومظاهر الابتهاج بادية على محياهما. سلم عليهما، فتلقيا تحيته بالترحاب المشبع بمشاعر البهجة المتبادلة.

في غرفة السكرتير صادفوا زميلهم عابداً، فسلموا عليه. وفي غمرة السلام والأسئلة عن الأحوال كانت كؤوس الشاي وفناجين القهوة المرة تطوف عليهم.

أخيراً سمح لهم بالدخول على مدير مخابرات العاصمة، الذي كان المحقق الأسمر الطويل في إحدى جولات التحقيق. جلسوا على مقاعد وثيرة متحلقة حول منضدة المدير. كان موقع حسان مواجهاً لمنضدة المدير.

من أول لحظة كانت الجلسة ودية. لكأن المدير صديق حميم جداً، وذو معرفة قديمة بهم. الأمر لا يحتاج إلى تعليل. فموضوع الإفراج وحده يختصر كل التعليلات. ومع ذلك شرع المدير يبتسم ويمزح، ويحدثهم عن أن اعتقالهم كان في البداية لصالح البلد المضيف للتعرف عليهم وعلى هويتهم، ثم تحول الاعتقال لصالح المعتقلين أنفسهم لما كان يترصدهم

من مخاطر على يد أعدائهم فيما لو ظلوا خارج الاعتقال: من اغتيال أو اختطاف. لم يكلف المعتقلون الفرحون أنفسهم بتمحيص هذه التعليلات، لأن الشهور الثلاثة طبعتهم بطابع السمع والطاعة، ولأن موضوع الإفراج غالي الثمن. وماذا ينفع النقض أو الإثبات في أمر مضى وانقضى وأصبح ذكرى من الذكريات، أو على وشك أن يصبح كذلك.

من قبيل التواد ورفع الكلفة تجرأ حسان، فسأل المدير سؤالاً جدياً مشوباً بالمزاح، وهو ينظر إلى المحقق الأسمر المختص بجوار المدير:

– بودي أن أسألكم عن مصدر الخبرة المتقدمة التي يتمتع بها المحققون لديكم، خلافاً لرجال الأمن في سورية، بمعنى هل هذه الخبرة نتيجة البعثات الدراسية إلى دول أجنبية متقدمة في هذه العلوم، أو هي نتيجة دورات دراسية أو تدريبية داخل البلد؟

ابتسم المدير والمحقق المختص. تلقف الدور بالكلام المحقق المختص وهو يضحك:

– سيدي إن أبا مجاهد يريد في هذا السؤال أن يكون مستعداً إذا اعتقلناه مرة ثانية.

ضحك الحاضرون. كانت ضحكة حسان أقل من ضحكات الآخرين. قال حسان:

– هذا لن يتكرر إن شاء الله. وما دمتم على هذا المستوى المتقدم، فما يمنعكم من الجواب الصريح؟

في هذه الأثناء كان المدير مستريحاً على كرسيه الوثير الدوار باسطاً ذراعيه على أعالي الكرسي وهو يميل بهدوء، ويستدير مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار. ينفض سيجارته في المنفضة البلورية أمامه

بين حين وآخر، بلباسه الصيفي الرمادي الجميل وشعره الأسود الكثيف الذي يكمل أناقته وإشراق أسنانه البيض.

قال المدير بمودة:

– في البداية كنا نرسل البعثات الدراسية لهذا الغرض، لكن منذ سنوات صرنا نعتمد على أنفسنا. نجري دورات دراسية وتدريبية.

لم يندم حسان على جرأته في طرح هذا الموضوع. بل تقدم خطوة أخرى فقال:

– هل من الممكن أن تعطونا فكرة عن مواصفات الأفراد المتقدمين لهذه الدورات، وعن المواد المقررة التي تعطى؟!

بكل رضى واطمئنان تابع المدير حديثه، يدخن، يدور بالكرسي، يبتسم، يمزح، فقال:

– هناك نوعان من العمل الأمني. أحدهما جنائي والآخر سياسي. أما النوع الأول (الجنائي) فهدفه هو تثبيت التهمة على الذي جناها من خلال البصمات والشهود والوقائع والاعترافات وما شاكل ذلك، أما النوع الثاني (السياسي) فهدفه هو التعرف على شخصية المعتقل: ثقافته. ميوله. عواطفه. قوته وضعفه. وبناء على هذا التمييز بين (الجنائي) و (السياسي) يتم اختيار العناصر المرشحة، كما يتم اختيار المواد المقررة.

امتن حسان لهذا الجواب. كاد ينتقل إلى سؤال آخر حين عاجله المحقق المختص بسؤال:

– أخ أبو مجاهد، أليس اسمك الحركي أبا سالم؟

رد حسان على الفور:

– قلت لحضرتك أكثر من مرة ليس لي اسم حركي، اسمي أبو مجاهد. وبس.

ضحك الجميع، كما ضحك المحقق المختص حتى بدت نواجذه المشربة بصفرة التدخين الكثيف. كانت قبة قميصه البيضاء شديدة النصوع بالنسبة إلى بزته السوداء الداكنة.

استأنف المحقق:

– لاحظ سيدي. حتى اللحظة الأخيرة وهو يصر على أنه ليس له اسم حركي.

– ليست القضية قضية إصرار! (قال حسان لنفسه: لن تحظى مني بشيء ولو في لحظة الإفراج. ما رأيك؟!)

فتح المدير ملفاً وبدا أنه يريد الكلام. فصمت الحاضرون.

– قبل أن نودعكم بالسلامة أحدثكم في أمرين. أولاً: بوسعكم أن تقيموا في بلدنا هنا مدة أسبوع، تختارون بعدها السفر إلى أي بلد ترغبون به.

قفز إلى ذهن حسان الأرشيف والكتب التي صودرت من بيته، فقال:

– عفواً. والكتب التي احتجزت من بيتي والخزانة، ما مصيرها؟

لم يكف المدير عن الابتسام:

– غداً أبو بعد غد ترسل لنا ولدك مجاهد. يطلب الأغراض من الأستاذ (وأشار إلى المحقق المختص) وتسلم له.

– شكراً.

– العفو. الموضوع الثاني خطير. أرى من واجبي أن أحيطكم علماً بأهم الأحداث التي وقعت في مدة

اعتقالكم. لقد وقع حادث رهيب في سورية، كان سبباً من أسباب التفهم لقضيتكم والعطف عليكم.

أحس حسان وزملاؤه المعتقلون بخطورة الموضوع، لا لأن ملامح المدير والمحقق المختص قد تغيرت، بل لأن السياق كله يدل على ذلك، بدءاً من الإفراج المفاجئ وانتهاءً باختيار موضوع بعينه للحديث قبل لحظة الوداع الأخير.

في تلك اللحظة دخل الحاجب حامل القهوة المرة، فأشار له المدير بالانصراف مباشرة فانصرف.

تعلقت عيون المعتقلين وأسماعهم وقلوبهم بشفاه المدير تستكنه الموضوع المهم. أطفأ المدير سيجارته. اعتدل في جلسته. قال متأثراً بلهجة متهدجة:

على أثر محاولة مخفقة لاغتيال الرئيس السوري ساعة وداعه لأحد الرؤساء، قامت سرايا الدفاع بقيادة أخي الرئيس بعملية انتقامية في يوم 27 حزيران الماضي.

تذكر المعتقلون المجازر الانتقامية السابقة. أخذ يكر في مخيلاتهم شريط المجازر. مجازر جسر الشغور واللاذقية وحماة...

– وردت أنباء فحواها أنه في صباح يوم 27 حزيران هبط في مطار تدمر الحربي "21" طائرة هليوكبتر من حماة تحمل "350" عنصراً من رجال سرايا الدفاع، وعشرة هليوكبترات من دمشق تحمل مئتين آخرين. وصدرت التعليمات لثمانين رجلاً منهم بالتوجه إلى سجن تدمر. وإلى عشرين بحراسة الهيلوكبترات. وأن يظل الباقون في حالة تأهب. وقسم الثمانون إلى

وحدات كل منها تضم عشرة رجال، وبمجرد أن دخلوا السجن صدرت إليهم الأوامر بقتل السجناء في زنزاناتهم وفي عنابر النوم، ويقدر عدد السجناء بين "600– 1000" سجين.

نحن نأسف لما حصل، كما نأسف لنقل هذا الخبر الفاجع.

قبل أن ينتهي المدير من رواية الخبر كانت المرارة قد بدأت تزحف إلى نفوس المعتقلين. وكان كل منهم قد بدأ يتفاعل معه على طريقته الخاصة التي لا تختلف في مجموعها عن طريقة إخوانه الآخرين، لكنها ملونة بخبراته الشخصية وبمعلوماته التفصيلية عن أسماء الأخوة المعتقلين في سجن تدمر من مدرسين وطلاب وعمال وفلاحين وأطباء ومحامين ومهندسين وعسكريين وحتى النساء والأطفال.

تخيل حسان لحظة البدء بالمجزرة كيف فغرت أفواه المعتقلين العزل، وتعلقت عيونهم الذاهلة بفوهات البنادق الرشاشة، فكاد يصعق.

تذكر حسان أول من تذكر زملاءه المدرسين المربين أمثال الأستاذ نبيه رفيق الصبا، والأستاذ صبري ذلك الجار الكادح والد الشهيد، والأستاذ عدنان البار بوالديه واخوته. تذكر أستاذ الجامعة الدكتور حسن المختص بالفيزياء النووية الفلسطيني الأصل الذي خلف أسرة لا معيل لها. تذكر أعضاء مجلس نقابة المحامين في سورية بما فيهم رئيسها. وتوقفت ذاكرته وقفة طويلة عند مجموعة واحدة من معتقلي دير الزور. تلك المحافظة النائية التي كانت بمنأى عن الأحداث الدامية. إنها مجموعة طلاب من الحلقتين

الإعدادية والثانوية، عددهم ثمانية وثلاثون فتى وشاباً، جريمتهم أنهم اشتركوا في تظاهرة. بعضهم لا يزيد عمره عن اثني عشر عاماً، وبعضهم أقارب أو أشقاء. وبعضهم وحيد لأمه ولأبيه. وأحدهم اعتقل برغم الرصاصة التي استقرت في ظهره أطلقها عليه أحد رجال السلطة.

ماذا جرى لسورية، وإلى أي حد وصل فيها البغي والطغيان؟

أحس حسان بانفجارات عنيفة تتابع في أعماقه. تلك الأعماق التي تطبعت في السجن على الهدوء والاستسلام للواقع. كان عاهد نفسه على ترك السياسة والانكفاء على الهموم الشخصية إذا هو يحس بأن الهموم العامة التي وأدها واحدة واحدة في جحور صخرية غائرة قد تحولت إلى عبوات ديناميت ناسفة، تضاعفت قواتها مئات المرات، وحطمت كل ما أقامه السجن من حواجز، وما ختم عليه من أختام وطوابع. ست مئة، ألف شهيد، هكذا مرة واحدة. إنهم صفوة البلد في العلم والأدب والإدارة والسياسة والاقتصاد والجيش. كل واحد له أهل وأقارب أو زوجة وأولاد. جيران وأصحاب وزملاء. إن فرنسة المستعمرة بل إسرائيل لم تقترف مثل هذه الجريمة. ولماذا؟ لأن رئيس الجمهورية تعرض لمحاولة اغتيال. ألف رجل مقابل رجل وأي رجل؟ لم يشترك واحد من الألف بمحاولة الاغتيال، ولعل المحاولة كلها ملفقة أو مختلقة لتسويغ الجريمة، وهل يمكن أن تسوغ؟!

من يستفيد من هذه المذبحة الهائلة؟ من قتل النخبة السورية وتلطيخ وجه سورية بعارها الذي لا

يمحى؟!

إنها انعطافة هائلة في تاريخ سورية، لها ما بعدها من آثار ضخمة لا يمكن تصورها ولا تصور أبعادها وتشعباتها.

هل يمكن تصديق ما حدث؟ أنا لا أصدق! لكن الرجل يؤكد، وليس بحاجة للكذب. مضى أكثر من شهر على الحادثة. إنه زمن كاف، للتأكد من صحة الخبر. وإذا كان صحيحاً فما العمل؟!

كل هذا جرى في غيابنا؟!

أنا لم أعد نادماً على تورطي في السياسة، أنا بحاجة للتعويض عن كل ما ينقصني في السياسة والقتال.

إن عيونك السود يا نبيه لتدعوني إلى معاقبة القتلة المجرمين.

إن تلاميذك يا صبري وعدنان ويا حسن لغاضبون.

أما أنتم يا حملة الأقلام والأفكار والإبداع فإن الحضارة لغضبى على فقدكم أضعاف أضعاف ما يفتقدكم أهلكم وأحبابكم الكثيرون.

ألف شهيد. ما هذا؟ ألف شهيد أعزل! نحن في مسلخ أم في بلاد الشام؟ بلاد العربية الفصحى والدين الحنيف.

نهض مدير مخابرات العاصمة، فنهض الحاضرون. سبقهم إلى الباب. مد يده يصافح المعتقلين، يودعهم واحداً واحداً، على حين اصطف عدد من المحققين في الرواق الطويل مودعين. لا بد من الابتسام في لحظات الوداع والإفراج، ولا بد من أن تتحرك الأعماق حركتها الخاصة بها.

– إن الحراس المرافقين سوف يوصلونكم إلى بيت رئيس اتحاد الأدباء صديقكم الذي كان يتابع قضيتكم. (كانت هذه آخر كلمات المدير.)

بينما كانت سيارة المرسيدس الجديدة المجهزة بأحدث أجهزة اللاسلكي تنطلق بحسان وعابد إلى بيت الأديب الصديق، سأل حسان نفسه سؤالاً، وكان الليل الساجي شاهداً بنجومه المتلألئة:

– هل كان من الضروري لمثلي أن يعتقل أو أن يشتغل بالسياسة؟

لم ينتظر جواباً. كانت الدنيا كلها تقول بلسان الحال والمقال:

– نعم ضروري.

انتهت